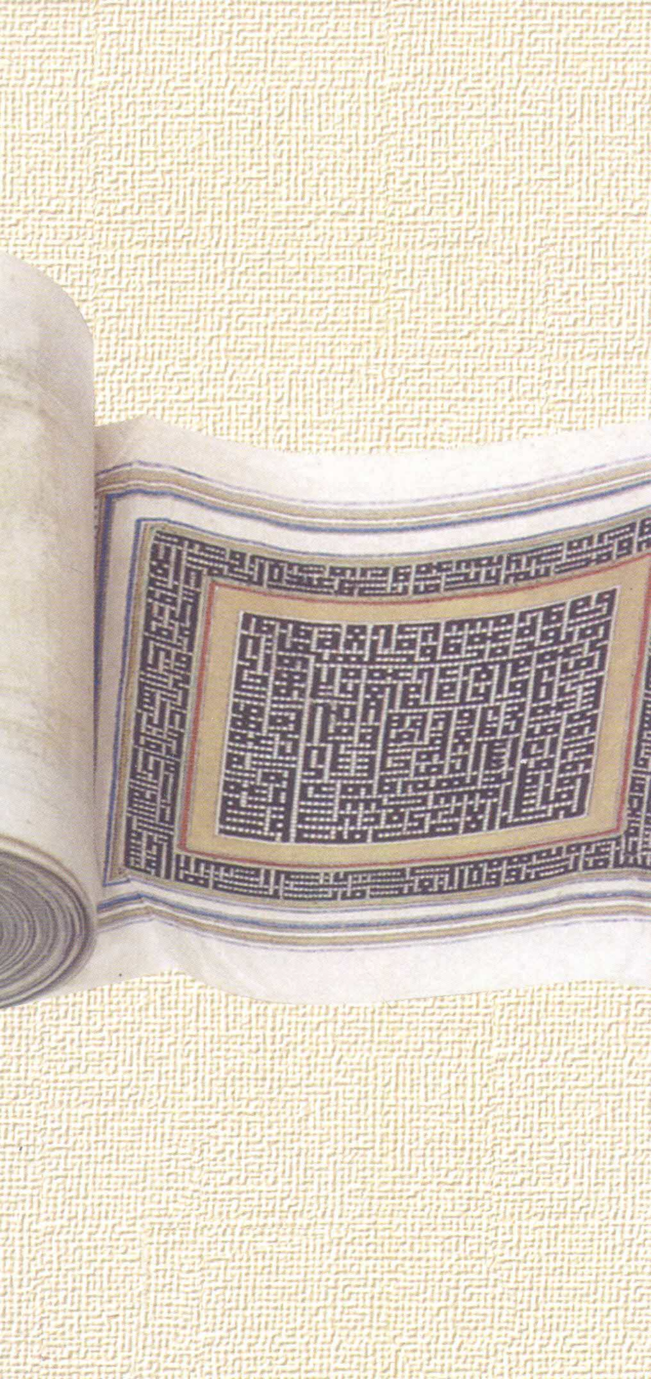
ملخص ألفيتين من
التاريخ التركي







منشورات وزارة الثقافة والسياحة جمهورية تركيا




ISBN : 978-975-17-3742-7



ملخص ألفيتين من التاريخ التركي

سليمان سَيْدي

ترجمة

عبد القادر عبد اللي



منشورات وزارة الثقافة والسياحة
جمهورية تركيا



المديرية العامة للمكتبات والنشر
3428

سلسلة كتب الجيب
30

الترقيم الدولي: 978-975-17-3742-7

www.kulturturizm.gov.tr

البريد الألكتروني: yayimlar@kulturturizm.gov.tr

العنوان الأصلي للكتاب:
An Outline 2000 Years of Turkish History

صورة الغلاف
مجموعة متحف قصر طوب قابِ

الطبعة العربية
ترجمة: عبد القادر عبد اللي
مراجعة: محمد حقي صوتشين
الإخراج والطباعة
Grafiker Printing Co.
Oğuzlar Mahallesi 1. Cadde
1396. Sokak No:6, 06520 Balgat-Ankara
Phone: +90 312 284 16 39 • Fax: +90 312 284 37 27
www.grafiker.com.tr

عدد النسخ: 5.000

طبع في أنقرة 2014

سليمان سيدي:

مخلص 2000 سنة من التاريخ التركي/ سليمان سيدي؛ ترجمة:
عبد القادر عبد اللي، مراجعة محمد حقي صوتشين. — أنقرة: وزارة الثقافة والسياحة، 2014.

......، 19 سم. منشورات وزارة الثقافة والسياحة؛ 3428، المشرف العام على سلسلة كتب الجيب لوزارة الثقافة والسياحة؛ 30

العنوان الأصلي للكتاب: "An Outline 200 Years of Turkish History"

ISBN: 978-975-17-3742-7

1. العنوان. 2. عبد اللي، عبد القادر، 3. صوتشين، محمد حقي، 4. السلسلة.

1.659

المحتويات

مقدمة 7

الفصل الأول: الدول التركية الآسيوية القديمة 14
1. إمبراطورية الهُون 14
2. الغوكتورك 18
3. الأويغور 24
4. التورغيش 27
5. القرغيز 28
6. القارلوق 28
7. الأوغوز 29

الفصل الثاني: الدول والقبائل التركية الأوربية الشرقية في أوائل العصور الوسطى 31
1. الهون الغربيون 31
2. خانية الآفار 36
3. الصابار 37
4. خانية الخزر 37
5. البيكينيغ 38
6. القبجاق 39
7. الأوغور والدول البلغارية 40

الفصل الثالث
الدولة التركية الإسلامية الأولى 42
خانية قراخان 44
الإمبراطورية الغزنوية (963 - 1187) 47

الفصل الرابع: الإمبراطورية السلجوقية العظمى 51

الفصل الخامس: الدول التركية في مصر وسوريا 61
الطولونيون (868 – 905) 61
الإخشيديون (935 – 969) 62
الأيوبيون (1171 – 1252) 63
المماليك (الدولة التركية) 63

الفصل السادس:
الدولة السلجوقية الأناضولية (التركية) 68

الفصل السابع: الدول التركية في الهند 80
سلطنة دلهي التركية 80
إمبراطورية البابر (1526 – 1858) 83

الفصل الثامن:
الخانيات التركية في منطقة شمال البحر الأسود 86
دولة القبيلة الذهبية (مغول الشمال) 86
خانية قازان 87
خانية القرم 88
خانية أستراخان 89

خانية قاسم (1445 – 1681) 90
خانية سيبير 90
خانية نوجاي 91

الفصل التاسع: الدول التركية في الأناضول وفارس 92
السلالة التيمورية 92
الآق قويونلو (الخرفان البيض) 94
القراقويونلو (الخرفان السود) 95
الصفويون 95

الفصل العاشر: الإمبراطورية العثمانية (1299–1922) 98
1. العصر الكلاسيكي (1299–1600) 98
2. الأزمة والتوحيد (1600–1774) 123
3. الضعف (1774 – 1914) 136
4. الانحلال 157

الفصل الحادي عشر: النضال الوطني التركي 170

الفصل الثاني عشر: تأسيس الجمهورية التركية 187
فترة أتاتورك (1923–1938):
إصلاحات أتاتورك الأساسية 187
فترة إينونو (1938–1950) 198
السياسة التركية الخارجية في الحرب الباردة (1945–1990) 211

المصادر والمراجع وقراءات مقترحة 218

الملحقات 221



مقدمة

لعب الأتراك دوراً أساسياً في التاريخ، وأسسوا خلال آلاف السنين من تاريخهم أكثر من مائة دولة كبيرة وصغيرة في قارات آسيا وأفريقيا وأوروبا. من أبرز الدول التي أنشأها الأتراك في الفترة المبكرة من تاريخهم كانت إمبراطورية الهون العظمى.

الإمبراطورية السلجوقية العظمى والإمبراطورية العثمانية أيضا من أبرز الدول التي أسست خلال الفترة الإسلامية. نجحت الإمبراطورية العثمانية في خلق جو من السلام عبر ثلاث قارات، تمتد على أكثر من عشرين مليون كيلومتر مربع، وعلى مدى أربعة قرون تقريباً مع أناس من أديان مختلفة وأصول عرقية متنوعة.

اعتبرت ملامح الدولة العثمانية هذه بين أعظم التشكيلات السياسية التي سجلت في التاريخ وأقواها، وشبهت بالإمبراطوريتين الرومانية والبريطانية فقط. على الرغم من أنها كانت الدولة الإسلامية الوحيدة البارزة في العالم في بداية القرن العشرين، فقد تخلف الأتراك العثمانيين عن العالم الحديث المعاصر الذي أنشئ في الغرب. ينسحب هذا أيضا على العالم التركي خارج حدود الإمبراطورية العثمانية.

بدأ رجالُ الدولةِ العثمانية والمثقفون بعملية التحديث في القرن الثامن عشر بغرض التخلص من المواقف غير الملائمة. كان هذا التحديث موازياً لنهوض قيم العلمانية والقومية التي أصبحت أرضية تشكيل العالم التركي الحديث. كانت الحرب العالمية الأولى من أكبر نقط

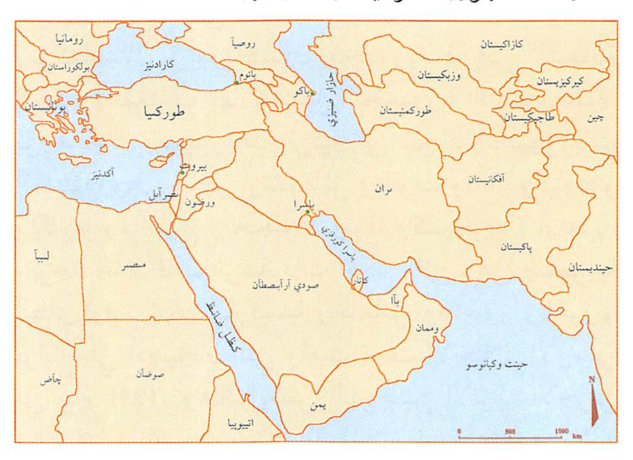
التحول على امتداد التاريخ التركي منذ خسارة الأتراك أكبر دولة لهم. بعد الحرب احتلت القوات اليونانية المدعومة من الغرب موطنهم في شبه جزيرة الأناضول. ولكن أتراك الأناضول ناضلوا تحت قيادة مصطفى كمال أتاتورك الكارزمية من أجل استقلال وطنهم مستندين في ذلك على مناطق الأناضول التي عاشوا فيها ما يقارب ألف عام، وأسسوا الجمهورية التركية باعتبارها دولة قومية. بعد سلسلة عمليات الإصلاح، أصبحت تركيا على عتبة الانضمام إلى الاتحاد الأوروبي على أساس أنها الدولة الديمقراطية العلمانية الوحيدة في العالم الإسلامي.

لا يقصد بمفهوم (الترك) من يعيش داخل الجمهورية التركية الحديثة، بل من على صلة بالثقافة التركية ويعيش خارج الحدود التركية سواء في دول مستقلة أو بجنسيات أخرى.

يُظهر لنا تاريخ العالم أننا يمكن أن نجد الشعوب التي تتكلم بعض لهجات اللغة التركية تحت عدة تسميات مختلفة: الهون، الطوبا، الأيغور، القراخانيون، السلاجقة، العثمانيون، التتار، القرغيز، الأوزبك، التركمان، الياقوت، التشوفاتش، البوماق.

لم يتّحد الأتراك أبداً في تاريخهم تحت راية واحدة أو يدخلوا ضمن حدود سياسية واحدة. وكانت هذه هي الحال منذ التاريخ القديم للشعوب التركية في سهول آسيا، وكذلك هي الحال في عهد إمبراطوريات الهون والغوكتورك والسلاجقة والعثمانيين. وهذه الحقيقة لا تزال قائمة إذا عدنا إلى الجمهورية التركية وعدد الأتراك الذين يعيشون خارج حدودها.

يُعتقد إلى حد بعيد أن اصطلاح (الترك) يعود إلى كيان سياسي وليس إلى هوية عرقية. بعد تأسيس دولة الغوكتورك، استخدام اصطلاح (الترك) أولاً باعتباره اسماً لتلك الدولة، بعد ذلك استخدِم باعتباره اسماً لتلك المجتمعات البدوية التركية التي كانت خاضعة للغوكتورك. بمرور الزمن أصبح اصطلاح (الترك) قابلاً للإطلاق على المجتمعات ذات العلاقة بالأتراك كلها. يوجد اليوم تمييز عام بين اصطلاحي (الترك) و(الأتراك). يطلق مصطلح (الأتراك) على أولئك الذين يعيشون ضمن الجمهورية التركية الحديثة، أما اصطلاح (الترك) فيطلق على الأتراك كلهم في العالم سواء كانوا يعيشون ضمن حدود الجمهورية التركية أو خارجها.



تقسيم الترك إلى فئتين موروث من الإمبرياليين الروس في القرن التاسع عشر (أي تقسيمهم إلى قسمين، قسم يعيش ضمن الجمهورية التركية وقسم خارجها)، إذ كان لهم دوافع سياسية بتمييز أتراك روسيا عن الأتراك العثمانيين. استمر هذا التمييز بين الاصطلاحين ليصبح

مستخدماً طوال الفترة السوفيتية، وتوضح أكثر في سياسة روسيا الاتحادية بعد انهيار الاتحاد السوفيتي. يمكن لأحد ما الادعاء أن هذا النوع من التمييز قد يكون لا مفر منه من أجل تمييز أتراك تركيا عن الأتراك في كل مكان. على أية حال هذا لا يغيّر حقيقة أن اصطلاح (الترك) قابل للإطلاق على كل الأتراك أينما كانوا يعيشون. يحتل العالم التركي الحالي نطاقاً واسعاً من الأراضي الممتدة عبر آسيا من شرق البحر الأبيض المتوسط إلى منغوليا وصولاً إلى شمال العالم حيث حوض الفولغا وسيبيريا على الشريط الحدودي لكازاخستان. يوجد ضمن هذه المساحة ست دول تركية مستقلة غير الجمهورية التركية الحديثة هي أذربيجان وكازاخستان وقرغيزستان وتركمانستان وأوزباكستان وجهورية قبرص الشمالية التركية (المعترف بها من قِبل الجمهورية التركية فقط). يوجد عدة جمهوريات تركية في اتحاد الجمهوريات المستقلة وهي باشقير وتشوفاش وياقوت وتاتار وكباردينو بالكاريا وقراقلباغ ونخجيوان وتوفا وكسينغجيان أويغور. ويوجد عدة أقاليم تركية ذات حكم ذاتي وهي جمهورية ألطاي وقرة شاي شاركيسيا وخاهاس وغاغاوز وناغورنو قراباخ في أذربيجان التي وقعت تحت الاحتلال الأرميني في عام 1991. وهناك بعض المواطنين الأتراك الآخرين وهم تتار القرم ويهود القرائية وكريمشاك في شبه جزيرة القرم وأتراك المسختيان والنوجاي والكوميك في جمهورية داغستان المستقلة. إضافة إلى ذلك ثمة عدة أقاليم مأهولة بالأتراك في إيران والعراق وجورجيا وبلغاريا واليونان ومقدونيا وطاجيكيستان وأفغانستان ومنغوليا الغربية أيضاً.

أصول الأتراك

تعود أصول مواطني الجمهورية التركية المعاصرة وهويتهم إلى الترك الأوائل وأسلافهم الذين نشئوا في آسيا الوسطى. الموقع الدقيق للموطن الأصلي للترك قبل هجراتهم غرباً هو محط نقاش بين العلماء من مختلف الاختصاصات. أثبت المؤرخون اعتماداً على الوثائق الصينية بأن جبال ألطاي ومحيطها تشكل حدود الوطن التركي. وسلّط علماء الآثار السوفيت بعض الضوء على تحديد موطن الترك بشكل دقيق أيضاً. وفقاً لهم فإن نموذج الحضارة التركية يمكن إيجاده في حضارة أندرونوفو في إقليم مينوسينسك في شمال غرب جبال ألطاي في 1700-1200 قبل الميلاد. حضارة الأندرونوفو ظهرت في وقت سابق لظهور حضارة أفاناسيفو بين 2500-1700 قبل الميلاد. كانت حضارة أفاناسيفو تجمع عرق المحاربين ذوي الرؤوس المضغوطة البيض مع خصائص متميزة من عرق مطاولي الرؤوس المغوليين والبحر الأبيض المتوسط. يعيش أحفاد عرق ذوي الرؤوس المضغوطة جنوب شرق جبال ألطاي.

لم يُوثق أقدم عهد للتاريخ التركي بشكل دقيق للأسف. بالرغم من ذلك فإن أول شعب تركي عُرف في التاريخ يسمَّى سكوثي حيث كان يعيش في منطقة قريبة من الخزر وفي مناطق مختلفة من آسيا الوسطى في القرن الثامن قبل الميلاد. ظهر اسم هيونغ-نو في المصادر الصينية القديمة (2000 ق. م.) وكان يطلق على الشعوب التي تعيش في القسمين الغربي والشمال الغربي من الصين. على الرغم من وجود جدل بين العلماء فيما إذا كان الهيونغ-يو من أصل مغولي أو تركي فإنهم

أجمعوا على أن هذا الاصطلاح يصف خليطاً من المغول والأتراك بالإضافة إلى شعوب بدوية لها عروق ذات صلة. ويعتقد بأن العنصر المؤسس والحاكم للهيونغ-نو هو الترك.

لقد أُجبِر الترك على الهجرة من أرضهم التي كانت في آسيا الوسطى إلى أماكن مختلفة، متوجهين على الأغلب نحو الغرب، واستمرت هذه الهجرات على مدى قرون. نقص الأرض المستخدمة والحاجة إلى تلبية ارتفاع عدد السكان، والتنقل مع حيوانات الرعي الخاصة بهم يمكن أن تُدخلهم في حروب مع أجانب أو فيما بينهم، وهذا ما فتح طريق هجرات قبائل البدو وشبه البدو التركية. يمكن أن تقسّم هذه الهجرات إلى قسمين، قبل الميلاد وبعده مثل ما طُبّق في العصور القديمة.

بحسب الأبحاث الأثرية فإن أول هجرة للأتراك وأكبرها وصلت إلى الجزء الغربي لما يسمى اليوم الصين وتركستان في أوائل الألفية الثانية قبل الميلاد. قبل هذه الهجرة فقد ثبت الأتراك أنفسهم في جبال ألطاي وكازاخستان وخارزم التي تقع جنوب خوارزم وفي جبال تيان شان التي تسمى تانغري تاغ في لغة الأويغور. بدأت هجرة جماعة أخرى من الغرب في القرون التي تلت انهيار أول إمبراطورية تركية في آسيا الوسطى وهي إمبراطورية الهون الآسيوية.

إذا نظرنا إلى مسار الشعب التركي التاريخي انطلاقاً من مواقع نقط البداية التاريخية نرى أن نهاية الطريق ليست في الغرب بل تتشعب عدة طرق ابتداءً من شرق آسيا الوسطى وتستمر على طول الطريق لتنتهي عند نقط في أوراسيا وحول العالم.

هاجرت بعض القبائل التركية إلى أوروبا الشرقية والبلقان عبر منطقة شمال البحر الأسود حيث أسست دولاً قوية مثل إمبراطورية الهون الغربية والدولة الآفارية البلغارية. ضغطت الدول التركية على هذه على الأجزاء الشرقية والغربية للإمبراطورية الرومانية. استقرت بعض القبائل التركية الأخرى مثل البتشنك والقبجاق في أراضي شمال البحر الأسود في طريقها إلى الغرب. توجه فرع آخر من القبائل التركية وهم الغزنويون نحو الجنوب الغربي لآسيا. وبقيت عدة قبائل أخرى في آسيا الوسطى. انتشرت قبائل تركية أخرى وخاصة الأغوز في الأناضول، وأسست دولتين عظيمتين عرفتا باسم الدولة العثمانية والدولة السلجوقية، ولعبتا أدواراً هامة في تاريخ العالم.

أهداف هذا الكتاب هي تقديم عرض كامل للتاريخ السياسي التركي من خلال استكشاف بعض جوانبه الهامة الممتدة من أقدم العصور إلى يومنا هذا. بما أن الكتاب موجه للقارئ الرسمي، فإن الهوامش والتعليقات الختامية لم تستخدم ذاتها في النص...

الفصل الأول
الدول التركية الآسيوية القديمة

1. إمبراطورية الهُون

على الرغم من حقيقة أن أول دولة تركية مسجلة تاريخياً هي من الهون الآسيويين في القرن الثالث قبل الميلاد، فمن المحتمل جداً أن بعض الترك هاجروا قبل ذلك بعدة قرون من منطقة ألطاي إلى الشرق أولاً، ثم إلى الجنوب والغرب. تعود هذه الهجرات المبكرة إلى دوافع عدة. استقر السكوثيون المؤلفون بشكل أساسي من قبائل تركية في المنطقة الواقعة بين نهر دنيبر ونهر دنيستر في القرن السادس والرابع قبل الميلاد. ثاني وأقدم دولة معروفة جيداً في التاريخ هي دولة شيونغ-نو.

لشيونغ-نو أهمية خاصة لأنهم أسسوا أول إمبراطورية في السهول. أجمع العلماء الأتراك على أنها كانت الدولة الأولى المنظمة التي أسسها الترك في آسيا الوسطى. يرى المؤرخون أن شيونغ-نو اتحدوا مع الهون في النصف الثاني من القرن الرابع قبل الميلاد. أول توثيق لتاريخهم يعود إلى العام 318 قبل الميلاد. أول حاكم معروف للهون كان طومان. شكّل الهون بقيادة خليفته متى خان (249-174 ق. م.) جيشاً ممتازاً.

بدأ متى خان -وهو أنجح قائد كارزمي للهون- سلسة من الغزوات. وصل الهون إلى ذروة قوتهم ونفوذهم تحت حكم متى خان بسرعة. هزموا التيبت والتونغوز واليويكس وقبائل أخرى. اتجه متى خان بعد ذلك إلى

الصين لمواجهتها كدولة معادية. كانت الصين سابقاً قادرة على التعامل مع هجوم قبائل السهول على إقليمها دون صعوبة بالغة. ولكنها لم تستطع الدفاع عن حدودها بشكل فعال بعد توحّد الهون تحت قيادة متى خان. بعد هزيمة الجيش الصيني وقّع متى خان اتفاقية مربحة مع الصين التي أكسبت الهون السيطرة على جزء هام من الإقليم الصيني. كما توجب على الصين أيضاً دفع جزية لهم. حافظ الهون في السنوات التالية على ضغط ثابت على الإمبراطورية الصينية. خلال فترة طويلة الأمد من الحروب ضد الهون بنت السلالات الصينية الحاكمة المتعاقبة عدة جدران شكلت معاً سور الصين العظيم بتحصين عسكري على طول 1.845 كيلومتراً يهدف إلى حماية حدود الصين الشمالية من الهون. عندما استعادت الإمبراطورية الصينية سلطتها كان السور العظيم بمثابة نقطة انطلاق للعدوانية التوسعية الصينية شمالاً.

عندما مات متى خان عام 174 قبل الميلاد كانت إمبراطورية الهون في ذروة قوتها. أخضع الهون ستةً وعشرين قبيلة لسلطانهم بما في ذلك صينيين ومغوليين وتونغوزيين على مساحة شاسعة امتدت من منشوريا إلى بحيرة الآرال ومن سيبيريا الغربية إلى صحراء غوبي. حاول ابن متى والذي يدعى كيوك تعزيز قوة إمبراطورية الهون خلال فترة حكمه (174-160 ق. م.). في البداية نفى اليويتشيون من موطنهم، ثم غزا الصين ودمر القصر الإمبراطوري الصيني بالقرب من شانغ لي وذلك بإضرام النار فيه. خلال هذه الحملة تزوج كيوك أميرة صينية من أجل تحسين العلاقات التجارية مع الصين. تقول المصادر التركية بأن هذا الزواج كان زواجاً سياسياً له آثار هامة على الهون. نتيجة ذلك الزواج اكتسب الدبلوماسيون

والمسؤولون الصينيون حق حرية الحركة في قصر إمبراطورية الهون وفي الإقليم كاملاً. خلق الدبلوماسيون الصينيون خلافاً داخلياً بين أسرة الهون الحاكمة والقبائل التابعة لها من خلال الانخراط في دعاية ضد الهون. لم تكن الآثار السلبية للزواج من الأميرة الصينية واضحة في عهد كيوك ولكنها أصبحت كذلك في عهد ابنه كون شين (160-126 ق. م.). خلال فترة حكم كون شين وحدت أسرة هان الصينية الحاكمة سلطتها السياسية وعززت قوتها العسكرية من خلال إتباع نموذج جيش الهون الذي لاحظه الجواسيس الصينيون داخل قصر الهون حيث بدأت أسرة هان الحاكمة برنامجاً صارماً في تربية الخيول وتشكيل سلاح فرسان منظّم في محاولة تقليد الهون.

من أهداف الصين الأساسية كان إيجاد سوق جديد في الغرب من أجل حريرها الثمين. للقيام بذلك توجّب عليها تأمين ممر آمن على طريق الحرير الذي يؤدي إلى البحر الأبيض المتوسط عبر آسيا الوسطى وبلاد فارس. عند النظر من هذه الزاوية، نلاحظ أن الصراع بين الهون والصينيين كان في المقام الأول بدافع السيطرة على طريق الحرير المربح. بعد عام 120 قبل الميلاد نجح الصينيون بوقف غارات الهون من الشمال، وفي الوقت نفسه سيطروا على الأراضي الممتدة على طول طريق الحرير في آسيا الوسطى. كما توقف الصينيون أيضاً عن دفع الجزية للهون. وأخيراً وسّع الصينيون أهدافهم من هزيمة الهون إلى تدميرهم. في العام 110 قبل الميلاد اضطر الهون للتراجع إلى ما وراء صحراء غوبي حيث السهول الشمالية ومناطق الغابات. بعد ذلك تغيرت الأمور بالنسبة إلى الهون. توقفت عائدات إمبراطورية الهون مع قطع الصين للجزية وخسارة معظم مناطقهم الخصبة لصالح العدو.

في العام 60 قبل الميلاد بدأت سلسلة من المعارك الحاسمة. وأصبح الطلب الصيني الآن الاعتراف بالهيمنة الصينية كشرط لمزيد من المعاهدات. كما أن الضغط الصيني والهدايا الثمينة لأعضاء أسرة الهون الحاكمة خلقت جواً فوضوياً في دوائر الهون الحاكمة مما أدى إلى انقسام إمبراطورية الهون بين هوهان يه (58-31) وأخوه الأكبر تشي تشي. عرض هوهان يه القبول بالهيمنة الصينية من أجل التغلب على الأزمة المالية، ورفض مجلس الدولة عرضه. ولكن مع إصرار هوهان يه غادر تشي تشي الدولة مع قومه وبدأ مغامرة بالاتجاه نحو الغرب. أسس دولة مستقلة سُميت دولة الهون الغربية الواقعة في سهل نهري شو وطلاس عام 14 قبل الميلاد مع عاصمة جديدة كانت محاطة بجدران. أُعِدّت الدولة الجديدة هذه لبعث إمبراطورية الهون العظمى. ولكن سرعان ما دمر هذه الدولة المؤسسة حديثاً سبعون ألفاً من القوات الصينية مدعومين برجال هوهان يه عام 63 قبل الميلاد. أُجبرت بعض قبائل الهون الغربية على الهجرة إلى المنطقة الواقعة بين بحيرة الآرال وبحر قزوين.

بالنسبة إلى دولة هوهان يه في الشمال، فقد استعادت استقلالها عن الصين من خلال التوسع إلى المنطقة الواقعة بين منشوريا وكاشغال خلال فترة حكم (يو) من عام 18 قبل الميلاد إلى عام 46 ميلادي. قسم الهون إمبراطوريتهم إلى دولتين شمالية وجنوبية في عام 48 ميلادي. لم تنجح الدولة في توحيد نفسها مركزياً في وجه تزايد التوسع الصيني. بعد فترة قصيرة أجبرت قبائل الهون الشمالية على الهجرة نحو أراضي الآرال والخزر. لم تستطع الهون الجنوبية أيضاً مقاومة الصين التي أنهى جيشها هيمنة الهون عام 216. بعد ذلك أسس الهون مجموعة من الإمارات الصغيرة عاشت لفترات

قصيرة مثل شيا ويانغ وتشاو، استمرت حتى تأسيس دولة تابغاتش التركية عام 315.

بعد تأسيس دولتهم عند ألطاي وعاصمتها في شانسي توسعت التابغاش بسرعة خلال القرنين الرابع والخامس. أولاً هزموا بقايا إمبراطورية الهون، ثم وسعوا سيادتهم فوق الأراضي الصينية. غزت التابغاش منغوليا الداخلية بعد هزيمة روان روان عام 425، وهو خليفة آخر لدولة الهون التركية التي سميت فيما بعد الآفار. بعد ذلك فتحوا طريقَ الحرير من خلال أسر كانسو في 439. أثّر انتشار البوذية بين شعب التابغاش سلباً على دولتهم حيث أن الطبيعة السلمية للبوذية من شأنها أن تقلل من قدراتهم العسكرية. انتهت دولة التابغاش أخيراً في أواسط القرن السادس تحت الهيمنة الصينية.

واحدة من دول الهون كانت الأخون أو الهون البيض أو هون الشرق الأوسط التي أسسها شعب الهون الذي حكم جنوب بحر قزوين من نهر الفولغا بالرغم من أن كتلة من شعب الهون انتقلت إلى الغرب. وسعوا حدودهم من بحر قزوين إلى شمال الهند وأفغانستان وآسيا الوسطى في أواسط القرن السادس. لم يستطع الأخون الدفاع عن إقليمهم بأي طريقة عندما واجهوا تحالف الغوكتورك والساسان عام 557.

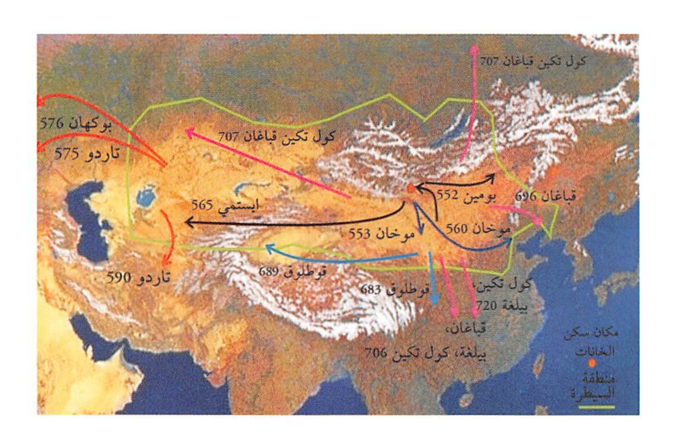
2. الغوكتورك

نشأ الغوكتورك من قبيلة أشينا وهي من شعوب ألطاي التي عاشت في الزاوية الشمالية من المنطقة المسمّاة شينجيانغ الأويغورية المستقلة عن الصين. بحسب الوثائق الصينية فإن الغوكتورك هم أحفاد الهون، وورثوا عنهم تقاليدهم الدينية وأساليبهم الإدارية.

دولة الغوكتورك أول دولة تحمل اسم الترك. تداولت العديد من الشعوب -وفيما بعد الدول- هذا الاسم. شكّل الغوكتورك الإمبراطورية التركية الثانية، حيث كانت إمبراطورية الهون الأولى. وحّد الغوكتورك القبائل ذات الأصل التركي كلها ما عدا أتراك الياقوت في سيبيريا الشرقية وأتراك الأويغور في الغرب تحت نفوذهم.

ترّك الغوكتورك أتراك آسيا الوسطى وتركستان وبلاد ما وراء النهر والهند الشمالية وإيران والأناضول والعراق وسوريا والبلقان. غوكتورك هو قول معناه ترك السماء، ولكن هناك اختلافاً حول هذا القول. المعاني البديلة هي الأتراك الزرق حيث kög أو kök تعني سماء أو أزرق على حد سواء في لغة الغوكتورك.

تأسست أول إمبراطورية للغوكتورك على نهر أورخون من تجمع ثماني قبائل تركية بما فيها أويغور وأغوز وأونوق وقارلوق. عاشت تحت سيادة الآفار أو الجوجان بقيادة بومين في القرن السادس. منح مجلس دولة الغوكتورك بومين لقب خان تقديراً له لأنه هزم دولة الجوجان في 255. اتخذ بومين خان من أوتوكان عاصمة له. كانت أوتوكان مدينة مقدسة بالنسبة إلى الأتراك. أعطى بومين خان المنطقة الشرقية من الإمبراطورية لأخيه إيستمي ومنحه لقب بيغو. كان إيستمي يابغو يعتمد على الغوكتورك الشرقيين في الشؤون الخارجية، وله كامل الحرية في الشؤون الداخلية. توفي بومين خان في نهاية السنة نفسها، وخلفه ابنه موخان في الوقت الذي كانت إمبراطورية الغوكتورك مبنية على نطاق واسع. أبعد موخان بقايا الجوجان إلى أوروبا وسيطر على القرغيز والقبائل التركية والكيتان والقبائل المغولية.



وسع إيستمي يابغو نفوذه غرب جبال ألطاي إلى بحيرة إيسيك وجبال تيان شان. بدأ بعد ذلك بالتواصل الدبلوماسي مع الإمبراطوريتين البيزنطية والساسانية. أولاً هزم إيستمي يابغو الآق هون من خلال تعاونه مع الساسانيين، ثم تحالف مع البيزنطيين ضد الساسانيين إذ ساءت علاقاتهم به بعد سيطرته على طريق الحرير. كانت السيطرة على طريق الحرير قضية تنافس شديد بين البيزنطيين والساسانيين والغوكتورك. توسعت الحدود الغربية للإمبراطورية في عهد إيستمي لتصل إلى القرم على الساحل الشمالي للبحر الأسود.

وصل الغوكتورك إلى ذروة قوتهم في الغرب بقيادة إيستمي، وفي الشرق بقيادة موخان خان. كان النظام الثنائي الحاكم يعمل بشكل جيد خلال عهد موخان وإيستمي، ولكنه ضعف بالنسبة إلى الغوكتورك بعد موتهما حيث نشبت منافسة بين خانات الشرق والغرب وأعطى فرصة لـ (سوي) وسلالات التانغ الحاكمة في الصين لتتلاعب بهم بشكل ناجح ضد بعضهم بعضاً. لم يتفق ابن إيستمي تاردو الذي أعلن استقلاله عن الخان

بعد موت والده مع إيشبارا خان في الشرق كما أنه سبّب حرباً أهلية أدت إلى انقسام إمبراطورية الغوكتورك إلى قسم شرقي وآخر غربي في 582. أصبح إيشبارا خادماً للصين بعد حملته الفاشلة عام 585. على الرغم من نضال الخانات المتعاقبين من أجل الحرية ولكن الصين هزمت الغوكتورك الشرقية في 630.

تفكك الغوكتورك

سعى غوكتورك الغرب لإعادة تأسيس اتحاد الغوكتورك وتوسيع حدودهم غرباً بعد أن حصلوا على حريتهم. حقق تاردو (576-603) بعض النجاحات الكبيرة. انجازاته أزعجت الصينيين، لذلك أشعلوا حرباً أهلية بهدف صد حملة تاردو. بعد ذلك تمردت القبائل التركية وبشكل خاص تيل ضد تاردو الذي لم يستطع إخماد هذه التمردات. وفي عام 603 لجأ تاردو إلى هون التويو وهي قبيلة مغولية خلقت جواً فوضوياً في دولة الغوكتورك الغربية حتى عام 611. خلال فترة حكم شي كوي خان (611-618) وتونغ يابغو (630-618) استعاد الغوكتورك بعضاً من قوتهم السابقة بإعادة سيطرتهم على تيل، وتوسعهم في المنطقة الممتدة من نهر أورخون إلى بحيرة الآرال. ولكن قوة الغوكتورك بدأت تضعف بسبب التمردات القبلية والحروب مع الصينيين عام 630. هزم الصينيون الأقسام الغربية من ولاية الغوكتورك عام 659.

وهكذا قهر الصينيون الغوكتورك في الفترة الممتدة من 630 إلى 680. خمسون سنة من السيطرة الصينية أثّرت بشكل سيء على الشعب التركي الذي بدأ يبحث عن أسباب خسارة دولته ومعنوياته. وفقاً لنقوش الأرخون فإن أسباب هزيمة أول إمبراطورية للغوكتورك كانت عدم

حكمة الخان الذي أتى إلى العرش مع كبار المسؤولين غير الأكفاء والموقف الخاطئ للترك والموقف الماكر والمخادع للصينيين.

تعافي الغوكتورك

وأخيراً انقلب الترك على الصينيين من خلال عدة انتفاضات من 679 إلى 681. كانت هذه الانتفاضات بقيادة شخصيات بطولية مثل كُرشات. في حين أن هذه الانتفاضات لم تنجح في تحقيق أهدافها المباشرة ولكنها أثارت صحوة الترك الوطنية. جاء الخلاص على يد شخص من قوطلوق ينحدر من قبيلة أشينا، ونجاحه في جمع بقايا الترك المتناثرين أدى إلى تأسيس إمبراطورية غوكتورك ثانية استمرت من 681 إلى 745.

مُنح قوطلوق لقب إلتريش. أعدّ قوطلوق عدة حملات ضد عدة قبائل تركية وأجنبية كتلك الحملات ضد الصينيين في سبيل تعزيز الموقف الاقتصادي والسياسي للغوكتورك. عندما توفي عام 692 كان الترك والقبائل الغريبة التي استقرت في خينتيغ جنوباً وعلى طول نهري كيرولين وأونون في الشرق وفي جبال ألطاي في الغرب تحت سيادة الغوكتورك. استمر قباغان (692-716) وهو ابن قوطلوق بسياسة والده في توحيد أتراك آسيا تحت راية الغوكتورك. كجزء من هذه السياسة حاول إخضاع الصين بهدف جذب الترك الذين كانوا يتواجدون ضمن الحدود الصينية. لتحقيق هذا الهدف قاد قباغان خان عشرين غارة على المواقع العسكرية في جنوب الصين. لمواجهة التحديات التركية تحالفت الصين مع القرغيز والأونوك عام 696، وحرضت التورغيش والكارلووك وعدة قبائل أخرى للانقلاب ضد الغوكتورك. رد قباغان

بلا رحمة ضد هذه القبائل التركية . كان هذا خطأ كبيراً ارتكبه الترك لأنه ربما يقتنع بعضهم بوقف القتال سلمياً ضد الغوكتورك. بالمقابل أصبحوا الأعداء الأكثر مرارة لقباغان. استفادت الصين بشكل كبير من هذا الوضع. بناء على ذلك قُتل قباغان على يد البايركو (إحدى القبائل التركية) بمساعدة صينية. أعلن تورغيش استقلالهم، وأصبح الأويغور تحت السيادة الصينية. لم يكن خليفة قباغان وهو إينيل قباغان قادراً على التعامل مع الوضع. أطاح به بيلغة خان وكول تكين أبناء إلتريش.

حين جلس بيلغة (وتعني الحكيم) خان على العرش، تم تعيين كول تكين قائداً لجيش الغوكتورك، وعُيّن تونيوكوك وزيراً. بناء على نصيحة تونيوكوك، صرّح بيلغة خان وكول تكين أن الخانات لا يمكن أن تُحكم بوسائل الحرب والشجاعة وحدها، وأدركا أيضاً الأهمية العظمى للحكمة. لذلك لم يعدّ بيلغة أية حملة ضد الصين في البداية. بالمقابل أعطى الأولوية لإجراء إصلاحات داخلية بما في ذلك إعادة تأسيس علاقات ودية مع القبائل التركية التي تدهورت العلاقات معها في فترة حكم قباغان. في غضون ذلك تحالفت الصين عام 720 مع قبائل كيطان وباصمل التركية بهدف شن حرب ضد الغوكتورك. تفادى بيلغة خان الخطة الصينية بنصيحة من وزيره تونيوكوك. هزمت كيطان وباصمل قبل أن تتمكن من التوحد مع القوات الصينية. تحول بيلغة خان بعد ذلك إلى الصين وأجبرها على توقيع اتفاقية عام 724 التي من خلالها قبلت بتأسيس سوق مشتركة على الحدود الصينية التركية. ولّدت هذه الاتفاقية فوائد اقتصادية بارزة للغوكتورك. مات تونيوكوك عام 725، وأسماه بعض العلماء بسمارك الغوركتورك بسبب الدور الحاسم الذي

لعبه في سياسة الغوكتورك الداخلية والخارجية. مات كول تكين عام 732 وبيلغة خان عام 734. بعد موت بيلغة خان، لم يستطع الغوكتورك البقاء فترة طويلة في وجه التحالفات التي تمّت بين القارلوق والباصمل والأويغور عام 745.

دخل بيلغة خان وكول تكين التاريخ باعتبارهما أذكى شخصيتين بين رجال الدولة الترك وأشجعهم. أول نص مكتوب باللغة التركية هو لتخليد إنجازات ذينك الخانين وتونيوكوك.

3. الأويغور

أطلق مصطلح أويغور على مجموعة القبائل التي تتكلم التركية وتعيش في جبال ألطاي. كان الأويغور من أكبر الشعوب التركية التي تعيش في آسيا الوسطى وأكثرها صلابة إلى جانب الغوكتورك. وفقاً للوثائق الصينية فإن أجداد الأويغور هم هون آسيا. كانوا يُسمّون (كاو كو) خلال فترة حكم تابغاتش (386-534).

أسس الأويغور دولة في وديان جنوب بحيرة بايكال وحول نهر ينيسي في النصف الثاني من القرن الخامس. بعد ذلك بوقت قصير شارك الأويغور في تحالف مع تويل الذين كانوا يسيطرون على القسم الجنوبي من آسيا الوسطى. في الربع الأول من القرن السابع اتخذ الأويغور مكاناً في تحالف ست قبائل (Syr-Tardush). خضع الأويغور لسيادة الغوكتورك في عهد قباغان خان. أخيراً هزم الأويغور مع قبائل أخرى مرتبطة بهم (الباصمل والكارلووك) خانية الغوكتورك وأسسوا إمبراطورية الأويغور على جبل أوتوكان. امتدت إمبراطورية الأويغور

من بحر قزوين إلى منشوريا واستمرت من عام 547 إلى عام 840. عاصمتها كانت أوردو بالق المبنية على نهر أورخون بالقرب من مكان بناء المغول لكوروكوروم لاحقاً.

قبيلة الأويغور التي هزمت الغوكتورك كانت مؤلفة من دقوز أورغ (معنى أورغ ليس واضحاً ولكنه ينبغي أن يشير إلى عائلة كبيرة). في نهاية المطاف تشكلت إمبراطورية الأويغور من خلال ارتباط دوقوز أوغوز وباصمل وكارلووك. أول حاكم لولاية الأويغور كان قوطلوق بيلغة خان. عندما مات قوطلوق عام 747 حل محله مويونشر (747-759). خلال حكم مويونشر اندلع صراع مرير بين العرب والصينيين في آسيا الوسطى مما أدى إلى معركة طلاس في 751 التي هُزم فيها الصينيون. أثار هذا حرباً أهلية في الصين مما اضطرها لاستدعاء الأويغور للمساعدة. استغل الأويغور الوضع الصيني، واستولوا على حوض تاريم. على الرغم من أن الأويغور كانوا يستطيعون غزو الإمبراطورية الصينية فقد اختاروا في الواقع بدلاً من ذلك سياسة التجارة الاستغلالية لاستنزاف ثروة الصين من دون تدميرها. حافظ بوغو كاغان على السياسة نفسها تجاه الصين. خلال حملة كاغان على الصين أعجب كثيراً بالمانوية حيث أخذ معه أربع رجال دين مانويين أثناء عودته إلى إقليم الأويغور. بناء على ذلك تحول الأويغور إلى المانوية عام 762. غيّر هذا إدراك الأويغور للحياة حيث تمنع المانوية أكل اللحم. أضعف هذا الروح المعنوية للأويغور.

بعد المجاعة والحرب الأهلية عام 840، اجتاح شعبُ القرغيز التركي الأويغور. نتيجة ذلك هاجرت غالبية

الجماعات القبلية التي كانت تحت قيادة الأويغور في وقت سابق إلى آسيا الوسطى.

رحل معظم الأويغور من أوتوكان، ووصلوا إلى كانتشو حيث التقوا بعشيرتهم التي عاشت هناك مدة 150 سنة. أسس الأويغور القادمون حديثاً دولة عام 911 بقيادة تيغين. أرسل تيغين الذي كان مسيطراً على أجزاء هامة من طريق الحرير بعض الوفود إلى الصين من أجل إقامة علاقات ودية تعتمد على التجارة. ليس لدى الأويغور أية إنجازات عسكرية بارزة حيث أصبحوا بعد فترة قصيرة تحت سيطرة شعب الخيتان في القرن العاشر، وبعد ذلك تحت سيطرة شعب التانغوت في القرن الحادي عشر. دخلت هذه المنطقة تحت سيطرة المغول بقيادة جنكيز خان عام 1226.

بعد انهيار الأويغور هاجر بعضهم إلى جبال شان وبيش بالق ومنطقة طورفان حيث أسسوا هناك دولة جديدة عام 856 سميت دولة طورفان الأويغورية أو دولة الأويغور الشرقية. ملك دولة طورفان الأويغورية هو مينغلي ابن شقيق آخر ملوك الأويغور في أوتوكان. احتاجت الصين جواراً ودياً حيث كانت تكافح ضد الحروب الأهلية. دخلت دولة الأويغور الشرقية أيضاً تحت سيطرة المغول بقيادة جنكيز خان من 1209 إلى 1368، بعد ذلك حكم تيمور منطقة الأويغور. حافظ أولئك الذين أتوا بعد تيمورلنك أو المغول على نفوذهم في المنطقة حتى منتصف القرن التاسع عشر. بعد هذا التاريخ، أصبحت منطقة الأويغور إحدى المناطق الإستراتيجية التي سعت بريطانيا العظمى وروسيا والصين إلى توسيع نفوذها إليها. اليوم عشرة ملايين من الأويغور مازالوا يعيشون في المنطقة نفسها تحت حكم الصينيين.

4. التورغيش

شكّل التورغيش جزءاً من التاردوش الذي يعد واحد من فروع الاتحاد القبلي (قسم من شعب الغوكتورك الشرقي). ورد اسمهم للمرة الأولى في المصادر الصينية عام 651 عندما كانوا يعيشون في وادي إيلي تحت حكم الغوكتورك. بعد هزيمة الغوكتورك تمكنت تورغيش من السيطرة على أراض تصل إلى طورفان وكوتشا وإخضاع كل قبائل المشكّلة للاتحاد القبلي لحكمها. أنجزت هذه البطولات بقيادة أوشيلي الذي مُنح لقب باكا طارقان. في ذروة حكمه قرر أوشيلي التحالف مع الصينيين والقرغيز لإيقاف توسع الغوكتورك الذين نظموا أنفسهم، وقووا تحت حكم الملك قباغان. هُزم أوشيلي، وأسر في معركة بولخو عام 698 على يد تونيوكوك قائد جيش الغوكتورك. وبالتالي أصبح التورغيش خدماً للغوكتورك.

الهزيمة الثانية للتورغيش على يد الغوكتورك حدثت حوالي عام 711 بالقرب من بولخو. تحالف سوكو بن أوشيلي مرة أخرى مع الصين. قبل المعركة مع الغوكتورك تمرّد تشيمو على شقيقه سوكو، وفرّ هارباً إلى الملك قباغان. حينئذ انقسم التورغيش إلى قسمين التورغيش السود والتورغيش الصفر كما ورد في نقوش أورخون.

لم يَدم حكم الغوكتورك للتورغيش طويلاً حيث استقلوا عام 717. باختيار الغوكتورك تشورسولو ملكاً لهم تخلوا عن الملك بيلغة ودخلو في خدمة سولو. نقل سولو عاصمته إلى بالاساغون، شمال غرب طلاس. طلاس حيث أوقف سولو توسع الجيش الأموي في آسيا الوسطى. بعد عدة حروب ناجحة ضد التوسع العربي

الأموي، اندلعت حرب أهلية طويلة بين التورغيش السود والصفر عام 738. وأخيراً دمرت قبائل الكارلووك التركية الطرفين في 766.

5. القرغيز

تصل نتائج الأبحاث التاريخية حول القرغيز إلى عام 203 قبل الميلاد، وليس هناك توثيق دقيق لتاريخهم قبل تلك الفترة. عاش قدماء القرغيز في الوادي الأعلى لنهر ينيسي. كانوا تحت حكم الغوكتورك في القرن السادس. على الرغم من حكم الصينيين للغوكتورك بين عامي 630-680 فقد أصبح القرغيز قبيلة مستقلة. مع ذلك دخلوا مرة أخرى بخدمة دولة الغوكتورك الثانية، وبعدها بخدمة الأويغور عام 758. في القرنين السابع والثامن كانوا أول من اعتنق الإسلام على يد التجار العرب الذين يسافرون على طول طريق الحريق.

بعد هزيمة الأويغور عام 840 اتخذ القرغيز من أوتوكان عاصمة لهم. أجبرتهم خيتان على الخروج من أوتوكان عام 920، فعادوا إلى موقعهم السابق. أخيراً تقلصت الأرض التي يسيطر عليها القرغيز في الشمال عام 1207.

6. القارلوق

كان القارلوق -وتعني مكان الثلج- في الأصل قبيلة بدوية تركية استقرت في منطقة كارا-إيرتيش وتارباغاتي غرب جبال ألطاي. شكّل القارلوق جزءاً من اتحاد قبلي بالإضافة إلى ثلاث قبائل أخرى. بمرور الزمن انتقل القارلوق باتجاه الغرب، وأصبحوا جزءاً من مكونات الغوكتورك. لعب القارلوق دوراً هاماً بهزيمة الأويغور

والباصمل للغوكتورك في 745. بعدئذٍ اعترف معظم شعب القارلوق بخان الأويغور حاكماً لهم.

وقف القارلوق إلى جانب العرب في معركة طلاس عام 751. كانت معركة طلاس بين العرب الأمويين وعائلة تانغ الصينية الحاكمة للسيطرة على ما وراء النهر حيث نفوذ التورغيش الذي ضعُف. عام 766 شكلت قبائل القارلوق خانية تحت حكم يابغو بعد أن اجتاحت منطقة طلاس حيث يتواجد التورغيش. كانت عاصمتهم بالاساغون في حين أنهم حافظوا على ولائهم للأويغور. بعد هزيمة الأويغور أعلن القارلوق استقلالهم. كان القارلوق أول شعب تركي اعتنق الإسلام ولعب دوراً هاماً في تأسيس قراخانلي، وهي أول دولة تركية إسلامية.

7. الأوغوز

اشتُق اسم الأوغوز من كلمة (أوك) التي تعني (قبيلة) أو (سهم) في اللغة التركية. لاحقاً وفي القرن السادس تغيرت كلمة (أوكوز) لتصبح (غوز) أو (أوظ) كما ورد في المصادر البيزنطية. سميو أوتش (ثلاثة) أوغوز أو سكيز (ثمانية) أوغوز وفي الغالب دوقوز (تسعة) أوغوز ولاحقاً أون (عشرة) أوغوز عندما كانوا تحت حكم الغوكتورك. خلال تأسيس دولة الغوكتورك سكنت قبائل الأوغوز إقليم جبال ألطاي في المنطقة الممتدة على طول نهر طولا. كانوا أيضاً موجودين كجماعة بالقرب من نهر بالق. خلال فترة حكم الغوكتورك توسع الأوغوز حيث تِوحدت مختلف القبائل التركية الأخرى معهم. لذلك أُعطي لقب الأوغوز للقبائل التركية البدوية ونصف البدوية في آسيا الوسطى التي اتحدت ضمن اتحاد قبلي جديد (بودون).

بعد انهيار الغوكتورك رزح الأوغوز تحت حكم الأويغور. في عهد مويونتشور (747-759) ناضل بعض الأوغوز ضد سلطة الأويغور ولكنهم هزموا ثلاث مرات في نهر سيلينغا. ربما بعد ذلك ذهبوا باتجاه ما وراء النهر في نهاية القرن الثامن. من الواضح أنهم كانوا يعيشون في المساحة الممتدة من شرق بحر قزوين إلى نهر سيحون في القرنين العاشر والحادي عشر. أسسوا دولة اسمها أوغوز يابغو في النصف الأول من القرن العاشر مع البيتشنغ والخزر اللتين تعتبرا جارتين عدوتين. العلاقة مع القارلوق الجار الشرقي للأوغوز كانت أيضاً عدائية. سمى الأوغوز أنفسهم (الترك) وأصبح اسمهم بعد اعتناقهم الإسلام (التركمان). كل اتحاد كان مؤلفاً من اثنتي عشرة قبيلة مما يعني أن اتحاد الأوغوز ضم أربعاً وعشرين قبيلة تركية. تنظم الأوغوز في نظام اتحاد قبلي مزدوج في فترة يابغو الأوغوزية التي كانت تعرف باسم أوتش أوق. ضم اتحاد أوتش أوق قبيلة قِنِق التي أسست لاحقاً الدولة السلجوقية، وضم أيضاً قبيلة بوظ-أوق وقايِ التي أسست الدولة العثمانية.

هُزمت دولة يابغو الأوغوزية نتيجة المضايقات التي سببتها القبجاق والخزر والقارلوق. العامل الآخر لهذه الهزيمة هو خروج السلاجقة مع مجموعاتهم من اتحاد الأوغوز في الغرب. بعد هزيمة دولة اليابغو الأوغوزية هاجر بعض الأغوز باتجاه الغرب عبر أراضي شمال البحر الأسود، ووصلوا إلى البلقان حيث تغيّر اسمهم إلى أوظ. الأوظ هم أجداد الغاغاوز في رومانيا. وتوجه السلاجقة نحو خراسان. وبقي بعض الأوغوز في موطنهم في إقليم جبال ألطاي.

الفصل الثاني

الدول والقبائل التركية الأوربية الشرقية في أوائل العصور الوسطى

1. الهُون الغربيون

قدّم العلماء من مختلف تخصصات العلوم الاجتماعية خلال القرنين الأخيرين نظريات مختلفة حول أصول الهون الغربيين. بيّنت المصادر الثقافية والإثنولوجية الأخيرة بوضوح أن الهون الغربيين من أصول تركية وهم من أحفاد الهون الآسيويين.

بدأ الهون الشماليون هجرتهم غرباً مع بداية القرن الثاني حيث اتحدوا ثانية مع قبائل تشي-تشي. وبدأ الهون هجرة جماعية باتجاه الغرب وصولاً إلى نهر الفولغا عام 374 بسبب ضغط القبائل البدوية في منتصف القرن الرابع. على الرغم من تقدمهم فقد واجهوا قبيلتين جرمانيتين مستقرتين على طول الشواطئ الشمالية للبحر الأسود وهما القوط الشرقية وهي المسيطرة، والقوط الغربية التي سمح لها الرومان بالاستقرار كرعية داخل الإمبراطورية الرومانية والدخول في الخدمة العسكرية.

واجه الهون القبيلتين الجرمانيتين إذ لم يكن ثمة مفر من الصراع المرير معهما. هزم الهون الغربيون بقيادة بالامير -وهو أول رئيس مُوثق لهم- القوط الشرقيين عام 374. استمرت هجمات الهون بفضل القدرة القتالية المذهلة لكتيبة الفرسان. عندما وصلت قوات الهون إلى نهر الدانوب عام 375 سببت انهياراً للقوط الغربيين. فرّ ملك القوط الغربيين أتاناريك مع قواته باتجاه منطقة

النفوذ الروماني في الغرب حوالي العام 395 عندما كانت إمبراطورية روما منقسمة إلى شرقية وغربية. وهكذا أدت الضغوط التي مارسها الهون مع دخولهم إلى أوروبا الشرقية إلى تذبذب كبير للسكان الأوروبيين. بناء على ذلك طُرد سكان شرق أوروبا ووسطها من موطنهم مما حرّض هجرة القبائل حيث أحدثت تغييراً عميقاً في التركيب العرقي لأوروبا.

أُثير الرعب بين قبائل أوروبا الشرقية من هجمات الهون العنيفة والمفاجئة. مظهر فِرق الهون المهاجمة في مناطق غير متوقعة ترك انطباعاً مرعباً في العالم الغربي. عبر العديد من المؤرخين اليونانيين والغربيين عن حقدهم العميق تجاه الهون، وهذا ساهم بدوره بتجريمهم وتحقيرهم المفرط في الثقافة الغربية.

قاد الهون سلسلة غارات في الأناضول والشرق الأوسط وانتهت بغارة على القدس عن طريق القوقاز بقيادة باسيك وكورسيك في العقود الأخيرة من القرن الرابع. لم تستطع إمبراطورية الروم الشرقية اتخاذ أية تدابير دفاعية ضد هذه الهجمات. من خلال أربعمائة حملة أخرى للهون بقيادة أولديز ضد القوط في إقليم الدانوب الجنوبي بدأت مرة أخرى هجرات القوط الجماعية باتجاه الغرب. لجأ القوط إلى إمبراطورية الروم. لم يكن الروم راضين عن هؤلاء البربر الذين هددوا سلامة أراضي الإمبراطورية. ناشد الرومُ الهونَ لدعمهم في صراعهم ضد القوط الغربيين. استجاب أولديز، وهزم راداغايز قائد القوط. في عهد أولديز تمرس الهون بالسياسة الخارجية التي ستُتّبع حتى نهاية عهد أتيلّا. أملت عليهم السياسة الخارجية هذه دعم مراكز القوى ضد

القوى الضعيفة. وفقاً لذلك أسس الهون علاقات ودّية مع إمبراطورية الروم، بينما ضغطوا بشدة على البيزنطيين الذين حقّقوا ضدهم سلسلة من الانتصارات. كجزء من هذه السياسة شارك الهون في سعي الروم الغربيين لصد هجمات القوط الغربيين والبيزنطيين. بالاستفادة من أربع سنوات من جلوس فالينتينيان على العرش، أرسل تيوديوس جيشاً وأسطولاً بحرياً إلى إيطاليا بهدف السيطرة على روما. لإحباط ثيوديوس أرسلت الإمبراطورية الرومانية الغربية طلباً لرئيس الهون روا الذي أعدّ حملة إلى إيطاليا بستين ألف فارس. لم يستطع ثيوديوس المجازفة بخوض الحرب مع الهون، ولكنه توجّب عليه أن يدفع جزية قدرها 350 جنيهاً رومانياً للهون. موقف ثيوديوس الثاني تجاه الهون ظل معادياً.



بحلول عام 432 توحد الهون تحت قيادة روا. بعد وفاته عام 434، تُرك أبناء شقيقه يحكمون جميع قبائل الهون المتحدة. في فترة خلافتهم كان الهون يساومون مبعوثي ثيوديوس الثاني على عودة العديد من القبائل المرتدة التي لجأت إلى الإمبراطورية البيزنطية. وقّعت الإمبراطورية البيزنطية على اتفاقية توافق بموجبها على شروط معينة طرحها الهون في مدينة مارجوس (في صربيا حالياً). لم يوافق البيزنطيون على عودة القبائل الهاربة فقط، بل ضاعفوا جزيتهم السابقة وفتحوا أسواقهم للتجار الهون. تباطأ ثيوديوس في تطبيق شروط الاتفاقية، فقاد أتيلّا حملة ضد البيزنطيين عبر تراكيا. منع قائد جيش روما الغربية

أيتيوس نشوب الحرب حيث ضمن تطبيق ثيوديوس شروط الاتفاقية. لم يتغير شيئاً من طرف ثيوديوس. تمادى هذه المرة بالتخطيط لاغتيال أتيلا عام 448 الذي خلف بليدا بعد وفاته عام 445. لم تكن الخطة ناجحة حيث قُبض على القاتل قبل قيامه بذلك. خيم جو من الخوف على العاصمة البيزنطية حيث أن قوة غضب أتّيلا قد تُسبب صراعاً عنيفاً. أدرك ثيوديوس الثاني التهديد فلم يتأخر باختلاق عذر. تخلص من الكارثة الوشيكة لحسن حظه، وحين تأكد أتيلا أن البيزنطيين لا يشكلون تهديداً مباشراً على الهون، أعطى أفضلية لقضية روما الغربية، لذلك أعدّ حملة عسكرية وسياسية استمرت سنتين.

في عام 450 أرسلت هونوريا أخت الإمبراطور فالينتينيان الثالث خاتم خطوبة لأتيلا بهدف أن تنجو من خطوبة قسرية على سيناتور رومي. رأى أتيلا في هذا الاقتراح فرصة عظيمة ليطلب نصف الإمبراطورية الغربية مهراً. عندما اكتشف فالينتينيان الخطة، وتحت تأثير أمه اقتنع بنفي هوناريا بدلاً من قتلها. كتب إلى أتيلا منكراً بشدة شرعية عرض الزواج المفترض. لم يقتنع أتيلا، فأرسل مبعوثاً إلى فالينتينيان الثالث ليؤكد له أن عرض الزواج كان شرعياً، وأنه سيأتي للمطالبة بحقه.

لم تكن القضية الغربية محدودة بهذا الزواج، فهناك الصراع على الخلافة بين ابني ملك قبيلة سَليان الإفرنجية، وهذا ما قاد أتيلا إلى نزاع مع أيتيوس حيث أيّد الابن الأكبر بينما أيّد أيتيوس وهو الحاكم الفعلي الابن الأصغر. أعلن أتّيلا نيته بمهاجمة القوط الغربيين الذين تحالفوا مع فالنتينيان الثالث ضد قبيلة وندالي الجرمانية، بينما طمح القوط الغربيون بدعم الهون. مصلحة أتّيلا الرئيسة

كانت منع الرومان من التفوق على القبائل الغربية ما عدا المسيحية التي أصبحت الديانة الرسمية لإمبراطورية الروم عام 330. حشد أتّيلا مائتي ألف مقاتل بمن فيهم خدمه الجرمان والسلاف في أقصى غرب أورليانز عام 451. تحرك أيتيوس معترضاً أتيلا مع البُرغنديين والقوط الغربيين بقيادة الملك تيودوريك الأول. اشتبك الجيشان في معركة شالون والتي كانت نتيجتها موضوع خلاف بين المؤرخين. ولكن الحقيقة أن القبائل الغربية لم تكن في وضع يمكّنها من مساعدة الرومان عام 452 في الحرب بين فالنتينيان وأتّيلا، وهذا يبين أن أتيلا كان المنتصر.

نظراً لأن الرومان لم يكونوا في وضع يساعد على حشد قوات من القبائل الغربية، فقد بدأ أتيلا حملته الأخيرة بمائة ألف من قواته ضد فالنتينيان كطريقة لإعادة طلب زواجه من هونوريا. وصل إلى روما عبر مدينة البندقية التي هرب سكانها إلى جزيرة صغيرة في بحيرتها. عم جو مرعب جميع أنحاء مدينة روما. لم يكن لدى أيتيوس الشجاعة لمواجهة أتّيلا. أخيراً أرسل الرومان وفداً مؤلفاً من تريغيتوس والقنصل أفينوس والبابا ليو الأول داعين أتيلا للمسامحة. قبل أتيلا الاعتذار. تم تطبيق شروط السلام وعاد أتيلا مع جيشه غير كاسب أي شيء.

طُرحت عدة تفسيرات لأفعاله: كان إعلان استسلام روما كافياً بالنسبة إلى أتيلا معتقداً بأنه لن تهدد روما الهون ثانية. ربما لعبت حملة الإمبراطور البيزنطي الجديد مارسيان ضد الهون دوراً في انسحاب أتيلا. مهما كانت الأسباب فقد غادر أتّيلا إيطاليا وعاد إلى قصره عبر نهر الدانوب. خطط لحملة إلى الشرق ولكنه توفي في الأشهر الأولى لعام 453.

كان لأتيلا ثلاثة أبناء، إيلاك ودينغيزيك وإيرناخ. لم يمتلك أي منهم موهبة أتيلا القيادية. إيلاك أول من جلس على العرش ولكنه هُزم في معركة مع القبائل الجرمانية عام 453 وقتل. جهود دينغيزيك للتوحد كانت فاشلة بسبب هزيمته من قِبل الإمبراطورية البيزنطية عام 469. أدرك إيرناخ أن الهون المبعثرين لن يتمكنوا من البقاء وسط أوروبا، لذلك أخذ ما تبقى منهم إلى السواحل الغربية للبحر الأسود الممتدة من منبع نهر الدانوب إلى نهر الفولغا. التقوا هناك بقبائل الأوغوز القادمين من شرق جبال الأورال بسبب مضايقات الصابار.

2. خانية الآفار

الآفار أحد الشعوب التركية البدوية في أوراسيا. كان أحد خلفاء دول الهون في آسيا الوسطى. تشير المصادر الصينية إلى أن الآفار متطابقين مع الجوجان وقد طردهم الغوكتورك باتجاه الغرب. ظهروا لاحقاً في شرق أوروبا ووسطها بعد انتصارهم على الصابار عام 557. استمر حكمهم على جزء كبير من وسط أوروبا إلى أوائل القرن التاسع. بعد ذلك شقّوا طريقهم في ألمانيا، كما فعل أتيلا قبل مئة عام، وصلوا أخيراً إلى بحر البلطيق شمالاً. تحول اهتمام الآفار بعد ذلك إلى سهل بانّونيا التي تتنازع عليه مختلف القبائل الجرمانية (اللومبارديون والغبيديون). بعد أن هزمهم الآفار أسسوا دولة في منطقة نهر الدانوب. مضايقات الآفار للومبارديين أجبرتهم على الانتقال إلى إيطاليا الجنوبية حيث سُجّلت آخر هجرة جماعية جرمانية.

حاصر الآفار القسطنطينية (اسطنبول حالياً) للاستيلاء عليها عام 626 ولكنهم فشلوا. بعد هذه الحادثة تراجع

الآفار إلى موقعهم. فَقَدَ الآفار السيطرة على البلقان لصالح القبائل السلافية. أصبح معظم رعايا الآفار مستقلين ما عدا أولئك الذين في بانونيا. بدأ الضغط الداخلي والخارجي لإضعاف الآفار في أوائل القرن التاسع. أخيراً تمت تصفيتهم على يد ملك الفرنجة شارلمان عام 805. لاحقاً دُمجوا مع سكان وسط أوروبا الأصليين وبشكل رئيسي مع الهنغار.

3. الصابار

على الرغم من أن أول تاريخ لهم غير معروف جيداً إلا أنهم أحد أقوام الترك الذين عاشوا تحت سيادة إمبراطورية الهون الآسيوية. موطن الصابار الأصلي كان المنطقة الممتدة من جبال تيان شان حتى نهر إيلي. شكلوا واحدة من الدول التركية التي سيطرت على سيبيريا الغربية والقوقاز الشمالية في القرن الخامس والسادس. هاجروا إلى الغرب بسبب ضغوط الآفار في النصف الثاني من القرن الخامس. استقروا في حوض الفولغا والدون في بداية القرن السادس. شكلوا دولة قوية سياسياً وعسكرياً في حوض الفولغا والدون. خلال هذا الوقت تحالف الصابار مع الساسانيين وقاتلوا ضد البيزنطيين. تقدم الصابار إلى وسط الأناضول. لكن قوة الصابار ضَعُفت بعد الهجوم الثاني للآفار عام 557. بعد ذلك بوقت قصير أصبحوا من رعايا الغوكتورك. شكل الصابار الهيكل الرئيسي لدولة الخزر في القرن السابع.

4. خانية الخزر

الخزر شعب تركي رحّل في آسيا الوسطى. الخزر قبائل تركية عاشت تحت حكم الهون الآسيويين قبل

هجرتها غرباً. يعتقد العلماء السوفيت أن الخزر هم السكان الأصليين لشمال القوقاز. يُنسب الخزر إلى قبائل أشينا مؤسسة إمبراطورية الغوكتورك الأولى. بعد انهيار إمبراطورية الغوكتورك الأولى انضم الخزر إلى الاتحاد القبلي في الغرب بقيادة قبائل أشينا. يشبه تنظيم دولة الخزر تنظيم الغوكتورك.

أول ظهور هامٍ للخزر في التاريخ كان في بداية القرن السابع عندماً دعموا حملة الإمبراطور البيزنطي هرقل ضد الساسانيين. حما الخزر بيزنطة من الهزيمة. كان للخزر علاقات ودية مع الإمبراطورية البيزنطية من القرن السابع وحتى القرن التاسع. في تلك الفترة، خاض الخزر صراعاً شديداً مع الخلافتين الأموية والعباسية وأعاقوا توسّعهم عبر القوقاز من خلال تشكيل جبهة موّحدة مع بقايا الغوكتورك في بلاد ما وراء النهر. ازدهر الخزر في بحر قزوين وفي منطقة شمال البحر الأسود وفي أوروبا الشرقية. في أوروبا الشرقية جمع الخزر بين عدّة قبائل كانت تعيش هناك سابقاً. عندما أصبح الخزر قوة إقليمية عظمى تخلّى البيزنطيون عن تحالفهم معهم. التفت البيزنطيون إلى الروس وإلى البيكينيغ لتشكيل اتحاد ضد الخزر. انتصر روس كييف على الخزر عام 965.

اعتنقت الأسرة المالكة ونبلاء الخزر الدين اليهودي في العقود الأخيرة من القرن الثامن وأوائل القرن التاسع. اعتنق جزء من سكان الخزر أيضاً المسيحية وقسم هام آخر أيضاً اعتنق الإسلام.

5. البيكينيغ

بعد هزيمة الغوكتورك اتجه البيكينيغ باعتبارهم أتباع الغوكتورك نحو الغرب. سيطروا على المنطقة الواقعة

بين منخفض الفولغا وقناة الدون ونهر دينيستر في القرن التاسع. لم ينجح البيكينيغ في بناء دولة، وبدلاً من ذلك ظلوا في الاتحاد القبلي. ومن خلال الاتحاد القبلي لعبوا دوراً هاماً في تاريخ العالم بدفع الأويغور إلى التراجع من بحر آزوف إلى وسط أوروبا (هنغاريا في يومنا هذا). حرض البيكينيغ حركات القبائل الفينية-الأوغري داخل أوروبا. منعوا أيضاً الروس من دخول البحر الأسود لفترة طويلة. شنّوا حملات على الأراضي الروسية عدة مرات. بعد تحالفهم مع البيزنطيين بفترة طويلة بدأ البيكينيغ بمضايقتهم. هزمهم تحالف القبجاق والبيزنطيين عام 1091، ولم يستعيدوا قوتهم بعد هذا الهجوم.

6. القبجاق

كانت هجرة القبجاق آخر هجرات القبائل الكبرى الجماعية. أول ظهور للقبجاق في التاريخ غير دقيق تماماً. على الرغم من هذا يُعتقد بأن تاريخهم يعود إلى القرن الثامن وأوائل القرن التاسع في شرق آسيا الوسطى. جاوروا الأوغوز عندما أجبرهم القراختاي على الانتقال غرباً. ازداد عدد القبجاق وتحالفوا مع شعب الكيمك. بدؤوا بمضايقة الأوغوز وأثّروا في هجرتهم إلى الغرب. بعد ذلك حاربوا الولايات الروسية وسيطروا على المنطقة الممتدة من بحر قزوين إلى أوكرانيا الجنوبية. سميت هذه المنطقة سهول القبجاق. اجتاح القبجاق مولدافيا واللاشا وجزء من ترانسلفانيا في القرن الحادي عشر وبدؤوا بنهب الإمبراطورية البيزنطية ومملكة هنغاريا. هزم الغزاة المغول القبجاق في معركة خالكا عام 1239. بعد تفكك الإمبراطورية المغولية شكل القبجاق الذين بقوا في أرضهم جزءاً هاماً من القبيلة الذهبية. شكلوا شراكة

في دولٍ تسمى اليوم روسيا وأوكرانيا وكازاخستان. لعبوا دوراً هاماً في تتريك المغول.

7. الأوغور والدول البلغارية

يشترك الأوغور مع الأوغوز بالأصل، وكانت واحدة من القبائل الرئيسة في الاتحاد القبلي التركي. تسمي المصادر الغربية أولئك الذين هاجروا غرباً عبر جبال تيان شان الشمالية أوغور. استقروا في المنطقة الشمالية من البحر الأسود وشكلوا اتحاداً قبلياً مستقلاً مثلما فعل الأوغوز سابقاً. كان الاتحاد القبلي الأوغوري مؤلفاً من دوقوز أوغور في سهول منطقة نهر الدنيبر ومن أون أوغور في شمال القوقاز ومن أوطوز أوغور في المساحة الواقعة بين الدون والفولغا. كان الأوغور في الغرب تحت حكم الغوكتورك عام 576. عندما انهارت إمبراطورية الغوكتورك عام 630، أسس الأون أوغور بلغاريا العظمى في شمال القوقاز بزعامة قبائل كورت. نشأت كورت من الهون الآسيويين وتحالفت مع بيزنطة. أصبحت بلغاريا العظمى تحت سيادة الخزر عام 665. أسسوا دولة طونا (الدانوب) البلغارية في البلقان عام 679 في شمال ما يسمى اليوم دوبروجة.

أقامت دولة الدانوب البلغارية علاقات جيدة مع البيزنطيين. حمت قسطنطينية عندما حاصرها العرب الأمويون عامي 717-718. بناء على ذلك فقد اكتسب البلغار منافع اقتصاديةٍ وضَمِنوا حدودهم الشرقية. ولكن هذا لم يدم طويلاً حيث هاجم البيزنطيون بلغاريا خلال صراع داخلي على العرش في بلغاريا في أواسط القرن الثامن.

وجد البيزنطيون أنفسهم في موقف صعب عام 814 حيث حاصر الملك كروم القسطنطينية. ولحسن حظ

البيزنطيين توفي كروم فجأة. تحت قيادة أمورتاغ خان (814-831) ابن كروم خان وصلت بلغاريا إلى ذروة الاحترام. خلال هذا الوقت بدأ سكان الدانوب البلغارية الأتراك يفقدون هويتهم بسبب التدفق الهائل للشعوب السلافية. عندما تحولت الدولة البلغارية إلى المسيحية الأرثوذكسية عام 864 على يد بوريس (852-889) ابتعدت الدانوب البلغارية عن عاداتها الثقافة التركية وتبنّت العادات السلافية.

أسست دولة أخرى بعد انهيار بلغاريا العظمى هي دولة فولغا البلغارية. دولة فولغا البلغارية بالقرب من نهري كاما وإيتيل. كانت عاصمتها بلغار مركزاً تجارياً رئيساً في أوروبا الشرقية من القرن التاسع حتى القرن الثاني عشر. تحولت دولة فولغا البلغارية إلى الإسلام عام 922. هناك ادّعاءات للمؤرخين تقول بأنها كانت الدولة التركية الأولى التي دخلت الإسلام. هزم المغول فولغا البلغارية عام 1237. بقيت دولة فولغا البلغارية منضمة إلى القبيلة الذهبية حتى منتصف القرن الخامس عشر.

مسار التاريخ التركي بدأ يتغير عندما التقى الأتراك بالدولتين العباسية والأموية الإسلاميتين أثناء هجراتهم غرباً نحو الأناضول والشرق الأوسط. خلال هذه المواجهات بدا الأتراك باعتناق الإسلام تدريجياً.

الفصل الثالث

الدولة التركية الإسلامية الأولى

يمكن تحليل اعتناق الأتراك الإسلام من زوايا سياسية واجتماعية وتاريخية. ولكن مهما كانت الزاوية التي ينظر منها فإن لهذا الحدث له أهمية كبرى. عند التعامل مع القضية من الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية فإن تغيير الدين أحد أهم الأحداث التي يواجهها الشخص في حياته. عندما يُنظر إلى القضية من زاوية حياة الشعب ككل، فإن لتغيير الدين تأثير على البنية الاجتماعية والسياسية وحتى الاقتصادية للأمة. على هذا الصعيد، أحدث التحول التركي للإسلام تغيرات هامة في التاريخ التركي -ومثل كل الأحداث الضخمة- فقد غيّر أيضاً المسار التاريخي للعالم. عند التعامل مع هذه القضية من الناحية التاريخية فإنها يمكن أن تُعرَّف كنقطة تحول في التاريخ التركي الذي يُحدّد ضمن مرحلتين، مرحلة ما قبل الإسلام والمرحلة الإسلامية. يشير اعتناق الأتراك الإسلام إلى بداية التاريخ التركي الإسلامي. أخيراً عندما يُنظر إلى الأمر من الزاوية السياسية، فهو يشكل قاعدة عصر جديد في التاريخ التركي استمر حتى القرن العشرين.

لم يألف الترك الإسلام خلال حياة النبي محمد، وبالتالي لم يملكوا فرصة ليألفوه مباشرة بواسطة النبي محمد. بدأت علاقات الترك مع العرب المسلمين في فترة الخليفة الثاني عمر. أول لقاء للترك وجهاً لوجه مع المسلمين عندما ساعدوا الفرس ضد غزو الجيوش الإسلامية لبلاد فارس في أواسط القرن السابع. بدأت

الجيوش الإسلامية بالتوسع باتجاه بلاد فارس عام 156. عبرت نهر جيحون الذي يعتبر حدود المنطقة التركية، وأخيراً فتحت بلاد ما وراء النهر عام 705. بسبب الإدارة السيئة للأمويين لهذه المنطقة لم يسمح الحكام الترك للجيوش الإسلامية الأموية بالتقدم بسهولة. شنت قبائل التورغيش حملة ناجحة ضد الأمويين.

استلم العباسيون قيادة الدولة الإسلامية عام 750. في هذه النقطة بدأت مرحلة جديدة من العلاقات التركية العربية. في بلاد ما وراء النهر حيث استمر الصراع العربي التركي، طلبت بعض الشعوب التركية مساعدة الصين. رأت الصين هذا الطلب فرصة عظيمة للسيطرة على تركمانستان فأرسلت جيشاً هائلاً إلى الغرب عام 747. ولكن المواقف الفظّة للصينيين في هذه المنطقة جعلت الأتراك ينأون بأنفسهم عن هذه المواجهة. طلب الأتراك المساعدة من دولة خراسان الإسلامية ضد الصينيين. وافق الوالي أبو مسلم على هذا الطلب، وأرسل جيشاً يحارب الصينيين. في تموز عام 751 تقاتل الصينيون والأتراك المدعومين بالمسلمين حول المنطقة التي تسمى اليوم ألماتي على طرف نهر طلاس. هُزم الصينيون هزيمة ساحقة في هذا الصراع الذي عُرف بمعركة طلاس.

كانت معركة طلاس حدثاً هاماً في التاريخ التركي. انتهى الصراع بين العرب والترك بعد هذه المعركة. أقيمت علاقات جيدة بين الطرفين. انتهت مرحلة الحرب وبدأت مرحلة السلام. في مرحلة السلام هذه تطورت العلاقات التجارية بين الدولتين ونتيجة لذلك كان للترك فرصة مناسبة لمعرفة الدين الإسلامي بشكل أفضل. تسبّب هذا بانتشار الإسلام بين الترك. كان الترك قبل اعتناقهم

الإسلام يؤمنون بأديان أخرى مختلفة كالمانوية والبوذية والزرادشتية. وهكذا، لم يتم تبنّي أيّ من هذه الأديان بوجود أغلبية إسلامية ساحقة.

بقي اعتناق الترك للإسلام مقتصراً على مجموعات متفرقة من الأفراد خلال الفترة الأموية. في الفترة العباسية اتّسعت منطقة نفوذ الإسلام وبدأ القبول به على مستوى ضخم. السياسة الأكثر اعتدالاً تجاه المسلمين من غير العرب لعبت دوراً هاماً في هذه العملية. شوهدت عملية أسلمة ضخمة بين المجموعات التركية اعتباراً من القرن التاسع. في البداية خدمت هذه المجموعات الدولة الإسلامية ولكنها لاحقاً أسست دولة مستقلة وأصبحت قوية جداً إلى درجة أنها تقرر مصير المسلمين ككل.

خانية قراخان

أسست عشائر ياغما وشيّل وتوهسي خانية قراخان عام 840. أتى تأسيس خانية قراخان بعد تدمير دولة الأويغور على يد القرغيز وإعلان قارلوق يابغو نفسها القبيلة الوحيدة والشرعية المنحدرة من سيد السهول. أصبحت مركزاً لدولة الكاشغر عام 893. أطلق المستشرقون الأوربيون على هذه الدولة الإسلامية الأولى التي حكمت في تركستان الشرقية والغربية اسم قراخان. كان هذا الاسم مستمداً من كلمة قرا التي تعني القوي وغالباً ما كانت تستخدم كلقب بين الناس في هذه الدولة. على سبيل المثال، عندما أعلنت قارلوق يابغو نفسها سيدة السهول استخدمت لقب قراخان.

كانت خانية قراخان مقسمة إلى قسمين –يمين ويسار– بحسب البنية التقليدية للدول التركية. عُيّن

الخان الأعظم الذي يحكم كامل الدولة في قسم اليمين أو القسم الشرقي. وعين في القسم الأيسر من الدولة الشخص الثاني في السلطة الذي كان من المفترض أن يُلقّب يابغو، ولكن لقب خان المستخدم في الدولة استبدل بلقب الخان التابع. حكم السلطان أو الحكام العسكريون الخاضعون لأوامر السلالة الحاكمة المقاطعات ذات الحكم الذاتي في القسمين. بعد أن قُسمت خانية قراخان إلى شرقية وغربية، ظلّ تقليد وجود إدارة منفصلة في كل جزء محافظاً على نفسه. لا يوجد أي معلومة مُسجلة في النصوص التاريخية تفيد بأن الخان الأعظم عُيّن في القسم الشرقي. المعلومة الوحيدة المسجلة عن هذه الدولة أتت من الخانات الثانويين الغربيين الذين كان لهم اتصالات جيدة مع العالم الإسلامي والذين ترأسوا معظم شؤون الدولة الأساسية. عند البحث في تاريخ الدولة يواجه المرء شكاً حول رئيس الدولة.

كان بيلغي غول قادر خان أول حاكم موثق في الفترة الأولى لخانية قراخان التي لم توثق بشكل دقيق. المعلومة الوحيدة الموثقة حول بيلغي غول قادر خان تتعلق بصراعه مع السامانيين. بعد بيلغي غول قادر خان حكم الدولة أبناؤه أوغولجاك قادر خان وبازيز أرسلان خان. وصل سناتك بوغرا ابن شقيق أوغولجاك قادر خان إلى السلطة بعد أن هزم عمّه في محاولة للسيطرة على العرش. جعل ساتك بوغرا الإسلام دين الأقاليم التي حكمها الرسمي. انتشر الدين الإسلامي بسرعة بين القبائل التركية في فترة حكم ساتك بوغرا الذي أسمى نفسه عبد الكريم بعد أن أسلم. خلال فترة حكم خلفاء ساتك بوغرا، وبشكل خاص بايتاش أرسلان خان

سليمان، ساد الإسلام في جميع أنحاء البلاد. وبهذا يمكن القول إن خانية قراخان استمرت باعتبارها دولة إسلامية بدءاً من ستينيات القرن العاشر.

قاتلت خانية قراخان في تاريخها السياسي السامانيين والغزنويين ولاحقاً السلاجقة. تحطّمت الدولة السامانية واحتُلت منطقة ما وراء النهر في عهد قلج بوغرا خان. لكن الخانات لم ينجحوا بأخذ خراسان من الغزنويين. بعد اتساع نفوذهم في عدة مناطق في ثلاثينيات القرن الحادي عشر بدأ صراع على السلطة داخل الخانية، وأدى هذا الوضع إلى انقسام البلد إلى دولتين مستقلتين شرقية وغربية عام 1042: الخانية الشرقية والخانية الغربية. حكمت قراخان الغربية المنطقة الممتدة من ما وراء النهر إلى فرجانة. كانت عاصمة الخانية الغربية أوزكنت أولاً، وسمرقند لاحقاً. دخلت هذه الدولة باسم الإمبراطورية السلجوقية العظمى عام 1074. عندما هُزم السلاجقة على يد القراختاي انتقلت الخانية الغربية إلى الطرف المنتصر. أنهى الخوارزميون حياة هذه الدولة عام 1212.

كانت بالاساغون المركز السياسي والعسكري لخانية قراخان الغربية، وكاشغر مركزها الثقافي والديني. حكمت هذه الخانية مناطق بالاساغون وطلاس وطاشكنت وكاشغر وياركنت وهوتان. ناضلوا لنشر الإسلام بين الأتراك غير المسلمين في القسم الشرقي للدولة. وقعت بيد الإمبراطورية السلجوقية العظمى عام 1089، وانهارت على يد القراختان عام 1211. بعيداً عن خانيات قراخان الشرقية والغربية تأسست خانية قراخان ثالثة عام 1141. الخانية الثالثة هذه كانت تُعرف باسم خانية فرجانة وعاصمتها أوزكنت. زالت خانية فرجانة عام 1212.

الإمبراطورية الغزنوية (963 - 1187)

تأسست الإمبراطورية الغزنوية باعتبارها دولة تركية إسلامية عام 963 في أفغانستان. أخذت الإمبراطورية اسمها من غزنة، وهي المدينة التي تأسست فيها. كان لهذه الإمبراطورية مكانة هامة بين الدول التركية الإسلامية الأولى حيث أصبحت قوة إقليمية هامة خصوصاً في الهند الشمالية.

بدأ الترك بمعاونة الدول الإسلامية وخدمتها في القرنين التاسع والعاشر. بمرور الوقت أصبحوا نخبة حكام هذه الدول وقادتها. أسس الدولة الغزنوية الترك الذين خدموا سابقاً الدولة السامانية. خلال تفكك الدولة السامانية، عُين ألبطغين أحد قادة هذه الدولة حاكماً على خراسان. نافس الوزير الساماني في تلك الفترة بلعمي ألبطغينَ على سلطة الدولة السامانية ولكنه لم ينجح. هَزَمَ ألبطغين الجيش الذي أُرسِله لمحاربته. بعد ذلك أتى ألبطغين إلى غزنة في أفغانستان وأبعد ليفيكس عن المنطقة عام 962. وبدأ بالسيطرة على المدينة عام 963، وأعلن نفسه حاكماً على المنطقة، وأسس الإمبراطورية الغزنوية.

في فترة حكم خليفة ألبطغين أبو إسحاق إبراهيم أخذ ليفيكس غزنة مرة أخرى. بعد فترة قصيرة استردها الغزنويون. لعدم وجود ابن لدى أبي إسحاق إبراهيم فقد انتقلت السلطة إلى أيدي القادة العسكريين. عين نفسه بيلغة تكين أول هؤلاء القادة مشرفاً على السامانيين. بعد بيلغة تكين جاء بوري تكين إلى السلطة. نتيجة الشكوى من سوء قيادة بوري تكين، دعا الغزنويون ليفيكس لقيادة دولتهم. منع القائد العسكري الآخر سبكتكين

ليفيكسَ من دخول المدينة أولاً، ثم أطاح ببوري تكين عن السلطة، وأصبح هو الحاكم عام 977. على الرغم من استقلال سبكتكين بإقليمه ولكنه قبل بسيطرة السامانيين.

بعد وصول سبكتكين إلى السلطة حدثت تغيرات هامة في إدارة الدولة الغزنوية. كان القادة العسكريون يديرون الدولة حتى ذلك الحين. تغير نظام الحكم في عهد سبكتكين ليصبح وراثياً. اعتقد سبكتكين أن أفضل طريقة للحفاظ على الدولة هو توسيع حدودها باستمرار، وبدأ بتوسيع أراضي الإمبراطورية حين وصل إلى السلطة، وغير نظام الحكم. اتسعت حدود الإمبراطورية الغزنوية لتشمل طخارستان وزابولستان وزميند اور (أفغانستان حالياً) وغور وبلوشستان في وقت قصير. أرسل سبكتكين لاحقاً حملة عسكرية إلى الهند ليضم تلك المنطقة أيضاً إلى الإمبراطورية. مع أول تحرك إسلامي تركي ضد راجا الهند الشمالية، لعب سبكتكين دوراً هاماً بنشر الإسلام في بيشاور من الهند الشمالية. ساعد أيضاً ابنه محمود في قمع تمرد السامانيين في منطقة خراسان. كمكافأة على خدماته أعطته الدولة السامانية لقب ناشر الدين عُين ابنه محمود لحكم خراسان. عندما مات سبكتكين عام 997 في غزنة خلفه ابنه محمود.

لم يصبح محمود شخصية هامة في الإمبراطورية الغزنوية فقط، بل في التاريخ التركي أيضاً. هو أول حاكم استخدم لقب السلطان. في بداية حكم محمود حدث صراع على السلطة بينه وبين أخيه. خلال صراع السلطة هذا غزا السامانيون خراسان، وعينوا حاكماً على المنطقة. بعد أن هزم محمود أخاه، وسيطر على الدولة طلب من الحاكم الساماني مغادرة خراسان. وغزا خراسان عندما رفض السامانيون طلبه. كانت الدولة السامانية ضعيفة

جداً بعد خسارة خراسان على الرغم من وصول خانية قراخان أخيراً إلى نهايتها. نتيجة نهاية خانية قراخان استقل الغزنويون تماماً.

أول عمل قام به السلطان محمود كان التوقيع على معاهدة مع القراخانيين. بهذه المعاهدة انقسمت أرض السامانيين وأصبح الجزء الشمالي من الدولة حصيناً ضد الغزوات الخارجية. بعد ذلك استولى السلطان محمود على سيستان وخوتان وخوارزم. بعد سلسة الانتصارات هذه، أرسل حملات عسكرية إلى الهند. كان لهذه الحملات هدفان، أولاً نشر الإسلام في الهند، وثانياً الاستيلاء على الثروات. لتحقيق هذين الهدفين أرسل السلطان محمود سبع عشرة حملة إلى الهند بين عامي 1001-1027. بهذه الحملات وسع السلطان محمود نفوذ الترك بالسيطرة على كامل الهند الشمالية لتشمل مناطق بنجاب والسند وأوند ومولتان وتاينار ولوخوت وقاليور وسومنات. مع هذه الحملات وصل انتشار الإسلام إلى مستويات كبرى في الهند الشمالية. وتأسست ما يعرف اليوم باكستان. اكتسب محمود هيبة في العالم الإسلامي. كان أحد أعظم الحكام في التاريخ الإسلامي التركي. عندما وصل السلطان محمود إلى السلطة كانت الدولة الغزنوية قبيلة صغيرة. عند وفاته عام 1030 كانت الدولة الغزنوية إمبراطورية امتدت حدودها في الغرب إلى أذربيجان وفي الشرق إلى وادي الغانج وفي وسط آسيا من خوارزم إلى المحيط الهندي.

في صراع السلطة الذي حدث بين أبناء محمود بعد وفاته هزم مسعود أخاه محمد وأصبح خليفته. كان مسعود ناجحاً كوالده في إدارة الإمبراطورية. خلال فترة حكم مسعود حاولت جيوش الإمبراطورية

السلجوقية العظمى غزو خراسان وبدأت تشكل تهديداً كبيراً على الغزنويين. أخيراً هزم السلاجقةُ الغزنويين في معركة دندقان. مع هذه الهزيمة توجب على الغزنويين الانسحاب إلى الهند بعد خسارتهم خراسان وخوارزم ومناطق الشمال كلها. قُتل مسعود في تمرد أثناء الانسحاب. لم يستطع الغزنويون إعادة تنظيم أنفسهم بعد تلك الأحداث. قبل إبراهيم الذي صار سلطاناً عام 1059 بحكم السلاجقة. استمرت هذه التبعية حتى هزيمة السلاجقة على يد القراختاي في معركة قطوان. وبانتهاء الحكم السلجوقي في غزنة، استولى علاء الدين الغوري الأفغاني على المدينة. استولى الغوريون على العاصمة الجديدة لاهور وقتلوا الملك خسرو أخر حكامها عام 1187. قضى الغوريون على الإمبراطورية الغزنوية.

احتلت الإمبراطورية الغزنوية مكانة هامة في التاريخ الإسلامي التركي بسبب الحملة الجريئة على الهند التي ساهمت في نشر الإسلام.

الفصل الرابع
الإمبراطورية السلجوقية العظمى

أسس الغز الأتراك والمعروفين أيضاً باسم السلاجقة القنق الإمبراطورية السلجوقية العظمى. حصلت الإمبراطورية على اسمها من سلجوق. كان سلجوق قائداً عسكرياً في دولة أوغوز يابغو، وقد هاجر إلى منطقة السند مع القبائل التي يحكمها وأسس الدولة السلجوقية. كان دقاق والد سلجوق بيك أيضاً قائداً عسكرياً في دولة أوغوز يابغو. أصبح ابنه سلجوق قائداً بعد وفاته. وبما أنه رحّل من اليابغو فقد هاجر مع جماعته نحو الجنوب حيث منطقة السند على طرف نهر سيحون. السبب الآخر لهذه الهجرة كما في كل هجرات التاريخ التركي كان عدم كفاية المسكن والمرعى في مواجهة احتياجات تزايد السكان.

وصول السلاجقة إلى السند سجل بداية مرحلة مهمة في التاريخ. كانت السند مأهولة بسكان مسلمين هاجروا من بلاد ما وراء النهر والمدن الحدودية بين الأتراك والبلاد الإسلامية. اعتنقت في هذه المرحلة عدة جماعات تركية الإسلام، ولكن سلجوقَ لم يكن مسلماً بعد. أحضر سلجوق مرشدين دينيين إسلاميين إلى السند من الدول الإسلامية المجاورة مثل بخارا وخوارزم. جعل أولئك المرشدين الدينيين مكانَ سكن السلاجقة في السند ملائماً أكثر للسكان. اعتنق سلجوق الإسلام مع الأوغوز الذين يعيشون تحت حكمه عام 960. بدأ يُسمى هؤلاء الأوغوز تركماناً. لاحقاً أصبح يطلق هذا الاسم على الأوغوز الذين هاجروا إلى الدول الإسلامية.

ازدادت قوة سلجوق في المنطقة تدريجياً بعد اعتناقه الإسلام. قرر قطع العلاقات السياسية مع اليابغو، وأعاد محصّلي الضرائب الأوغوز يابغو بقوله أنا لا أدفع الضرائب لغير المسلمين. بهذا الموقف برز بوصفه محارباً مستعداً للدفاع عن الإسلام. لهذا السبب مُنح لقب الملك الغازي. كما أن هذا الموقف منح سلجوق فائدتين: الأولى حصوله على دعم كثير من المسلمين وانضمام الترك إليه، والثانية إضعاف هيمنة اليابغو عليه وتأسيس حكم مستقل. وبما أن الدولة السلجوقية أصبحت قوية فقد اعتُرف بها كقوة عظمى في الساحة العالمية. حصل السلاجقة على قدرٍ عالٍ من احترام جيرانهم مما دفع السامان لطب مساعدتهم أثناء صراعهم مع القراخان. كمكافأة لمساعدتهم أعطى السامان السلاجقة مدينة نور الواقعة بين بخارا وسمرقند ليتخذوها موطناً لهم وذلك عام 985. في العقود التالية استمر السلاجقة بلعب دور هام في الصراع بين السامان والقراخان.

توفي سلجوق في السند عن عمر ناهز المائة عام. خلف سلجوق ابنه أرسلان الذي وصل إلى السلطة بلقب بيغو. حل حفيدا سلجوق طغرل وجغري (ابنا ميكائيل الذي توفي أثناء حياة والده سلجوق) محله في إدارة الدولة مع لقب بيك. فكر طغرل وجغري بضرورة السعي لمستقبل البلاد بتوسيع مساحة الأرض. وبالتالي تحرك طغرل باتجاه الصحارى التي كان الوصول إليها صعباً. وقاد أخوه جغري حملة إلى شرق الأناضول بقوة عسكرية نخبوية بين عامي 1016-1021.

كان جيش جغري مؤلفاً من خمسة إلى ستة آلاف جندي في الأصل، وانضم إليه الكثير على الطريق أثناء

مروره من خراسان. واجه جغري الأرمن والجيورجيين في شرق الأناضول، ورأى أنه ليس هناك من يستطيع هزيمته مع جنوده. أدت هذه الثقة بالنفس إلى اتخاذ السلاجقة قرارات سياسية وعسكرية هامة. في هذه الفترة توفي أرسلان وخليفته يوسف. قاد موسى إنانج السلاجقة. ولكن السلطة الحقيقية تعود إلى طغرل وجغري. زادت حملة شرق الأناضول من قوة الأخوين إلى حد أن الإمبراطورية الغزنوية بدأت تعتبر السلاجقة تهديداً لها.

دخل السلاجقة خراسان دون إذن الغزنويين الذين يحكمون المدينة عام 1035. ضم السلاجقة مجموعات التركمان المتفرقة إلى نفوذهم. رفض السلطان الغزنوي مسعود التنازل عن المدينة عندما أراد السلاجقة أخذها. شنّ السلطان مسعود حملتين عسكريتين ضد السلاجقة لطردهم من المدينة، واحدة عام 1035 والأخرى عام 1038. نجح السلاجقة بصد الحملتين. الأهم من ذلك، أدرك السلاجقة أنهم يستطيعون إيجاد دعم في خراسان والبقاء فيها كسلطة دائمة. بالإضافة إلى ذلك بدأت تقرأ الخطبة في خراسان والأماكن التي تم الاستيلاء عليها حديثاً ووزّعت على أفراد العائلة باسم طغرل بيك. بعد هذه التطورات، عمل السلطان الغزنوي مسعود على إنهاء المشكلة كلياً، وتوجه مع قوة عظمى إلى خراسان.

تواجهت القوتان أخيراً في محيط قلعة دنداقان. في نهاية المعركة التي استمرت ثلاثة أيام (22-24) أيار لعام 1040) هُزم الغزنويون شر هزيمة. النتائج السياسية لهذه المعركة جعلها هامة في التاريخ. أصبحت معركة دنداقان معركة استقلال بالنسبة إلى السلاجقة. حقق السلاجقة

هدفهم بتأسيس دولة مستقلة لهم في خراسان. كان هذا أهم هدف منذ استقرارهم الأول في السند. بعد المعركة أُعلن طغرل سلطاناً (1040–1063)، وتأسست الإمبراطورية السلجوقية رسمياً وعاصمتها نيشابور.

نهوض الدولة السلجوقية

أول عمل لطغرل كسلطان كان توزيع المناطق الجديدة من الإمبراطورية على أفراد عائلته. أرسل أيضاً مندوباً إلى الخليفة العباسي في بغداد يبلغه بقبوله سلطة الخليفة، وبأن هدفه اتّباع نهج الإسلام. توسعت حدود الدولة السلجوقية بسرعة في عهد طغرل. بعد عقدٍ واحدٍ من معركة دنداقان وصلت حدود الدولة إلى هراة وسيستان وخوارزم وكرمان وعمان. باعتماد الأسر الحاكمة في بلاد فارس عليه سيطر طغرل على مدينة ري. بعد ذلك نقل عاصمة الدولة السلجوقية إلى ري.

بعيداً عن توسيع حدود الدولة السلجوقية، فإن أكثر إنجازات طغرل أهمية كانت سلسلة الغارات التي قادها إلى الأناضول بدعم التركمان. بدأ الأوغوز هجرة جماعية إلى الأراضي الخاضعة لحكم السلاجقة. لفرض النظام في تلك الأراضي وإيجاد سكن للتركمان الذين تسبّبوا بإزعاج أينما دخلوا وجّه طغرل التركمان إلى الأناضول التي كانت تحت حكم البيزنطيين. شن التركمان عدة هجمات على الأناضول عام 1048. في هذه الهجمات هزموا البينزنطيين والأرمن والجورجيين عدة مرات. حتى إن طغرل قاد بنفسه واحدة من تلك الهجمات عام 1054. بعد رحيل طغرل من الأناضول استمرت غزوات سادة التركمان الذين عيّنهم طغرل وفتوحاتهم. هيّأت هذه الغزوات والفتوحات أرض الأناضول لتصبح موطن الأتراك.

إحدى التطورات الأخرى الهامة في عهد طغرل كانت إقامة علاقات جيدة مع الخليفة العباسي. بسبب تلك العلاقات أصبحت الدولة السلجوقية دولة مرتبطة بالعالم الإسلامي. حتى مع بداية تتويج طغرل فقد أعلن اتّباع الخليفة وأصبحت الخطبة تُقرأ باسمه. أُنشِئت قرابة بين الطرفين بزواج الخليفة العباسي القائم بأمر الله من ابنة جغري. بعيداً عن هذا كان ثمة سبب آخر وراء احترام السلاجقة وتحولهم إلى دولة مرتبطة بالعالم الإسلامي. في تلك الفترة كان العباسيون يعانون من الشيعة الفاطميين والبويهيين. بناء على طلب الخليفة المساعدة لتخليص بغداد من ظلم الشيعة عام 1055 دخلت قوات طغرل المدينة وحررتها من البويهيين والفاطميين. مع هذه التطورات أصبحت الدولة السلجوقية قائدة العالم الإسلامي وحامية المسلمين السنّة. عاد طغرل بعد حملة بغداد إلى ري وتوفي بعد سنة عام 1063. في فترة موت طغرل توسعت حدود الدولة التي أسسها من نهر جيحون إلى نهر الفرات.

عين طغرل أخاه سليمان خليفة له قبل موته. ولكن سليمان أُزيح في معركة على السلطة مع أخيه ألب أرسلان بعد وفاة طغرل. وصل ألب أرسلان إلى السلطة عام 1064. أجرى بعض التغيرات في الحكم وعيّن نظام الملك وهو كاتب «سيستان نامة» وزيراً. أجرى تعيينات في بعض مناصب الدولة العليا، وانطلق لتحقيق أهدافه. في ربيع عام 1064 بدأ بتنظيم حملة إلى أذربيجان. جعل الأرمن في أران يعتمدون عليه. فتحت آني التي كانت مركزاً لأسرة بغرات الأرمنية المشهورة بحصنها، وكارس أيضاً. كانت آني واحدة من أهم المدن المسيحية في الشرق. سبَّب فتحها قدراً كبيراً من السرور في العالم الإسلامي. نتيجة تلك النجاحات لُقب ألب أرسلان «أبو الفتح». في السنة

التالية بدأ ألب أرسلان بتنظيم حملة إلى المنطقة الشرقية، وتحرّك نحو تركستان. استولى على السند بعد سلسلة من الصراعات. ولكن واحداً من أهم انجازات ألب أرسلان، ولعلّه أهم انجازاته كلّها هو انتصاره على البيزنطيين في معركة ملاذكرد. كان لهذا الانتصار شأن عظيم في كل من تاريخ الإمبراطورية السلجوقية العظمى والتاريخ التركي. الحدث الذي أدى إلى معركة ملاذكرد هو دخول ألب أرسلان إلى الأناضول حيث كانت تحت الحكم البيزنطي. استولى ألب أرسلان على جورجيا في حملة القوقاز الثانية. دخل الأناضول عام 1069 وخطط للتحرك باتجاه مصر لمهاجمة الدولة الفاطمية. استولى على ملاذكرد وإرجيس وسِفرك وحلب عام 1070، ثم خطط للتحرك نحو دمشق. عند سماع الإمبراطور البيزنطي رومانوس ديوغِنِس بذلك أرسل قوة عظيمة لإزالة التهديد التركي عن المنطقة. غيّر هدفه بالاتجاه نحو مصر وقرر البقاء في الأناضول لمواجهة القوات البيزنطية.

معركة ملاذكرد (26 آب 1071)

التقت القوات السلجوقية والبيزنطية في ملاذكرد بتاريخ 1071/8/26. حقق ألب أرسلان نصراً عظيماً ضد القوات البيزنطية. وأسر الإمبراطور البيزنطي ديوغِنِس. حُرّر ديوغِنِس، وأُرسل إلى وطنه بعد توقيع معاهدة في 1071/9/3. بموجب هذه المعاهدة تدفع بيزنطة ضريبة سنوية للدولة السلجوقية، وتوفر مساعدة عسكرية للسلاجقة عندما يطلبون ذلك. ولكن هذه المعاهدة لم تُطبّق فعلياً بسبب تغير الحكم في الإمبراطورية البيزنطية.

ربما أهم نتائج معركة ملاذكرد كانت ترسيخ مبادرة الترك بالهجوم في الأناضول بهدف جعله سكناً دائماً.

بدأت عملية جعل الأناضول موطناً للأتراك بتحقيق الانتصار في ملاذكرد. بعد هذه المعركة المحورية أصدر ألب أرسلان أمراً لجنوده بفتح كامل الأناضول. ومن النتائج الأخرى الهامة أيضاً لمعركة ملاذكرد كانت ردود فعل أوروبا. قوبل انتصار الترك في معركة ملاذكرد بحماس في العالم الإسلامي، مقابل إثارته مشاعر الغضب في أوروبا المسيحية مما أدى إلى تحضيرات للحروب الصليبية بهدف تخليص بيزنطة من الترك.

توفي السلطان ألب أرسلان في 1072/11/24 حيث تقدم باتجاه ما وراء النهر للقتال ضد خانية القراخان. اختير ابنه ملكشاه خليفة له. احتفظ ملكشاه بوزير والده نظام الملك. في الفترة الأولى لحكمه توجّب على ملكشاه مواجه التمرد الذي نظمه عمه كاوُرت. كان عليه أيضاً مواجهة انتهاكات القراخان والغزنويين لحدود الدولة السلجوقية. بعد حله تلك المشاكل سعى لمزيد من الفتوحات. كانت الأناضول أكثر منطقة رغب ملكشاه بالحصول عليها. فتح الأناضول كان سريعاً بفضل القيادة الفعالة للسادة والقادة الأكفاء الآخرين. في عام 1075 أصبحت الأناضول كلها باستثناء المناطق الساحلية الغربية بيد الأتراك. حتى أنه كان من الممكن رؤية التركمان في مناطق بعيدة مثل صبنجة وإزميت. استولى ملكشاه على إزنيق والمناطق المحيطة بها مستفيداً من الصراع على السلطة داخل الإمبراطورية البيزنطية. وضع أسس الإمبراطورية السلجوقية الأناضولية في إزنيق.

أصبح القتال مع الشيعة أيضاً من سياسة السلاجقة الأساسية. استمرت هذه السياسة في عهد ملكشاه. نتيجة ذلك استمر الصراع مع الفاطميين. استولوا على فلسطين والقدس عام 1072. ضُمت طرابلس ودِمشق وسوريا إلى الإمبراطورية السلجوقية عام 1076. أُسقطت الدولة

المروانية الواقعة حول ديار بكر عام 1085. أسقطت خانية قراخان الغربية عام 1089، وحُطمت خانية قراخان الشرقية عام 1092، وبالتالي توسّعت حدود الدولة السلجوقية إلى سور الصين العظيم. استولت على اليمن وعدن عام 1092. كانت الخطبة تُقرأ في مكة المكرّمة باسم ملكشاه. منح الخليفةُ ملكشاهَ لقب حاكم الشرق والغرب. مات مسموماً في 1092/11/20.

الانحلال

عند موت ملكشاه بدأت ما عُرف بفترة التعثر. تميزت هذه الفترة بركود وصراعات داخلية على السلطة. في تلك الفترة، استلم كل ولد من أولاد ملكشاه السلطة: محمود (1092) وبرقياروق (1092–1104) ومحمد طابار (1105–1118) وسِنجِر (1118–1156). بدأت في عهد سنجر فترة إصلاح وإعادة تنظيم في الإمبراطورية السلجوقية. أعاد سنجر فرض النفوذ السلجوقي على كل الدول التي انفصلت عنه بعد موت والده. جدّد وعزّز السيطرة السلجوقية في العراق وأذربيجان وإيران وما وراء النهر وأرض الغزنويين. على الرغم من تلك التطورات خسرت الإمبراطورية السلجوقية قوتها السابقة بسبب سلسلة من التطورات السلبية. بدأ الخليفة العباسي بالعمل ضد السلاجقة لكي لا يكسبوا قوتهم السياسية السابقة. هزم قراختاي الإمبراطورية السلجوقية قرب سمرقند عام 1141. عُرف هذا الصراع بمعركة قطوان. تمرد الأوغوز ضد الإمبراطورية السلجوقية بسبب نزاع ضريبيّ عام 1153. كان الأوغوز في السابق أكبر الداعمين للإمبراطورية السلجوقية. وقع السلطان السلجوقي أسيراً بأيدي الأوغوز أثناء هذا التمرد. بعد ثلاث سنوات أطلق سراحه وأعيد إلى السلطة.

لم تتعافَ الإمبراطورية السلجوقية من هذه الضربات وانتهت عام 1157 مع موت سِنجِر.

وفقاً لمبادئ النظام الإداري التركي، تقاسم أعضاء الأسرة الحاكمة الإمبراطورية السلجوقية العظمى أراضيها السابقة والتي استولت عليها حديثاً. بناء على ذلك أصبح معروفاً أن الدول السلجوقية تابعة للحكومة المركزية طوال فترة وجود تلك الحكومة. عندما ضعفت السلطة المركزية بعد وفاة ملكشاه اكتسب السلاجقة تدريجياً سلطةً. بنهاية الدولة السلجوقية العظمى أصبحوا بنى مستقلة.

أسس محمود حفيد ملكشاه الدولة السلجوقية العراقية والخراسانية (1092-1194). صارع محمود عمّه سنجر على السلطة فترة من الزمن ولكن سِنجِر ربح هذا الصراع. عندما أصبح سِنجِر سلطاناً ترك المناطق الغربية (منطقة العراق) لابن أخيه. بهذا الشكل تأسست الدولة السلجوقية العراقية. عرفت الدولة السلجوقية العراقية بصراعها مع الخليفة العباسي الذي أراد أن يستعيد السلطة السياسية التي خسرها. أزال الخوارزميون هذه الدولة من التاريخ.

أسس كاورت بن جغري دولة كرمان السلجوقية (1092-1087) في مدينة كرمان جنوب إيران. صارع كاورت من أجل الاستيلاء على السلطة في الدولة السلجوقية العظمى بعد موت ألب أرسلان ولكنه توفي أثناء هذا الصراع. حافظ أحفاد كاوُرت على بقاء كرمان تابعة للدولة السلجوقية العظمى. دمر الأغوز سلاجقة كرمان بتمردهم على الدولة السلجوقية العظمى.

أسس طُطُش شقيق ملكشاه الدولة السلجوقية السورية (1092- 1117). ظلّ طُطُش تابعاً للدولة السلجوقية العظمى حتى عام 1092. عندما مات ملكشاه أعلن ططش استقلاله

وأسس دولته الخاصة. ولكن هذه الدولة انقسمت إلى فرعين الأول حلب والآخر دمشق بعد موت طتش عام 1095. ضعف القسمان نتيجة الحروب الصليبية. انهار قسم دمشق عام 1105 وقسم حلب عام 1118.

سنتناول سلاجقة الأناضول أو سلاجقة تركيا في القسم المعنون «الدول التركية الأناضولية».

الخوارزميون

كان حوض بحيرة الأورال الذي يصبّ فيه نهر جيحون يدعى خوارزم. وسمي حكّام تلك المنطقة خوارزميين. كان مؤسسو الدولة الخوارزمية حكام خوارزم في الدولة السلجوقية العظمى وهم أحفاد أنوشتكين. مال الحكّام الذين أتوا بعد أنوشتكين إلى الاستقلال، ولكنّهم لم يستطيعوا إيجاد فرصة لإعلانه خلال الفترة التي كانت فيها الدولة السلجوقية العظمى في ذروتها. بعد وفاة سِنجِر عام 1157، أعلن أرسلان الثاني استقلال خوارزم. كانت عاصمة الدولة كونا أركنش (غول غنتش). تطورت الدولة الخوارزمية، وقويت بسرعة في عهد أرسلان الثاني. توّسعت حدود الدولة باتجاه ما وراء النهر وإلى ما بعد تركستان باتجاه إيران غرب أذربيجان. كان عهد علاء الدين محمد أكثر عهود الدولة إشراقاً. استولى على كورلوس وهُزم القراختانيون. ولكن علاء الدين محمد لم يُوفق ضد المغول. وبسبب عدم استطاعة الدولة الخوارزمية الوقوف بوجه المغول بدأت بالانهيار عام 1220. على الرغم من انتعاش الدولة الخوارزمية في عهد جلال الدين الخوارزمي فإن هذا لم يمنع سقوطها. بعد سقوط الدولة بدأ الخوارزميون بالهجرة إلى الغرب وبعضهم إلى الأناضول هرباً من غزوات المغول.

الفصل الخامس
الدول التركية في مصر وسوريا

الطولونيون (868 – 905)

فتحت الجيوش الإسلامية مصر عام 639. بعد ذلك أصبحت مصر إحدى أهم مناطق الدولة الإسلامية. كانت الدولة الإسلامية تعين حاكم مصر ومديري مكاتب جمع الضرائب والمعلومات السرية وتأمين الاتصالات. أعدّ توزيع المناصب بهدف حماية سلطة الدولة الإسلامية المركزية وذلك بمنع جمع كامل القوة بأيدي مسؤول محلي واحد. كان هذا النظام ضعيفاً في حل بعض المشاكل. ولذلك أصبح من الضروري تعيين حكّام أقوياء على المنطقة. عين بين وقت وآخر حكام من أصول تركية.

أحد أولئك الحكام هو أحمد طولون أوغلو. عُين بمنصب والده حاكماً بالوكالة. حالما أتى إلى مصر، تجاهل أحمد المديرين العباسيين. مَحْوَرَ السلطة حول نفسه في المنطقة، ثم أعلن استقلاله. بنى جيشاً وأسطولاً قويين في مدة قصيرة. التطور الزراعي الهام الملحوظ في عهده حسّن ظروف مصر الاقتصادية. أصبحت الفسطاط (القاهرة القديمة) عاصمة الدولة مركزاً ثقافياً غنياً. بنى طولون أوغلو جامعاً باسمه مازال قائماً إلى اليوم، ويعتبر عملاً معمارياً هاماً. وبنى مستشفى لا مثيل له في مصر.

استولى أحمد طولون أوغلو على سوريا عام 878. وحّد الأرض الممتدة من نهر الفرات حتى المغرب تحت حكمه. مرضَ عندما ذهب إلى أنطاليا ليقمع تمرداً هناك،

وتوفي إثر عودته إلى مصر. خلال حكمه الذي دام ستة عشر عاماً، لم يُنقذ مصر من الأزمة الاقتصادية التي عانت منها فحسب، بل جعلها مركزاً ثقافياً جاذباً. خسرت الدولة بنيتها القوية بعد أحمد. أسقطتها الدولة العباسية، وأعادت ربطتها بسلطة الخليفة عام 905.

للطولونيين أهمية كبرى في التاريخ الإسلامي التركي. أسست أسرة الطولونيين أول سلالة إسلامية تركية حاكمة في المنطقة عندما كان قسم صغير جداً من السكان أتراكاً. قادوا البلد جيداً وأسسوا دولة قوية.

الإخشيديون (935 – 969)

بعد القضاء على الأسرة الطولونية الحاكمة بثلاثين سنة، أسست أسرة إخشيد سلطة جديدة في مصر. كان الإخشيديون قبيلة عسكرية من فرغانة. مؤسس أسرة إخشيد الحاكمة هو أبو بكر محمد. كان والده طغج أحد حكام دمشق في عهد الطولونيين. محمد أول حاكم عمل في دمشق ثم في مصر. عُيّن حاكماً لمصر عام 935، وأعلن استقلاله اعتماداً على السكان الأتراك المحليين. أقام بداية علاقات جيدة مع الخليفة العباسي، ولكنه قطع كل العلاقات مع الخليفة لاحقاً. بما أن قاعدة سلطة محمد أصبحت قوية فقد سعى أولاً إلى حماية مصر من تهديد الفاطميين الذين ظهروا في الغرب وثانياً إلى السيطرة على أراضٍ جديدة. استولى على سوريا عام 941، وعلى مكة والمدينة عام 942، ثم وسّع سلطته لتصل إلى اليمن.

كانت عهد محمد كما عهد أحمد طولون أوغلو مترفاً. لكن أحفاده لم يكونوا ناجحين. قضى الفاطميون على الأسرة الإخشيدية عام 969.

الأيوبيون (1171 – 1252)

كان صلاح الدين الأيوبي مؤسس الدولة الأيوبية قائداً في جيش محمد زنكي في الموصل. أنقذ صلاح الدين الأيوبي مصر من الفاطميين الذين أطاحوا بالإخشيديين عام 1171. بإزالة الخليفة الفاطمي صك القطع النقدية باسم الخليفة العباسي وأصبحت الخطبة تُقرأ باسمه. عمل حاكماً تحت سلطة نور الدين محمود حتى وفاة محمود عام 1174. في ذلك العام أعلن صلاح الدين الأيوبي استقلاله وأسس دولته الخاصة. كان الموظفون الإداريون في دولته ومعظم الجيش أتراكاً. ارتكزت سياسته على المذهب الإسلامي السنّي، وبناء على هذا، اتبع مذهب الدولة السلجوقية السياسي نفسه.

فتح صلاح الدين مع أخوه طورانشاه سوريا وامتد سلطانه إلى العراق. قوي بانضمام العديد من العشائر التركية الشرق أوسطية إلى دولته. هزم صلاح الدين الصليبيين في معركة حطّين عام 1187، واستولى على القدس والمناطق الساحلية في سوريا. أعدت حملة صليبية ثالثة بعد معركة حطّين، ولكن الصليبين لم ينجحوا مجدداً ضد صلاح الدين.

بعد موت صلاح الدين نشب صراع بين أفراد عائلته على خلافة العرش. تمكن القادة العسكريون المماليك من الوصول إلى السلطة في ذلك الصراع. كان طورانشاه آخر السلاطين الأيوبيين. أزاحه أيبك -أحد قادة المماليك العسكريين- عن السلطة. المماليك من أصول تركية.

المماليك (الدولة التركية)

تأسست دولة المماليك التركية في مصر في القرن الثالث عشر. ذكر المؤرخون العرب هذه الدولة باسم

تركيا. لم تؤسس هذه الدولة أسرة حاكمة كما في الدول الإسلامية التركية الأخرى. مملوك تعني العبد الأبيض، وهو شخص يصبح عبداً إما بأسره أو شرائه. أشار اصطلاح مملوك في التاريخ الإسلامي التركي إلى من عمل تحت قيادة أسرة حاكمة حارساً أو موظفاً متميزاً براتب ووضع اجتماعي وقانوني. استُخدم المماليك الأتراك عادة كعبيد عسكريين في العالم الإسلامي اعتباراً من المرحلة العباسية. أصبحوا عاملاً مهماً حيث اعتمدت عليهم العديد من الدول الإسلامية في الشرق الأوسط. أسس المماليك دولتهم في الدولة الأيوبية. كان مؤسس الدولة أيبك التركماني. استمر صلاح الدين الأيوبي الذي أتى إلى السلطة عام 1159 بالتقليد العباسي بتشكيل جيش من العبيد. أظهر هؤلاء العبيد قوة جسدية كبيرة. استولى عليهم أو اشتراهم الجيش الأيوبي من منطقة شمال البحر الأسود. على الرغم من وجود بعض الشركس بينهم ولكن معظمهم كانوا تركاً. بعد صلاح الدين الأيوبي نقل الأيوبيون تقليد توظيف العبيد في الجيش خطوة إلى الأمام: وظفوا أكثرهم ذكاء في مكاتب الدولة العليا.

تدرب هؤلاء العبيد الجنود في حاميتين عسكريتين. واحدة تقع في جزيرة الروضة في نهر النيل قرب القاهرة. كان ثمة ترك في هذه الحامية معظمهم جنود من القبجاق ويسمّون مماليك البحرية. الحامية الأخرى كانت قرب القاهرة أيضاً وضمت جنوداً شركس يسمون مماليك الشركس. العبيد الجنود الذين أسسوا دولة المماليك كانوا من حامية مماليك البحرية. في السنوات التالية سيطر جنود حامية مماليك الشركس على السلطة في الدولة المملوكية.

قوي نفوذ هؤلاء العبيد الجنود في الجيش وإدارة دولة الأسرة الأيوبية، وبدؤوا بتمرد. اتخذ آخر السلاطين

الأيوبيين طورانشاه تدابير صارمة ضد تمرد العبيد الجنود والضباط قبل أن يُقتل على أيديهم. عين التمرد بعد ذلك شجرة الدر سلطانة جديدة. كانت أرملة السلطان السابق مالك نجم الدين صالح. عين التمرد معز الدين أيبك قائداً للجيش. أخيراً تزوجت شجرة الدر من أيبك وسلّمته التاج. استمرت دولة المماليك التي أسسها العبيد الجنود والضباط لأكثر من 250 سنة. ابتلت فترة حكم أيبك بعدة نزاعات داخلية. بعد موت أيبك، تولى ابنه نور الدين علي زمام السلطة. ولكن نظام الإدارة المملوكي لم يكن أسرة حاكمة ولذلك لم يُعْتَرف بشرعية انتقال السلطة من الأب إلى الابن. أطاح سيف الدين قطز بنور الدين علي عام 1259.

أثناء انشغال المماليك بنزاعاتهم الداخلية، احتل الجيش المغولي بغداد وقتل الخليفة وبدأ يقترب من الحدود المصرية عام 1260. أرسل السلطان المملوكي قطز جيشاً بقيادة بيبرس لصد هجوم المغول. تواجهت القوتان في منطقة عين جالوت حيث هُزم المغول شر هزيمة. نصر المماليك في عين جالوت منع المغول من احتلال سوريا ومصر. قرّب هذا أكثر بين سوريا ومصر. لجأ الترك الهاربون من غزو المغول إلى دولة المماليك وشكلوا مجموعات عسكرية براتب في الجيش.

بعد قطز أصبح بيبرس قائداً لدولة المماليك. أدرك بيبرس أن تهديداً خطيراً سيظهر لدولة المماليك إذا شكل المسيحيون والمغول تحالفاً ضدها. سيضم هذا التحالف إمارة الأرمن الصغيرة في الشمال والفرنجة على السواحل ومملكة قبرص والإسماعيليين والنصيريين في سوريا ومصر الذين يعارضون سياسة المماليك السنية. اتخذ بيبرس تدابير لائقة لمنع تشكيل تحالف مسيحي

مغولي. أقام بيبرس تحالفاً مع القبيلة الذهبية (دولة ألطن أوردو) ضد خانية المغول في إيران. عقد أيضاً تحالفاً مع البيزنطيين ضد الصليبيين في سوريا. بالرغم من أن بيبرس أعاد تأسيس الخلافة العباسية في مصر ولكن دولة المماليك بدأت بإدارة كامل العالم الإسلامي. لم يحم بيبرس سوريا فقط من هجوم الخانية الجديد، بل قضى على وجودها في سوريا أيضاً. دخل الأناضول وهزم المغول في إلبستان للمرة الثانية عام 1277. ولاحقاً قضى على إمارة كيليكيا الأرمنية، وأخرج الصليبيين من أنطاكيا.

قوّت فتوحات بيبرس دولة المماليك. بعد موته جلس ابناه بركة وسلامش على العرش. أطاح بهم لاحقاً قالاوون الذي أصبح حاكم دولة المماليك الجديد. حكم أحفاد قالاوون المماليك من عام 1279 إلى عام 1382. أنهى برقوق سلالة قالاوون عام 1382 عندما أصبح حاكم المماليك الجديد. كانت إزاحة برقوق لقالاوون ممكنة من خلال استيلاء المماليك الشركس على السلطة. سجل هذا بداية عصر جديد في تاريخ المماليك.

عقد المماليك بقيادة برقوق تحالفاً مع العثمانيين ودولة القرن الذهبي وإمارة القاضي برهان الدين. عُقدت هذه التحالفات بهدف الدفاع إزاء تهديد تيمور الأعرج. بعد موت برقوق عام 1399 فسخت هذه التحالفات. لم يكن القرن الخامس عشر معطاء جداً للمماليك. خسر فرج خليفة برقوق منطقة سورية بحربه ضد تيمور الأعرج. بالإضافة إلى ذلك خسرت مصر أهميتها السابقة على طريق التجارة بين القارات حيث بدأ البرتغاليون بنقل البضائع الهندية عبر طريق رأس الرجاء الصالح. هذا ما أدى إلى تراجع اقتصاد المماليك وسوء دولتهم.

بدأت علاقات المماليك بالعثمانيين تسوء في تلك الفترة. تنافس المماليك والعثمانيون بالسيطرة على القبائل التركمانية في جنوب الأناضول. بدأ المماليك بلعب دور في الصراع بين مختلف الحكام داخل الدولة العثمانية. أدت هذه النزاعات إلى حرب بين المماليك والعثمانيين استمرت من عام 1485 إلى عام 1490 لم ينتصرٍ فيها أي طرف. ولكن الدولة العثمانية تطورت سريعاً بخلاف دولة المماليك. نجح العثمانيون بفتح دولة المماليك عام 1517.

الفصل السادس

الدولة السلجوقية الأناضولية (التركية)

دفع السلاطينُ السلاجقة التركَ إلى الأناضول بشكل منهجي. على الرغم من أن تأسيسهم للدولة لم يلاحظ حتى معركة ملاذكرد عام 1071، فإن الترك بدؤوا بالاستقرار في المنطقة في وقت سابق لذلك.

يعود تاريخ اهتمام الترك بالأناضول واستقرارهم فيها إلى فترة ما قبل الإسلام. ذكرنا سابقاً أن الهون قادوا غارات قصيرة الأمد إلى الأناضول بين عامي (395-398). ولكن الغارات التركية الأكثر أهمية على الأناضول تمت بعد اعتناق الإسلام. أتى قلج أرسلان بيك والد السلطان السلجوقي ألب أرسلان إلى شرق الأناضول من طريق خراسان وإيران مع قوة مؤلفة من ثلاثة آلاف جندي. نجاح هذه الحملة أقنع السلاجقة بعدم وجود قوة في المنطقة يمكن أن تقف في طريقهم. في هذه النقطة بدأ السلاجقة باعتبار الأناضول مكاناً مثالياً لتأسيس موطنهم. في عهد الإمبراطور السلجوقي الأول طغرل (1040–1063) قاد السلاجقة حملات متكررة إلى الأناضول. على الرغم من عدم وجود استقرار تركي دائم في المنطقة، فقد بدأ الأتراك صراعاً مع البيزنطيين على أرض الأناضول. اهتمام السلاجقة بالأناضول يتضح من نقل عاصمتهم من نيشاور إلى ري حيث ري غرب نيشاور وأقرب إلى الأناضول. هذه المصلحة العميقة جعلت السلطان طغرل يأتي إلى الأناضول، ويتولى قيادة الصراع الذي انتصر فيه ضد البيزنطيين.

تقدّم الترك في الأناضول منذ حملة جغري الأولى إلى وفاة طغرل يشكل سلسلة من الفتوحات العظيمة. أتى ذلك بين تأسيس الدولة السلجوقية العظمى ومعركة دنداقان. ضعُف نفوذ البيزنطيين في الأناضول في عهد السلطان طغرل. خلق هذا الضعف فرصة مثالية لتهيئة الأناضول موطناً للترك. معركة ملاذكرد عام 1071 جعلت استمرار الترك في الأناضول ممكناً. في بداية القرن الثاني عشر وفي عهد ألب أرسلان تبنّت الأناضول اسماً جديداً مشتقاً من الترك وهو تركيا. بعد هزيمة البيزنطيين في معركة ملاذكرد لاحظ الترك عدم وجود أي قوة يمكن أن تقاومهم في المنطقة. لذلك بدؤوا بشن غارات في الأناضول مع نيّتهم بجعلها موطناً لهم. أوصى ألب أرسلان قادته العسكريين وأمراءه بضرورة فتح الأناضول. مع اقتراب فتح الأناضول (أو تركيا) ظهرت دولة جديدة تسمى الدولة التركية الأناضولية. بعد انتصار ملاذكرد عام 1071 لم تكن الدولة السلجوقية هي الدولة الوحيدة المؤسسة في الأناضول. قادة وأمراء مثل أرطوق وطوطاق ودانشميند وصلطوق ومنكوجك وصاوتكين وأفشين قاتلوا مع ألب أرسلان ضد البيزنطيين، وفتحوا أيضاً مناطق مختلفة من الأناضول، وأسسوا إماراتهم الخاصة. أعطاهم ألب أرسلان نفوذاً لتأسيس مواطنهم الجديدة في الأراضي التي استولوا عليها.

برزت الدولة السلجوقية الأناضولية نتيجة هجرة الترك الكثيفة إلى الأناضول بعد معركة ملاذكرد. أسس الدولة قوطالمش أوغلو سليمان شاه حفيد أرسلان يابغو إذ أن أرسلان أحد أبناء سلجوق الأربعة. كان سليمان شاه أحد القادة العسكريين الذين شاركوا في فتح الأناضول الذي بدأ عام 1074. كان الأكثر نشاطاً بين قادة العشائر

على ساحل نهر الفرات وأورفة. حاصر أنطاكيا وحلب أيضاً. ولكن بعد دخول سليمان شاه في صراع مع حاكم سورية السلجوقي آطسيز حوّل اهتمامه إلى الغرب. خلال هذه الفترات اهتزت الإمبراطورية البيزنطية بالصراعات الداخلية وتمردات البلقان.

لذلك لم تبالِ بيزنطة بالغارات التركية في الأناضول حيث بدأت تسكن العشائر التركية. استغل سليمان شاه الوضع، ودخل إلى وسط الأناضول، واستولى على عدة مدن وقلاع دون صعوبة. في النهاية فتح المدينة البيزنطية التاريخية والعظيمة إزنيق عام 1078، وجعلها عاصمة لدولته. من خلال هذه الفتوحات وضع سليمان شاه أسس الدولة السلجوقية الأناضولية.

واصل سليمان شاه فتوحاته ووسع دولته على حساب بيزنطة. بعد هزيمة الجيش البيزنطي الذي جاء إلى إزنيق لاستردادها من الترك مضى سليمان شاه إلى أسكودار (كانت تسمى كريسو بوليس في العهد البيزنطي) وهي منطقة في اسطنبول. بدأ بجمع الرسوم الجمركية من السفن التي تعبر البوسفور بواسطة الجمارك التي أسسها هناك. عندما وصل ألكسس كومنن إلى السلطة في بيزنطة تغير الوضع وبدأ الترك بالانسحاب. في معاهدة «دراغوس بروك» الموقعة عام 1082 قبل خليج إزميت حدوداً بين الدولتين. قوي موقف سليمان شاه بتلك المعاهدة.

بعد توقيع سليمان شاه المعاهدة مع بيزنطة عاد إلى الأناضول، وفتح طرسوس وأضنة وميسيس عام 1083. بدأ أيضاً بجمع الضرائب من ملطية إضافة إلى ذلك فإنه جاء إلى أنطاكيا بدعوة من المسيحيين الذين كانوا

مُستائين من الإمارة الأرمنية هناك. استولى على أنطاكيا بدعم مسيحي. تبعت هذه الفتوحات فتوحات عنتاب واسكندرون. استاء أمير سوريا ططش من فتوحات سليمان شاه والهيبة التي اكتسبها. في الحرب التي اندلعت بين سليمان شاه وططش في 1086/5/5 هُزم سليمان شاه وقُتل.

بناء على رغبة سليمان شاه تولى أبو القاسم السلطة في الدولة السلجوقية الأناضولية بعد موت سليمان شاه. حال أبو القاسم دون تحكم أحد بالدولة المؤسسة حديثاً، وقاد غزوات ناجحة على بيزنطة. في هذه الفترة أرسل السلطان السلجوقي العظيم ملكشاه قوة كبيرة لإخضاع السلاجقة الأتراك لسيطرته. لم ينجح في هذه المحاولة بسبب وفاته. وفاة ملكشاه أدى أيضاً إلى حدث آخر. قلج أرسلان الأول أحد أبناء سليمان شاه، ووقف لاحقاً مع ملكشاه، عاد من خراسان إلى إزنيق في نهاية عام 1092 وأصبح سلطان الدولة السلجوقية العظمى.

صراع الترك من أجل الوحدة ومع الصليبيين

عندما وصل قلج أرسلان الأول إلى الحكم رأى أن الدولة السلجوقية الأناضولية تفتقر إلى سلطة مركزية قوية قادرة على توحيد المنطقة. شكّل القادة العسكريون الأتراك في مختلف مناطق الأناضول إماراتهم الخاصة. كان البيزنطيون أيضاً في حالة هجوم على الطرفين التركي والصليبي. اعتقد قلج أرسلان الأول أن حماه زاخاس بيك يشكل تهديداً كبيراً على الترك الأناضوليين. كان زاخاس بيك قد أسس دولة في إزمير، وبنى أسطوله وسيطر على الجزر المجاورة والدردنيل. بدأ قلج أرسلان الأول باتخاذ إجراءاته. أولاً عقد اتفاقاً مع بيزنطة ضد

زاخاس بيك، وعزله عام 1094. بعد القضاء على التهديد الغربي وجه اهتمامه نحو الشرق. حاصر ملطية التي كانت بيد الأرمن عام 1096. خلال هذا الحصار اكتشف قلج أرسلان الأول أن الحملة الصليبية الأولى وصلت إلى الأناضول. أنهى الحصار فوراً وعاد إلى العاصمة. هُزم الصليبيون على يد الجيش السلجوقي بقيادة داوود شقيق قلج أرسلان الأول. ولكن قلج أرسلان الأول عندما وصل إلى إزنيق كانت الموجة الصليبية الثانية قد حاصرت المدينة تواً. لم يتمكن قلج أرسلان الأول من الدخول إلى المدينة. بما أن الحصار استمر لفترة طويلة تُركت إزنيق للبيزنطيين بتوقيع معاهدة عام 1097. بعد ذلك نقل قلج أرسلان الأول العاصمة إلى قونية. بدعم الدانشمنديين العسكري قاتل قلج البيزنطيين في محيط مدينة إسكي شهير. نجح في القتال ولكنه لم يستطع إيقاف الحملات الصليبية. نتيجة لهذا قرر القتال ضد الصليبيين ولكن ليس من خلال خوض معارك ضارية ضدهم بل من خلال اتّباع سياسة إضعاف العدو. بعد القتال ضدهم حتى عام 1102 دمّر قلج الصليبيين تماماً في ذلك العام وبالتالي أزال التهديد الذي شكّلوه.

بعد انتهاء الحملة الصليبية الأولى بدأ الترك بعملية إعادة بناء سياسية اجتماعية. انتقلت إزنيق إلى يد البيزنطيين وأصبحت قونية العاصمة الجديدة. الآن هناك جهد جديد لجعل الأناضول مكاناً حصيناً من جديد. كافح قلج أرسلان الأول مع الإمارات التركية الأخرى لإنشاء وحدة في المنطقة وترسيخ حدود دولته. في عملية التوسع هذه أصبحت الدولة السلجوقية الأناضولية جارة للمنطقة التي تسيطر عليها الدولة السلجوقية العظمى. استولى قلج على الموصل أيضاً في عملية التوسيع.

تحول الخلاف الإقليمي بسرعة إلى صراع بين دولتين. في نهاية الحرب بين الإمبراطور السلجوقي العظيم تشافلي وقلج أرسلان الأول التي وقعت على نهر الخابور في 1107 هزم قلج أرسلان الأول، وقُتل.

بشكل مشابه لموت سليمان شاه، خلق موت قلج أرسلان الأول مشكلة إدارية في الدولة. استغلت بيزنطة هذا الوضع، فعادت لقتال الترك في وسط الأناضول. في البداية جاء ابن قلج إلى السلطة وهو شاهين شاه. أزاح شاهين شاه أخوه مسعود بمساعدة الدانشمنديين. دخل مسعود قونية عام 1116، وجلس على العرش.

في عهد مسعود الذي دام حوالي أربع سنوات أنقذ الدولة السلجوقية الأناضولية من الزوال، ثم جعلها القوة الأكثر أهمية في الأناضول. مرت السنوات الأولى لحكم مسعود تحت رعاية الأمير غازي وهو قائد دانشمندي وبنى أقوى دولة في المنطقة. كان الأمير غازي أيضاً حَماهُ لمسعود. استمر هذا الوضع حتى موت الأمير غازي عام 1134. بفرصة التصرف بشكل مستقل بعد ذلك التاريخ استعاد مسعود أنقرة وتشانقري (تشانغرا قديماً) وقصطامونو من دانشمند. استولى عام 1114 على ألبستان، وانتقل نحو مرعش التي كانت بيد الصليبيين. عاد مسعود إلى العاصمة عندما سمع بأن الإمبراطور البيزنطي مانويل كومنينوس متجهاً نحو قونية، وهَزم القوة البيزنطية هناك هزيمة نكراء.

أثناء تقوية مسعود قواته وصلت الحملة الصليبية بقيادة الملك الألماني كونراد الثالث وملك الفرنجة لويس الورع إلى الأناضول. هزم مسعود الجيش الألماني عام 1147 في محيط إسكي شهير. تخلى لويس عن دخول

الأناضول وبدلاً من ذلك ذهب إلى أنطاليا، ومن الساحل ذهب إلى عكا عبر البحر. بعد ذلك شنّ مسعود هجوماً عنيفاً على أرمن كيليكيا. جعل الدانشمنديين يعتمدون عليه. توفي مسعود في 1115 بعد أن جعل الإمبراطورية السلجوقية أقوى دولة في المنطقة.

قبل موته قسّم مسعود دولته بين أولاده. أراد قلج أرسلان الثاني بهذا التقسيم البقاء في قونية، وأن يعتمد عليه أخوته. لم يقبل الأخوة بهذه التسوية وبدؤوا يصارعون قلج أرسلان الثاني على السلطة. تعامل قلج أرسلان الثاني مع أخوته والقوة الخارجية التي حاولت استغلال هذا الوضع وهي قوة الإمبراطور البيزنطي مانويل كومنينوس وإمارة كيليكيا الأرمنية والموصل وحلب والأتابك ونور الدين الزنكي ودانشمند بيك يافيباسان. أولاً ربح قلج الصراع ضد إخوته ورسخ النظام داخل الدولة السلجوقية الأناضولية. بعد ذلك حصّن حدود الدولة الغربية بتوقيع اتفاقية عدم اعتداء مع البيزنطيين عام 1162، ووجّه اهتمامه إلى الشرق. جمد فعالية الدانشمنديين عام 1163، واستعاد الأراضي التي استولى عليها نور الدين الزنكي، وحل المشاكل مع الإمارات الأخرى أيضاً.

معركة ميريوكيفالون (1176)

بدأ نجاح قلج أرسلان الثاني يُغضب بيزنطة. بما أن كل شيء كان يجري بشكل جيد بالنسبة إلى الترك في الشرق فقد بدؤوا بتكثيف غاراتهم على المناطق البيزنطية في الغرب. لمواجهة هذه المشكلة شكّل الإمبراطور البيزنطي مانويل كومنينوس جيشاً هائلاً ضد الترك ورفض كل عروض السلام التي قدمها قلج

أرسلان الثاني. غادر الجيش البيزنطي المعزز بجنود بيتشينيغ وصرب وهنغار وفرنجة اسطنبول في ربيع 1176. في 1176/9/1 هزمه الجيش التركي بقيادة قلج أرسلان الثاني في وادي ميريوكيفالون بالقرب من دنيزلي شر هزيمة. تم إطلاق سراح كومنينوس بشرط إزالة حصانته في الأناضول ودفع تعويضات ضخمة. هذا النصر قطع أمل البيزنطيين باستعادة الأناضول من الأتراك بعد معركة ملاذكرد. هذا يُثبت أن الأناضول لم تكن تحت الاحتلال التركي كما يدّعي المسيحيون ولكنها كانت بديلاً عن الوطن الأم الحقيقي للترك. بعد معركة ميريوكيفالون لم تجرؤ بيزنطة على شن مزيد من الاعتداءات على الترك.

بعد أن حل قلج المشكلة البيزنطية وضع حداً للدانشمنديين، وبالتالي أزال خصمه في الشرق. كسرت القوات التركمانية إمارة كيليكيا الأرمنية واستولت على أراضيها. هم أيضاً استولوا على سيليفكا ووسعوا ممتلكاتهم داخل سوريا والجزيرة. وصلت حدود السلاجقة الغربية إلى دنيزلي.

تقاسم البلاد بين الأمراء وبعد ذلك

بعد فترة طويلة من الحكم والنضال شاخ قلج أرسلان الثاني وتعب. وهكذا قسّم البلاد بين أبنائه الأحد عشر عام 1186. بقي في قونية وأدار البلاد مع وزيره. سرعان ما أدى هذا الوضع إلى صراع على العرش بين أبنائه. وأضيف لهذه الاضطرابات التي ظهرت نتيجة الصراع على العرش تهديد الحملة الصليبية الثالثة. عندما استولى صلاح الدين على القدس عام 1187، قرر المسيحيون تنظيم حملة صليبية جديدة. على الرغم من محاولة قلج

أرسلان الثاني أن يكون حذراً، وبحثه عن أرضية اتفاق مع الصليبيين، فقد تصرف ابنه بشكل مختلف. دخل الصليبيون قونية وخربوا المدينة. بعد هذه الكارثة هرب قلج أرسلان الثاني مع ابنه غياث الدين كيهوسريف الذي بقي معه حتى موته عام 1192. بعد موت قلج أرسلان الثاني جلس غياث الدين على العرش. ولكن أخاه لم يقبل تتويجه. أياً كان الذي جاء إلى العرش في هذه الفترة فقد كان ملزماً بمواجهة الصعوبات. وهذه كانت نقطة الضعف الأساسية للدولة. لم يُرد غياث الدين البقاء طويلاً في السلطة. بدأ ركن الدين سليمان شاه عام 1196 بتحريك قواته إلى قونية. لجأ غياث الدين الذي لم يرغب بتحمل مخاطر قتال أخيه إلى بيزنطة. نتيجة ذلك تسلم ركن الدين سليمان شاه السلطة في الدولة السلجوقية الأناضولية.

بذل سليمان شاه جهداً كبيراً لإعادة تأسيس الوحدة بين الترك. هزم ملك الأرمن ليون والإمبراطورية البيزنطية. أرغم البيزنطيين أيضاً على دفع الجزية للترك. استولى على أراضي من منكوجيكون وأرطوقلو. في عام 1201 أنهى إمارة صلطوق التركية في الأناضول. عندما مات سليمان شاه عام 1207، دعي القادة العسكريين التركمان مع غياث الدين من بيزنطة إلى قونية لأن ابنه قلج أرسلان الثالث ما زال صغيراً. كان عهد غياث الدين الثاني ناجحاً تماماً. هزم إمبراطورية الروم في طرابزون وأصبح طريق البحر الأسود التجاري تحت السيطرة. مع فتح أنطاليا عام 1207 تمكن لأترك من العبور إلى الطريق البحري. هُزم حاكم أرمنيا ومُنع الأيوبيون من الاستيلاء على سوريا والأناضول. مات غياث الدين عام 1211.

فترة ازدهار السلاجقة الأناضوليون

بعد موت غياث الدين جاء عز الدين كيقاوس لاحتلال العرش السلجوقي (1211- 1220). تبعه علاء الدين كيكوباد. تجهّز علاء الدين مع الأسطول الذي بُني في سينوب عام 1226 لفتح صاقدوق التي كانت ميناء هاماً في شبه جزيرة القرم. بعد فتح صاقدوق، سيطر على بعض القبائل الروسية وقادة الكيبتشيغ العسكريين. استولت قوات الدولة البحرية على كامل المناطق السياحية الواقعة بعد سليفكة. تطور آخر في المجال البحري كان الاستيلاء على أهم مركز في البحر المتوسط. حاصر كيكوباد ما يسمى اليوم قلعة آلانيا من الجهتين البرية والبحرية وسيطر عليها عام 1223. أعاد بناء المدينة والبرج، وأعاد تسميتها ألانيا بإخلاص إلى السلطان. أسس كيوكوباد أول حوض بحري للدولة السلجوقية الأناضولية هناك. أصبحت آلانيا المركز الذي قضى فيه السلاطين سنواتهم.

أثناء تعامل علاء الدين مع المشاكل الداخلية في الأناضول، ظهر التهديد المغولي في قلب آسيا، وانتشر بسرعة نحو الغرب. هرب جلال الدين حاكم خوارزم من المغول عام 1225، وقصد أذربيجان. كانت علاقة جلال الدين مع علاء الدين جيدة في البداية إلا أنه عندما دمر جلال الدين مدينة أخلاط السلجوقية بعنف، تنازع القائدان. دعم الأيوبيون حليفهم كيكوباد، وواجهوا جلال الدين. على الرغم من أنه كان على الجيشين التوحد ضد عدوها المشترك فقد تواجها بتاريخ 1230/8/10 في ياصّي جِمَان بالقرب من أذربيجان. هُزمت القوات الخوارزمية هزيمة ماحقة. في هذا الوقت طرق الخطر المغولي

أبواب الأناضول. أدرك كيكوباد تهديد المغول. قبِل بدفع تعويضات هائلة طلبها المغول لدفع الاحتلال عن أرضه. إلا أنه بقي يتخذ الاحتياطات المطلوبة. عزّز الأبراج في مدن الدولة الحدودية وبدأ يبحث عن تحالفات. توفي كيكوباد عام 1237 قبل إكمال هذه المشاريع. كان عهده هو العهد الأكثر ازدهاراً في نواحي الدولة الأناضولية الاقتصادية والسياسية والعسكرية. حصنت حملاته الطرق التجارية. أنتجت الخانات التي بناها وسياسته التجارية تطوراً اقتصادياً. بذل جهوداً لتطوير العلوم والثقافة أيضاً. منحه الخليفة العباسي لقب السلطان العظيم بفضل نجاح حكمه.

السقوط

بعد كيكوباد جلب كبار رجال الدولة غياث الدين كيهروسريف الثاني إلى السلطة. افتقر هذا الحاكم إلى قدرات أبيه الإدارية والعسكرية. في السنة الأولى لحكمه نبذ كل رجال الدولة البارزين المحتمل أن يكونوا منافسين بتأثير قائده العسكري سعد الدين كوبك. استمر هذا الحال حتى عام 1239. حينئذ شُنق كوبك ودخل رجال الدولة الأذكياء حيز الفعالية من جديد في حكم البلاد. على الرغم من الانتعاش الخفيف في الدولة، فلم تستطع إزالة نقط الضعف الدينية والسياسية. بصعوبة أخمد تمرد البابا إسحاق الذي ظهر مع أهداف اقتصادية ودينية. أظهر هذا التمرد أن الدولة كانت ضعيفة جداً حيث استطاعت بصعوبة إخماد تمرد أو حل مشكلة داخلية.

في النهاية دخل المغول إلى الأناضول مع قوة هائلة، وواجهوا الجيش السلجوقي الأناضولي عام 1243

عند جبل كوسي بالقرب من سيواس. تعرض الجيش السلجوقي لهزيمة ساحقة في تموز عام 1243. حكم المغول الأناضول لأكثر من نصف قرن. حكم السلاطين السلاجقة الذين أتوا بعد غياث الدين كدمى بيد المغول. أخيراً اختفت الدولة السلجوقية تماماً عام 1308.

بعد حرب جبل كوسة عام 1243، دخلت الدولة السلجوقية الأناضولية مرحلة انهيار سريع. حكم السلاطين الذين جاؤوا إلى السلطة قبل انهيار الدولة عام 1308 بدعم المغول، وهذا ما يؤكد القول بأن حكم البلاد انتقل إلي المغول. أحدث الوضع الإداري هذا انهياراً اقتصادياً وزاد من إمكانية اختفاء الدولة تماماً. انفصل القادة العسكريون التركمان الذين أرادوا استغلال الوضع عند بداية ضعف المغول في المنطقة عن الدولة السلجوقية الأناضولية، وأسسوا إماراتهم الخاصة التي صارعت البيزنطيين خاصة ولعبت دوراً هاماً في أسلمة الأناضول وتتريكه.

الفصل السابع
الدول التركية في الهند

سلطنة دلهي التركية

وصل الإسلام إلى الهند في الفترة الأموية، ولكن قبوله على مستويات عالية حدث في عهد الدولة التركية الغزنوية. بدأ الغوريون بالسيطرة بعد تدميرهم الغزنويين. تأسست بعد الغوريين عائلات مختلفة وحكمت في المنطقة. حكم الأتراك القطبيون والشمسيون والبلابان والخلج من عام 1206 إلى عام 1414 هناك.

وصل حاكم الغوريين معز الدين محمد إلى السلطة عام 1203، وكلّف القائد التركي أيباك بفتح الهند، وزادت أهمية أيباك خلال هذه الفتوحات. بنى جوامع ومدارس لاهوتية في الأماكن التي فتحها. حقق السلام وسادت العدالة والهدوء في تلك الأماكن. بعد وفاة معز الدين عام 1206 استولى أيباك على دلهي وأعلن استقلاله وأسس دولته الخاصة. على الرغم من احتلاله غزنة مدة، ولكنه لم يستطع أن يبقيها تحت سيطرته طويلاً. استولى على كامل الهند الجنوبية من بيشاور حتى جبال التيبت. عندما توفي أيباك عام 1210 أصبح آرام شاه سلطاناً. أطاح شمس الدين إلتتمش ابن حما أيباك وأحد قادته العسكريين بآرام عن السلطة وأعلن نفسه سلطاناً عام 1211.

جلب إلتتمش مؤسس أسرة شمسي التي استمرت بوجودها حتى عام 1266 القادة العسكريين الذين أعلنوا

استقلالهم بعد وفاة أيباك إلى سلطته أولاً. بعدئذٍ قاد فتوحات ناجحة ووسع مساحة نفوذه. ضم بنجاب ولاهور ومُلتان إلى سلطته. قبول الجماعات التركية الهاربة من الاحتلال المغولي ساعد على تطوير الثقافة التركية في الهند الجنوبية. كان سلطان دلهي أول حاكم قبله الخليفة العباسي. بعد موت إلتتمش عام 1236 حكمت ابنته البلاد فترة قصيرة. بعد ذلك بوقت قصير تمرد القادة العسكريون ودخلوا في صراع على العرش وعمت البلاد الفوضى. في تلك العملية دخل المغول إلى السند ومُلتان وبنجاب. أسقطوا لاهور عام 1241. بنى بلابان أحد قادة إلتتمش العسكريين قوة هائلة صمدت بنجاح ضد هجمات المغول عام 1258 وعام 1259. استعاد العرش من المغول وأصبح السلطان باسم (غياث الدين).

بتأسيس عائلة جديدة باسم غياث الدين عزز بلابان نفوذه بالحصول على دعم الترك الذين لجئوا إلى الهند نتيجة للغزو المغولي. أخمد بدموية التمردات ضد نفوذه. أسس هيمنة تركية فعالة في الهند عام 1287. ولكن بما أن غياث الدين لم يشترط أي خليفة بعد وفاته، بقي السلاطين الذين جاؤوا بعده تحت تأثير القادة العسكريين وسلطتهم. بعد ثلاث سنوات من وفاة غياث الدين -عام 1290- أنهى زعيم أتراك الخلج فيروز شاه حكم بلابان وأصبح سلطان دلهي الجديد مع لقب جلال الدين.

نجح جلال الدين فيروز شاه بصد محاولات غزو المغول بين عامي 1291 و1292، وأسر منهم كثيراً. نُقِلَ المسلمون من أسرى المغول إلى قرب دلهي، وبدؤوا بخدمة سلطنة دلهي التركية. عندما مات جلال الدين عام

1796، خلفه علاء الدين محمد شاه. أجرى علاء الدين محمد شاه الذي غدا أحد أهم حكام الخلج إصلاحات اقتصادية وإدارية جعلت وضع بلاده جيداً. وسع حدود الدولة بقتال المغول والهندوس. سيطر على كامل الهند الجنوبية تقريباً كما وسع حدود الدولة إلى المناطق الساحلية في الهند الشمالية. بعد موته عام 1316، خلفه ابنه مبارك خان. لم يكن حكم مبارك خان ناجحاً بمستوى حكم والده. تولد شعور بالتذمر منه عندما استخدم العنف نفسه الذي اعتاد على استخدامه لإخماد التمردات مع دائرته الداخلية. اغتيل عام 1320. بعد موته أنهى قائد المناطق الأمامية العسكري الملك تَغْلَقْ حكم الخلج، وبدأ عصر حكم التغلق يشغل منصب سلطان دلهي.

بعد وصول غازي ميلي تغلق إلى السلطة بوقت قصير رسخ هدوءاً وسلاماً في الدولة، وبدأ بفتح أراضٍ جديدة. استولى على فاراندال وبيردار. عندما توفي الملك تغلق عام 1325 خلفه ابنه محمد شاه. تأسست دولة أباد كمركز إداري جديد للحفاظ على الأراضي التي تم الاستيلاء عليها في عهد محمد. توفي محمد عام 1351. بعد ذلك نشأت فوضى كبيرة في البلاد. أعلن القادة العسكريون استقلالهم، ونتيجة ذلك نشأت خمس دول مختلفة. أنعش مجيء فيروز شاه إلى السلطة، الدولة وحقق الوحدة. طبق عدة إصلاحات إدارية واقتصادية ومالية. أعاد تنظيم نظام الضرائب. عدله بالإدارة جعله يحظى بتقدير جميع المسلمين وغير المسلمين الذين يخضعون لحكمه. ولكن الفوضى عادت إلى البلاد بعد موته عام 1388، وبدأ صراع على العرش بين الأمراء. استمر هذا الوضع حتى استولى تيمور خان أخيراً على سلطنة دلهي. بعد ذلك أنهى السادة الأفغان حكم تغلق.

إمبراطورية البابر (1526 – 1858)

في نهاية القرن السادس عشر وبعيداً عن الدولة العثمانية، لعبت دولتان دوراً حاسماً في سياسات العالم الإسلامي هما إمبراطورية البابر والإمبراطورية الصفوية.

أسس بابر حفيد حفيد تيمور خان إمبراطورية البابر عام 1526 في الهند. خلف بابر بن عمر شيخ ميرزا من فرغانة والده في السلطة. أثناء الصراع بين الصفويين والأزبك الذي أحدث ضجة في المنطقة في بداية القرن السادس عشر، استقر بابر في سمرقند بدعم من الصفويين. عندما هزم الأوزبك الصفويين عام 1512، اضطر للانسحاب إلى كابول. اتجه إلى الهند لاعتقاده بأنه لا يستطيع البقاء في آسيا الوسطى. بعد الانتصار في معركة بانيبات عام 1526، ذهب إلى سلطنة لودي وأسس دولة في الهند. كانت عاصمة الدولة أغرا. عندما مات بابر شاه عام 1530، كانت حدود الدولة قد اتسعت من جبال فيندا في الجنوب إلى نهر جيحون في الشمال. بعد موته خلفه ابنه همايون.

أمضى همايون السنوات الأولى من حكمه بتأسيس نظام البلد وبناء وحدته. في هذه الفترة هزم شير شاه سوري الذي أصبح العدو الألد لبابر همايون هزيمة ساحقة، وأجبره على الانسحاب إلى لاهور. اضطُرَّ همايون لمغادرة أغرا واللجوء إلى الصفويين. انتقل الحكم في الهند إلى سوري البشتوني. حصل همايون الذي بقي مع الصفويين فترة من الزمن بدعمهم واستولى على أفغانستان وبنجاب والمناطق التي حولها. بعد ذلك هزم سوري في معركة ماتشيفيرا عام 1555. وأصبح لديه فرصة جديدة لحكم الهند. اعتُبر هذا النصر تاريخ تأسيس دولة البابر الثانية. حل أكبر شاه ابن همايون محله حين توفي عام 1556.

كان أكبر شاه أحد حكام بابر الهامين. استولى على عدة مناطق مثل بنغال وكابول وكشمير ووسع حدود الدولة. أجرى إصلاحات اقتصادية وإدارية. أقام علاقات جيدة مع العثمانيين والصفويين والأوزبك واتّبع سياسة السلام بدلاً من الحرب. اقترح أن يتّبع العثمانيين سياسة مشتركة ضد البرتغاليين الذين كانوا نشطين في البحر الهندي، ولكنه لم ينجح بهذه المحاولة بسبب المسافة بين الدولتين. وصل جهانغيز إلى السلطة عام 1603 خلفاً لأكبر شاه، وأخمد التمردات الأفغانية في بنغال. خلال حكم جهانغيز بدأت هولندا وفرنسا والبرتغال وانكلترا باتّباع سياسة الاستعمار في الهند. أعطى جهانغيز إذناً للأوروبيين لبناء أسس تجارية هناك. بعد ذلك حضّر أرضية السيطرة الانكليزية على الهند. بعد وفاة جهانغيز عام 1627 وصل ابنه شاه جهان إلى السلطة.

أخضع شاه جهان كل الدول الإسلامية الموجودة في الهند لسيطرته. أقام الوحدة بعد ذلك. أقام علاقات جيدة مع العثمانيين والصفويين والأوروبيين. ولكن المستعمر البرتغالي تدخل في هيغلي بطلب من عبيد البنغال عام 1632، وأجبره على البقاء في مدينة واحدة فقط وعدم تدخله في المدن التي لا تقع تحت حكمه. مرض شاه جهان وتوفي عام 1652. بعد وفاته بدأ صراع بين أبنائه على السلطة. هزم أورنكزيب عالِمكير أخوته وأعلن نفسه سلطاناً في أغرا عام 1658.

كان عهد أورنكزيب أكثر عهود بابر ازدهاراً. استمر بعلاقته مع الصفويين. أرسل مندوب صداقة إلى مكة، وقدم لها دعماً مالياً. في فترة حكم السلطان سليمان الثاني أرسل العثمانيون مندوباً إلى إمبراطورية بابر. بعدئذٍ

تطورت العلاقات مع العثمانيين. لتحقيق التوازن بين السكان المسلمين والهندوس نُقل عدد هائل من السكان المسلمين إلى المنطقة من تركستان وجنّدوا في الجيش. مرض اورنكزيب وتوفي عام 1707.

بعد اورنكزيب ضعفت الدولة والحكام الذين خلفوه في السلطة، وعجزوا بشكل خاص أمام التهديدات والتدخلات الخارجية. في غضون ذلك، نظم نادر شاه أفشار الذي قضى على الصفويين في فارس وأسس حكمه الخاص هناك حملة إلى الهند عام 1738. غزا أولاً كابول، ثم بنجاب ودلهي. في نهاية الحملة أخذ كنوز الهند إلى فارس. استفاد الأوروبيون أيضاً من وضع بابر. كان شاه علم الذي وصل إلى السلطة عام 1760 أول سلاطين بابر الذين قبلوا بهيمنة الإنكليز. في فترة حكمه رسخ الانكليز سيطرتهم، ووسعوا مساحة نفوذهم. في هذه الفترة أزيلت أسماء حكام بابر من العملة، ومُنعت قراءة الخطبة باسم هؤلاء الحكام.

آخر أباطرة بابر هو بهادر شاه الذي بدأ بتمرد كبير ضد الانكليز عام 1857. طبع اسمه على العملة وأصبحت الخطبة تُقرأ باسمه. أخمد الانكليز هذا التمرد بوحشية. قُتل ثلاثون ألف شخص في دلهي. أسر الإنكليز بهادر شاه، وتوفي عام 1862. انتهت إمبراطورية بابر بحبس بهادر شاه. بعد ذلك استعمر الانكليز الهند وبدؤوا بإدارتها من لندن في عام 1858.

الفصل الثامن

الخانيات التركية
في منطقة شمال البحر الأسود

دولة القبيلة الذهبية (مغول الشمال)

أسس باتو خان حفيد جنكيز خان دولة القبيلة الذهبية عام 1241 على الأرض الممتدة من البحر الأسود إلى هنغاريا. عاصمتها كانت ساراي وهي إحدى أكبر مدن العالم في القرون الوسطى. استولى باتو خان على المناطق الوسطى والسفلية من الفولغا وأراضي القوقاز بين خوارزم وأذربيجان وسهول القبجاق. في عام 1257 أصبح بركة شقيق باتو سلطاناً. كان بركة أول سلطان مغولي اعتنق الإسلام. بعد إقامة تحالف مع سلطان مصر بيبرس هاجم هولاكو حاكم فارس والعراق والأناضول ودَمّر حكمه عام 1262.

في فترة حكم بركة خان انتشر الإسلام بسرعة بين المغول الذين أتوا إلى مناطق شمال البحر الأسود. تأثر المغول الذين كانوا تحت حكم دولة القبيلة الذهبية في مناطق قبجاق وكومان بالثقافة التركية واعتنقوا الإسلام. نسوا لغتهم الأم وأصبحوا أتراكاً. بعد بركة خان، جاء حكام مسلمين إلى السلطة. أوزبك خان (1313–1341) وكل الحكام الذين جاؤوا بعده كانوا مسلمين. جعل أوزبك خان الإسلام دين الدولة الرسمي. جعل ساراي باتو العاصمة. بعد وفاة جانبيك خان عام 1359 بدأت صراعات داخلية في دولة القبيلة الذهبية مما أضعفها. استغل الروس هذا الوضع وهزموا جيش القبيلة الذهبية عام 1380. وصل طوقطمش خان إلى السلطة لاحقاً،

وأنعش الدولة، ووحدها، استمر حكمه فيها حتى حملات تيمور العسكرية على القبيلة الذهبية التي بدأت عام 1395. اضطر طوقطمش خان للجوء إلى ملك ليتوانيا عام 1398. بعد ذلك تفككت الدولة إلى عدة دويلات مثل القبيلة الذهبية العظمى (1432–1502) وخانية أستراخان (1400–1557) وخانية قازان (1445–1552) وخانية القرم (1430–1783) وخانية الأوزبك.

خانية قازان

أسس خانية قازان أولوغ محمد خان عام 1437 في المنطقة التي عاش فيها بلغار الفولغا، وهو أحد ملوك القبيلة الذهبية القدامى. كان سكانها يتألفون من أتراك وفنلنديين رحّل ومستقرين. دخل أولوغ محمد خان (1437–1445) بصراع مع إمارات موسكو، وقبل الروس بنفوذه بعد أن هزمهم. قبِل الروس دفع ضريبة سنوية، والسماح لضباط قازان بالعمل في المدن الروسية، وأعطوا المنطقة على جانب نهر أوكا لشاه قاسم موطناً. عندما تأسست خانية قاسم على طرف نهر أوكا فقدَ السيطرة على نبلاء موسكو.

في مرحلة اشتداد الصراع على السلطة، تزوج إيفان الثالث أمير موسكو صوفيا من العائلة الملكية البيزنطية وأعلن استقلاله عن الحكم التركي عام 1480. دخل الروس قازان في صيف عام 1487. على الرغم من دحر خان قازان محمد أمين الروس (1502–1518) ولكنه لم يستطع إزالة تهديدهم تماماً، وبدأ حكم قازان تحت إشراف خانية القرم عام 1521، وتحت إشراف خانية أستراخان عام 1552. واجه هجمات الروس المستمرة طوال هذه الفترة. دخل إيفان الثالث إلى قازان بدعم

أوروبي في أوائل آب عام 1552. بعد المعركة الرهيبة التي حدثت بين القوتين، دخل الروس قازان وأسروا محمد خان ودائرته. تهدمت خلال هذا الغزو الأبنية التاريخية والثقافية والأماكن المهمة. دمر الروس كنوز المدينة والدولة. في النهاية بسط الروس هيمنتهم على قازان. أخمدت التمرات التي نشبت لاحقاً من أجل الاستقلال بوحشية. يسمى أتراك قازان الحاليين الآن التتار.

خانية القرم

مؤسس خانية القرم الحاج غيراي شقيق باتو خان. اهتزت خانية القبيلة الذهبية وحاكمها طوقطمش بشدة بهزيمتها على يد تيمور بين عامي 1391-1395. بعد هذه الهزيمة بدأ قادة القرم العسكريين بالقتال من أجل الاستقلال. كان الحاج غيراي أحد هؤلاء القادة. أعلن الاستقلال عام 1441 وأسس خانية القرم. سيطر غيراي على مناطق تامان قبارطاي وقبجاق في عهده. أقام تحالفاً مع إمارة موسكو ضد القبيلة الذهبية ومع العثمانيين ضد جنوة. صراع السلطة الذي نشأ بعد موته أضعف البلاد في وجه الهجمات الخارجية. في تلك العملية طلب حكام القرم من الدولة العثمانية المساعدة ضد القبيلة الذهبية وجنوة. أرسل محمد الثاني أسطولاً كبيراً إلى المنطقة، واستولى على مستعمرات جنوة والقسم الساحلي من القرم، وأصبحت خانية القرم تحت حماية الدولة العثمانية عام 1475. حماية العثمانيين للقرم أبعدت الروس عن أراضيهم فترة طويلة.

إثر بدء ضعف الدولة العثمانية في القرن السابع عشر، كثّف الروس محاولات غزوهم القرم حيث أرادوا توسيع مساحة نفوذهم إلى البحر الأسود. غُزيت شبه جزيرة

القرم للمرة الأولى عام 1736. الحرب الروسية العثمانية التي نشبت بين عامي 1768 و1774 أنهت خانية القرم. اضطر العثمانيون للقبول باستقلال القرم في معاهدة كوتشوك كاينارجا التي وقعت بعد هزيمتهم في الحرب. ولكن القرم لم تستطع حماية استقلالها. استولى عليها الروس عام 1783.

خانية أستراخان

أسس خانية أستراخان قاسم خان من أحفاد محمد خانُ القبيلة الذهبية عام 1466. تأسست خانية أستراخان في مدينة أستراخان وما حولها عند مصب نهر الفولغا في بحر قزوين. كانت أستراخان عاصمة الخانية على طريق تجاري هام. اغتنت بسبب اتصالها مع البلاد الغنية والقبائل البدوية التي تاجرت في المدينة. بدأت السلطة المركزية تضعف إزاء مواجهة الهجمات الأجنبية باستمرار. إضافة إلى ذلك، لعبت حقيقة كون السكان بدو، ووصول المشايخ المحليين إلى السلطة من خلال التدخلات الأجنبية دوراً هاماً في إضعاف السلطة المركزية. على هذا الأساس لم يتحقق الاستقرار، ولذلك لم تبق الخانية فترة طويلة.

في عهد قاسم خان (1466–1490) وأخوه عبد الكريم خان (1490–1504) أُقيمت تحالفات مع القبيلة الذهبية والروس. هذا ما خلق جواً من السلام. عندما تفتت دولة القبيلة الذهبية عام 1502، حاولت خانيتا القرم والنوجاي الاستيلاء على أستراخان. نتيجة ذلك، أنهكت الخانية بالصراع مع تينك الخانيتين الذي استمر حتى عام 1525 إضافة إلى تغير الملوك المتواصل. على الرغم من أن حسين خان وقع اتفاقاً مع خانية القرم عام 1523 بقيت

الخانية معرضة لخطر ضغط الروس الذين أرادوا التوسع شرقاً. دخل ملك القرم شاهين خان إلى أستراخان عام 1549. خرّب المدينة وأسر معظم سكانها مع الملك ياغمورجو. تمكن الملك ياغمورجو من التحرر، والعودة إلى العرش بتدخل العثمانيين.

الصراع بين القرم وقازان وأستراخان خدم مصالح الروس. استغل الروس هذا الوضع، فأزالوا خانية قازان عام 1552. واستولوا عى استرراخان بهجوم مفاجئ عام 1556، وأنهوا هذه الخانية.

خانية قاسم (1445 – 1681)

أسس خانية قاسم عام 1445 قاسم ابن ملك قازان أولوغ محمد. موقع خانية قاسم في مدينة غورودیتس (قاسم) على ضفة نهر أوكا يبقي موسكو تحت السيطرة. ولكن الخانية أصبح تحت إشراف إمارات موسكو في فترة قصيرة، واستخدمت وسيلة لإبقاء الترك تحت السيطرة. بقي إداريو الخانية الذين يحكمون تحت إشراف النفوذ الروسي في مواقعهم حتى عام 1681.

خانية سيبير

كانت خانية سيبير واحدة من الخانات التي ظهرت نتيجة تفكك القبيلة الذهبية. مؤسس الخانية تيبوغا. عاصمتها كانت مدينة سيبير بالقرب مما يعرف اليوم بطومان، وتم تأسيسها على الأرض الممتدة شمال ما يعرف اليوم باسم منغوليا إلى سيبيريا.

بحكم سيبير خان (1563–1598) بدأت تسمى الدولة باسمه. دحر سيبير خان الروس من سيبيريا عام 1584. ولكن القوات الروسية القوية دخلت سيبيريا ثانية بعد

مدة قصيرة. بموت الملك سيبير عام 1598 زالت العقبة الرئيسة التي منعت الروس من الاستيلاء على سيبيريا. غزا الروس كامل سيبيريا عام 1683.

خانية نوجاي

كان نوجاي أحد القادة العسكريين الهامين في دولة القبيلة الذهبية، وخدم هذه القبيلة إضافة إلى أنه تصرف بشكل مستقل جزئياً. بعد تفكك القبيلة الذهبية أسس خانية نوجاي مع القبائل التي كانت تحت نفوذه. كانت عاصمة خانية نوجاي سرايجيك الواقعة عند مصب نهر الأورال في بحر قزوين. كان معظم سكان الخانية مؤلفون من أتراك القبجاق. كانت سلطة الخانية على المنطقة التي تعرف اليوم باسم كازاخستان. انقسمت الخانية إلى عدة فروع بعد انهيارها على يد قازان وأستراخان. بعض هذه الفروع شكلت قبيلة نوجاي العظيمة ورضيت بالحكم الروسي. الذين لم يرضوا بالحكم الروسي استمروا بالعيش في مناطق مختلفة من شمال القوقاز.

في النهاية استولت روسيا على كامل سيبيريا عام 1604. أولاً وسعت سيادتها عبر قرغيزستان على الذين كانوا يعيشون أعلى نهر ينيس، ثم على القرم عام 1783، وشمال القوقاز عام 1859، وطاشكنت (عاصمة أوزباكستان) عام 1865، وخانية بخارا عام 1868، وأخيراً سيطرت على تركمانستان عام 1884، والمدن التركية في مناطق سيبيريا وشمال البحر الأسود وشمال القوقاز وآسيا الوسطى ما عدا الأويغور الشرقية.

الفصل التاسع
الدول التركية في الأناضول وفارس

السلالة التيمورية

أسس السلالة التيمورية تيمور خان الذي كان بالأصل مغولياً ولكنه انخرط جيداً بالثقافة التركية. في النصف الثاني من القرن الرابع عشر كانت هناك فوضى في خانية تشاغطاي التركستانية. اهتز نفوذ الملوك المنحدرين من جنكيز خان، وانتقل الحكم إلى زعماء القبائل. شكل تيمور عضو قبيلة بارولاس سيادة في بلاد ما وراء النهر عام 1370، ووصل إلى السلطة في سمرقند.

كان تيمور خان أحد العسكريين العظماء العباقرة الذين دخلوا التاريخ. أعدّ عدة حملات لتوسيع أراضي دولته. بداية ربط خوارزم بحكمه من خلال الحملات التي رتبها بين عامي 1371 و1379. شن خمس حملات ضد الأويغور حتى سيطر عليهم. دعم طوقطمش في صراعه على السلطة في دولة القبيلة الذهبية، وساعده بالجلوس على العرش. ولكنه بدأ قتال طوقطمش عندما قوي وبدا له خصماً. ضم القبيلة الذهبية إليه بعد هزيمة طوقطمش ثلاث مرات. بعد ذلك مضى إلى أوكرانيا وأخذ مستعمرات البندقية وجنوة في القرم وما حولها. هزم أيضاً مجموعات المسيحيين، ووحد الأمراء السلاف شمال القوقاز واستولى على شمال الهند ودلهي عام 1399.

بعد أن انتصر تيمور في كل الحروب التي خاضها خطط عام 1399 لحملة استمرت سبع سنوات أخضع

فيها ملك جورجيا. هجر قرا يوسف حاكم الخرفان السود العراق بعد دخول تيمور إلى المنطقة. استولى تيمور على سيواس وملطية وبيسني، ثم اتجه إلى سوريا، وسيطر على عينتاب وحلب وحماه ودمشق. وقعت محافظات سوريا ولبنان في يده بعد المماليك.

قوة تيمور المتزايدة جعلته خصماً رئيساً للعثمانيين في المنطقة. بعد أن استولى بيازيد الأول على الإمارة، ثم انتقلت إلى يد تيمور، ولجأ القادة العسكريين الهاربين من تيمور إلى الدولة العثمانية أصبح لا مفر من الحرب بين القوتين. انتهت حرب أنقرة بين القوتين بانتصار تيمور، ولكن نتائج هذا النصر أدت إلى أوضاع سلبية في السنوات التالية من التاريخ التركي. بعد حرب أنقرة احتل تيمور عاصمة العثمانيين بورصة وصادر ثروات دولتهم. أعاد توزيع قادة الأناضول العسكريين على أراضيهم بشرط الإخلاص له. وهكذا أفسدت الوحدة التركية في الأناضول. أجبر البيزنطيين أيضاً على دفع الضرائب. وبالتالي أتبع تيمور دول العثمانيين والمماليك والبيزنطيين وروم طرابزون والقبيلة الذهبية والهند لإمبراطوريته. غيّر قانون جنكيز الذي كان يُطبق لفترة طويلة مع الإسلام في الأراضي التي استولى عليها. بعد ذلك بدأ حملته إلى الشرق. مات تيمور في تلك الحملة عام 1405 أثناء اتجاهه إلى الصين.

قُسمت الإمبراطورية بين أبناء تيمور وأحفاده. فقدت الدولة بنيتها القوية. أصبح ابنه شاه رخ قائد الإمبراطورية الوحيد عام 1420 بعد صراع خمس عشر سنة مع إخوته وأبناء أشقائه. ولكن صراع السلطة هذا بدأ مجدداً بعد موت شاه رخ. انتصر أولوغ بيك في ذلك الصراع وجلس على عرش التيمورية. قبل مجيئه إلى السلطة كان أولوغ

عالم فلك ورياضيات كرس نفسه للبحث في المكتبات والمراصد. كان حكيماً وبالتالي انفصل عن السياسة. قُتل على يد ابنه بتحريض خصومه السياسيين عام 1449. بدأ الصراع على السلطة مجدداً حتى أسقط حكم التيموريون على يد الأوزبك عام 1507 بعد أن ضعفوا بسبب الصراعات الداخلية.

الآق قويونلو (الخرفان البيض)

حكم الخرفان البيض في القرن الخامس عشر شرق الأناضول وأذربيجان والعراق. تعود جذور السلالة الحاكمة إلى قبيلة بايندر الأوغوز. بدأت السلالة بالظهور في التاريخ عام 1340 تحت حكم طور علي بيك. المؤسس الحقيقي للدولة كان قرايولوق عثمان بيك الذي أقام تحالفاً في البداية مع قاضي برهان الدين ضد الخرفان السود، وبعد دحره هجومهم قَتَل قاضي برهان الدين. عقد تحالفاً هذه المرة مع المماليك ضد العثمانيين. كسر تيمور جيشه أثناء دخوله إلى الأناضول. بعد ذلك استقر في الأناضول بمساعدة ودعم تيمور.

هزم حسن بيك قوصون (1453-1478) أحد أبناء عثمان بيك الخرفان السود والتيموريين، وسيطر على جزء من شرق الأناضول وفارس. أصبح خصم العثمانيين في الغرب. دعم القرامانيين ضد العثمانيين. حاول إقامة تحالف مع الصليبيين ضد العثمانيين. بعد تلك المحاولة هزمه السلطان العثماني محمد الثاني شر هزيمة في معركة أوطلوقبيلي. لم تستطع الخرفان البيض النهوض بعد تلك المعركة. مات حسن عام 8741. برز الصراع على السلطة بعد موته، وكانت نتيجته إنهاء الحاكم الصفوي الشاه إسماعيل الخرفان البيض.

القراقويونلو (الخرفان السود)

تم تأسيسها في النصف الثاني من القرن الرابع عشر في إيرجيش على ساحل بحيرة وان على الأرض الممتدة من أرضروم في الشمال إلى الموصل في الجنوب. كان مؤسسها بيرم خوجا زعيم تركمان الخرفان السود. قوي الخرفان السود في المنطقة بانضمام قبائل تركية أخرى إليهم. بدأ الخرفان السود بالسيطرة على كامل بلاد فارس وأذربيجان ما عدا خراسان. بإنهاء سيطرة المغول في المنطقة لعبوا دوراً هاماً في تتريك أذربيجان.

بعد موت بيرم باشا هزم خليفته قرا محمد (1380–1389) الأرتقيين. استولى على تبريز نتيجة الصراع مع التيموريين وأصبحت العاصمة. في عهد قرا يوسف (1389–1420) الذي خلف محمد في السلطة استمر صراع الخرفان السود مع التيموريين. في نهاية هذا الصراع هرب قرا يوسف من تيمور، ولجأ إلى السلطان العثماني بيازيد الأول. وكان هذا أحد الأسباب الرئيسية لحرب أنقرة. أعاد يوسف إنعاش الدولة بعد موت تيمور. أنهى الأرتقيين عام 1409. استولى يوسف على بغداد وأزال تماماً نفوذ تيمور من أذربيجان عام 1415.

مع موت قرا يوسف عام 1420، بدأ صراعٌ داخلي بين أحفاده أضعف الخرفان السود. في غضون ذلك، هزمهم الخرفان البيض مرتين عامي 1457 و1467. اختفى الخرفان السود تماماً من التاريخ عام 1469.

الصفويون

الصفوية دولة تركية تأسست في فارس في بدايات القرن السادس عشر. اسم الدولة أتى من صفي الدين

وسمي رئيس الطريقة الدينية صفوياً. على الرغم من أن الصفوية بدأت طريقة دينية، ولكنها تحولت سلالة سياسية لاحقاً. بقي الصفويون سنّة حتى عام 1392، وتحولوا إلى الشيعية بعد ذلك التاريخ.

انتشرت طريقة صفي الدين في الأناضول وفارس والعراق. حتى السلاطين العثمانيين وتيمور والخرفان البيض أعاروها اهتماماً فترة من الزمن. منح تيمور خان الخوجا علي أحد أحفاد صفي الدين مدينة أردبيل وأعطاه حق التصرف باستقلالية هناك. انفصل الشيخ جنيد الحفيد الآخر للخوجا علي عن طريقة أسلافه متأثراً بالطريقة الباطنية (وهي مقتصرة على فئة معينة من الشيعة المسلمين). تورط بالسياسة اعتماداً على الاهتمام والاحترام الذي يلقاه الصفويين خلال فترة حكم أجداده. بعد تنظيم تمرد ضد الخرفان السود اضطر للهجرة من وطنه، واللجوء إلى العثمانيين وقرامان. ولكنه لم يستطع البقاء في تلك الأماكن لاستمراره بالأسلوب نفسه. حاول تأسيس إمارة في جنوب الأناضول وسوريا بنشر آرائه بين التركمان. ولكن عقبة المماليك واجهته هناك. أقام الخرفان البيض قرابة معه بالزواج للاستفادة من نفوذه. مع ذلك لم يستطع الصفويون أن يجدوا هيكلاً إدارياً مستقلاً حتى جاء إسماعيل إلى السلطة عام 1499.

أصبح إسماعيل قائداً للصفويين عام 1499، وتجمعت حوله القبائل التركية في الأناضول التي كانت تحت نفوذ الصفويين وحكمهم. هزم سلالة الخرفان البيض عام 1501، واستولى على تبريز. أعلن نفسه شاهاً، وأسس الدولة الصفوية، واتخذ تبريز عاصمة لها. احتل بغداد عام 1509، ثم اتجه إلى العثمانيين في الغرب. بغرض هدم

الدولة العثمانية في الداخل أرسل دعاة شيعة بلقب خلفاء إلى الأناضول لإثارة تمرد سياسي وديني ضد الدولة. تأثر كثيراً من يسمون خلفاء حتى إن أحدهم وهو شاه كولو بدأ تمرداً أخمدته الدولة العثمانية بصعوبة.

أدرك سليم الأول الذي وصل إلى السلطة في الدولة العثمانية عام 1512 التهديد الصفوي. لذلك أرسل حملة إلى فارس عام 1514 لإنهاء ذلك التهديد، وألحق بالصفويين هزيمة كبرى في معركة جالديران. دخل العثمانيون إلى تبريز بعد ذلك، واستولوا على شرق الأناضول وأذربيجان ودياربكر. بعد هزيمة الشاه إسماعيل في جالديران لم يُقدم على أي عمل ضد العثمانيين. توفي الشاه إسماعيل عام 1524. في عهد خليفته طاهمسب (1524–1576) عاد الصراع ثانية مع العثمانيين. انتهى الصراع العثماني الصفوي بمعاهدة أماسيا التي وقعت عام 1555.

بدأت الدولة الصفوية بالانهيار في أواسط القرن السابع عشر. حاولت مجموعات مختلفة الانفصال عن السلطة المركزية بتمرد ضد الدولة. استغل نادر شاه هذا الوضع الفوضوي فأنهى السلالة الصفوية عام 1736 وأسس السلالة الأفشارية.

الفصل العاشر

الإمبراطورية العثمانية (1299–1922)

كما هو معروف ينقسم التاريخ العثماني إلى أربعة مراحل: العصر الكلاسيكي (1299–1600) والتوحيد (1600–1744) والضعف (1774–1914) والانحلال (1914–1922).

1. العصر الكلاسيكي (1299–1600)

استمد اصطلاح (عثماني) من اسم مؤسس السلالة عثمان. كانت سلالة عثمان فخذاً لقبيلة كايي من أتراك الأوغوز (التركمان) الذين بدؤوا بالتحرك نحو إيران في القرن التاسع. استقروا في ميرف في منطقة خراسان مع الشعب السلجوقي ومع الكايي الذين اضطروا للهجرة نحو أذربيجان. ونزلوا في شرق الأناضول مع قبائل تركية أخرى. بداية استقرت أقسام من شعب الكايي في منطقة غرب أنقرة في أواسط القرن الثالث عشر. بعد ذلك سكنوا ضواحي سوجوت ودومانيك على الأراضي الحدودية للإمبراطورية البيزنطية التي كان السلطان علاء الدين قد أعطاها للغازي أرطغرل قائد الكايي إقطاعاً عام 1231. تتطابق هذه المنطقة تقريباً مع مقاطعة بيثينا الرومية التي أخذها السلاجقة من البيزنطيين قبل عام. أصبح عثمان بيك القائد باتفاق قبائل الأوغور الأخرى كلها. استقر على حدود بيزنطة عندما مات أرطغرل عام 1281 أو 1288. تزوج عثمان ابنة أديبالي الذي كان رجل دينٍ عظيم. أعطى هذا عثمان القوة لبسط نفوذه عبر المجتمع.

بعد ذلك بفترة قصيرة استولى على المنطقة الممتدة من إسكي شهير حتى حدود بورصة وإزنيق. أقام علاقة ودية مع تكفور البيزنطي (حاكم المدينة في الأناضول وروملي). على الرغم من إعلان عثمان حدود دولته المستقلة عن الدولة السلجوقية الأناضولية عام 1299، فقد اعترف بسلطة الخانات فوقه.



عثمان بك

خلال هذه الفترة هربت عدة قبائل تركية من المغول واتجهت نحو الأناضول التي كانت أكثر أمناً من تركستان الغربية. عندما قلّ خطر المغول في النصف الثاني من القرن الثالث عشر ظهرت عدة قبائل تركية في شمال ووسط الأناضول. ادعت إمارة قرامان التي كانت الأقوى بأنها خليفة السلاجقة. القبائل الأخرى كانت حميد وجرميان وآيدن وقاريسي ومنتشة وصاروخان وجاندار. احتُلت أثناء قتالها فيما بينها لتوسيع حدودها.

كان القتال ضد البيزنطيين، والنأي بالنفس عن صراع العرش في الدولة السلجوقية الأناضولية أولوية العثمانيين المعتدلين. ينبغي الإشارة إلى أن العثمانيين استفادوا كثيراً بقتالهم البيزنطيين بدلاً من قتالهم قبائلهم ذات الأصل الواحد. معظم المحاربين الأتراك الذين هربوا من قسوة المغول في تركستان في نهاية القرن الثالث عشر شاركوا في الحرب العثمانية المقدسة ضد الكفار بحماس كبير. فائدة أخرى للإمارة العثمانية كانت الوضع الضعيف للبيزنطيين مما خلق جواً مناسباً للتوسع العثماني نحو

الغرب. كثير من المسيحيين الذين كانوا تحت الحكم البيزنطي لم يقاوموا الغارات العثمانية، حيث بدوا سعداء بالانتقال إلى حكم سياسي توسعي مع دفع ضرائب خفيفة نسبياً. خلال هذه الفترة كان الحاكم عثمان يتعاون مع سكان المنطقة الأصليين، حتى مع بعض البيزنطيين الكفار. أحد هؤلاء الكفار ميكائيل الذي اعتنق الإسلام لاحقاً.

تخلى العثمانيون عن سياسة تقسيم مناطقهم بين الورثة كما تفعل القبائل البدوية التركية. كانت هذه الممارسة سبب الصراعات الدموية على العرش بين الأشقاء، وانهيار هذه الدول خلال فترة قصيرة. هذا يبدو واحداً من الأسباب الرئيسة لتفسير تمكن إمارة ضعيفة كإمارة العثمانيين من النمو عبر القرن التالي إلى واحدة من أكبر الإمبراطوريات ليس فقط في التاريخ التركي أو الإسلامي بل في التاريخ العالمي.

ظهرت الإمارة العثمانية بداية بعد هزيمة البيزنطيين في معركة بافيوس عام 1302. قبض الحاكم العثماني على بعض الأسرى قرب بورصة بعد سلسلة حملات ضد البيزنطيين مستغلاً وضعهم الرديء ونفوذهم الضعيف. عين ابنه أورخان قائداً للجيش عام 1320. كانت مهمة أورخان الاستيلاء على بورصة وإزنيق. عندما دخل أورخان بورصة عام 1326 كان عثمان على وشك الموت. نقل أورخان العاصمة من بورصة إلى بيلجيك واستمر بتوسيع ممتلكات العثمانيين على حساب البيزنطيين. الأهمية الخاصة لأورخان أنه فتح إزنيق التي خسرها السلاجقة الأناضوليون في الحملة الصليبية الأولى عام 1096. فتح إزنيق عام 1331. بعد سنتين اضطر الإمبراطور

البيزنطي للقبول بدفع جزية المناطق التي تحت يده. بدأت الإمارة العثمانية بالتحول إلى دولة (بمعزل عن إنجازاتها) منذ أن تلاشت سلطة الخانات.

خسرت بيزنطة آخر مكان لها في الأناضول بفتح العثمانيين إزميت عام 1337. وضع أورخان حداً لإمارة كاريسي الواقعة في منطقة الدردنيل ومرمرة عام 1345. هذا مكّن العثمانيين من إقامة وجود دائم لهم على الطرف الأوروبي من الدردنيل. وبالتالي اكتسب سليمان باشا ابن أورخان غازي التحكم بشبه جزيرة غاليبولي عام 1354. بعد موت سليمان باشا عام 1357 خلفه مراد ابن أورخان. سيطر مراد على أدرنة عام 1361، وأكمل فتح كامل تراكيا الشرقية. على الرغم من توسيع العثمانيين حدودهم إلى البلقان نهجوا سياسة استقرار بيّنت أنهم لن يكونوا غزاة وناهبين. لم يسيطروا على البلقان بالقوة فقط، بل بتطبيق نظام المصالحة والسلام الدبلوماسي الذي ضمن العثمانيون فيه حماية حياة غير المسلمين وأملاكهم وحرية ممارسة طقوسهم الدينية. ضمنت هذه السياسة ولاء السكان الأصليين الذين كانوا تحت ضغط ديني وسياسي حاد من السلطات الإقطاعية السابقة.

كجزء من سياسة الاستقرار نزل اليورك والتركمان في مناطق البلقان المحتلة، وأنشأوا قرى ومزارع مع عدم وجود مراعي. أكملت هذه الهجرة عملية تتريك مناطق شرق وغرب تراكيا ومقدونيا ودوبروزا وغابة ديلي.

السلطان مراد الأول

دخل العثمانيون مجال السياسة الدقيقة في عهد مراد الأول (1359–1389). تحولت الإمارة العثمانية إلى دولة

بتوسيع الحدود في عهد مراد الأول حيث استمر الأتراك بالتقدم في البلقان. هذا ما فرض تنظيم مؤسسات الدولة للحفاظ على المناطق العثمانية التي وُسعت. لم يُلقب أول حاكمين عثمانيين عثمان وأورخان بأكبر من لقب بيك أو غازي. كان هذا بسبب استمرارهما بالاعتماد على الخانات أولاً (على الرغم من شكلية هذه التبعية)، وعدم قدرتهما على تأسيس دولة بعد ثانياً. كان مراد أول حاكم عثماني أخذ اللقب الملكي هنكار وسلطان.

طور العثمانيون قوة الضباط الفرسان باستخدام التيمار. التيمار شكل من أشكال حيازة الأراضي التي يمنح السلطان العثماني واردها لفرد كتعويض عن خدماته وخاصة العسكرية منها. كان التيمار ضرورياً لأن توسع الدولة لم يعد يحتمل الاعتماد على القواعد التطوعية. أسس مراد الأول مجموعة أخرى من الجيش كانت كتائب مشاة سميت الإنكشارية. جُند الإنكشاريون من صبيان العثمانيين غير المسلمين باستمرار بمعزل عن ثروات الحروب. وهكذا أنشئت نخبة عبيد أصبحت قيمتهم واضحة في الدولة العثمانية. لعب الإنكشاريون دوراً أساسياً بإعادة توحيد الدولة العثمانية عام 1413، وبقائها. هذا لأن هويتهم ومكانتهم اعتمدت على قوة أسيادهم العثمانيين. أقرت بعض التنظيمات الإدارية (غير العسكرية) في الدولة، مثل تعيين اثنين من سادة السادة (القائد العام) واحد في الأناضول والآخر في روملي (القسم الأوروبي للدولة العثمانية).

عندما أسر مراد الأول فليب، حرّض البابا أوربانوس الخامس على حملة صليبية لإيقاف التقدم العثماني في البلقان. مازالت روح الحملات الصليبية حية على

الرغم من ضعفها. اتفقت دول جنوب غرب أوروبا التي ستُفرض عليها مواجهة العثمانيين بعد فترة على حرب صليبية. هزمت القوات التركية الحملات الصليبية في بلغاريا وصربيا وهنغاريا وأفلاق والبوسنة وتشيرنومين أولاً، ثم في كوسوفو عام 1389 ثانياً. اغتال القومي الصربي ميلوش أوبيليتش السلطان مراد الأول. لم تترك حرب كوسوفو أية قوة قادرة على منافسة العثمانيين جنوب نهر الدانوب غير هنغاريا. عندما توفي السلطان مراد الأول كانت الأراضي العثمانية تغطي مساحة خمسمائة ألف كيلومتر مربع. وبالتالي فإن العثمانيين الذين تحولوا من إمارة إلى دولة مع مؤسساتهم الجديدة كانوا يستعدون ليصبحوا إمبراطورية.

جهود فاشلة في بناء الإمبراطورية



محمد الثاني

مرة أخرى تمردت الإمارات التركية التي كانت تحت السيادة العثمانية في الأناضول عندما سمعت أن السلطان مراد الأول قد توفي. سيطر السلطان بيازيد الأول (1389–1402) ابن مراد المُلقب يلضدرم (الصاعقة) على إمارات صاروخان وآيدن وجاندار ومينتيشي جيرميان في الأناضول عام 1392. استمر بيازيد الأول بسياسة مراد الأول بالتوسع في البلقان. دخل بيازيد الأول أفلاق عام 1391، واستولى على سالونيك وحاصر اسطنبول عام 1391 بهدف توحيد أرضه بوضع حد للإمبراطورية البيزنطية. تحركت حملة صليبية أخرى

بقيادة الملك الهنغاري سيغيسموند باتجاه نيبولو من أجل طرد الترك من البلقان وإنقاذ اسطنبول. في نهاية عام 1396 هزم العثمانيون الحملة الصليبية مرة أخرى في نيبولو. وبالتالي أصبح من الواضح عدم بقاء أي قوة في أوروبا لم تأت وتساعد بيزنطة. هذا الإنجاز أكسب بيازيد شهرة في العالم الإسلامي.

للقضاء على أي تهديد يُوجه ضده، التفت بيازيد الأول إلى إمارة قرامان مع ثقته بنفسه التي اكتسبها في نيبولو وذلك لتعزيز وحدة الأتراك. لفعل ذلك استولى على قرامان أولاً عام 1398، ثم وسع حدوده الشرقية إلى الفرات الأوسط باستيلائه على ملطية وإلبستان حيث يتمركز المماليك. من خلال الاستيلاء على إمارات وسط الأناضول التركية كلها وأجزاء من غرب الأناضول جعل بيازيد سلطته مركزية، ووضع حداً لنظام الإقطاع. وبالتالي استخدم لقب سلطان الروم الذي كان لقب السلاجقة. هذا يعني ادعاءه أنه خليفة السلاجقة.

كانت إنجازات بيازيد على أية حال قصيرة الأجل حيث اعتدى تيمور على العثمانيين عام 1402. أسس تيمور إمبراطورية قوية في تركستان وتوسع نحو الغرب. ادعى أنه وريث السلاجقة والخانات. اعتبر تيمور العثمانيين إمارة حدودية تابعة له. ربما اعتبر عهد تيمور-الذي لم يُهزم- مصيبة بالنسبة إلى بيازيد على الرغم من أنه حكم دولة تغطي مليون كيلومتر مربع وحقق انتصارات عظيمة ضد الصليبيين. عندما أصبح الحاكمان المتكبران جارين، بدا أن هناك صراعاً لا مفر منه يلوح بالأفق حيث أن الطرفين يملكان ثقة عظيمة بالنفس. انفجر الصراع الخامد عندما لجأ أحمد حاكم

جلايري وقرا يوسف حاكم الخرفان السود إلى بيازيد. استغل تيمور الفرصة التي قدمت له باستفزاز بعض الحكام الذين فروا إليه.

الكبوة (1402–1413)

هزم تيمورُ بيازيدَ وقبض عليه مع ابنيه موسى ومصطفى في أنقرة عام 1402. حاول تيمور استعادة الإمارات الأخرى، مما يعني أن حدود الأناضول عادت إلى ما كانت عليه في عهد مراد الأول. وصلت الدولة العثمانية التي توجب عليها أن تدرس تفوق تيمور إلى شفا الانهيار بتلك الهزيمة، وخسرت مطلبها بأن تصبح قوة عظيمة. لم يستطع السلطان بيازيد تحمل السجن على الرغم من معاملة تيمور له معامله جيدة. عندما غادر تيمور الأناضول، قُسّم نفوذ العثمانيين بين أولاد بيازيد الثلاثة، سليمان سيطر على أدرنة ومحمد أخذ أماصيا وعيسى أخذ بورصة.

بحسب نظام الخلاقة التركي (المؤرّخ من الفترة القديمة في آسيا الوسطى)، يطمح أعضاء الأسرة الحاكمة كلهم بالعرش. تُقسم الدول التركية بين أفراد العائلة الحاكمة. ولكن العثمانيين تركوا هذه العادة في أول تاريخهم. رفض العثمانيون أيضاً القبول بالشراكة في الحكم من أجل تجنب صراعات الخلافة وتجزئة الأراضي. كان الحاكم العثماني يعين الشيخ زادة (الأمير) حاكماً محلياً لإعداده حاكماً جديداً للإمبراطورية. قونن هذا الأجراء محمد الثاني، ولكنه كان يمارس منذ عهد مراد الأول. كانت هذه التغييرات الإدارية من أسباب نشوب الحرب الأهلية التي استمرت أحد عشر عاماً (1402–1413) والتي سميت الكبوة. في النهاية وحّد

محمد الأول الدولة العثمانية واستلم العرش العثماني عام 1413. على الرغم من ضعف السيادة العثمانية خلال الكبوة فإن الكثير من شعب البلقان بقي مخلصاً للعثمانيين. بعد قضاء محمد الأول على أخوته تجنّب استفزاز البيزنطين والصليبيين بهدف إعادة الاستيلاء على منطقة الأناضول التي خسرها في حرب أنقرة. لذلك أعاد توحيد أجزاء من المناطق الخاصة بالإمارة وقلّل من تأثير قرامان في الأناضول، ثم قمع تمرّدي الشيخ بدر الدين وأخيه مصطفى جلبي. عندما توفي محمد الأول عام 1421، ورث مراد الثاني إعادة تنظيم الدولة التي استعادت قوتها بعد سنة من الفوضى.

محاولة جديدة لإعادة بناء إمبراطورية

صارع السلطان مراد الثاني تمردي عمه مصطفى جلبي وابنه الأصغر مصطفى. أحبط هذين التمردين بصعوبة كبرى. بعد ذلك حاصر اسطنبول أثناء معاناة الإمبراطورية البيزنطية من صراع داخلي على السلطة. كان هدفه التالي تعزيز الحكم العثماني في البلقان حيث أُضعِف هناك. استولى على سالونيك عام 1430، وأزيل النفوذ الهنغاري عن صربيا وأفلاق. فشلُ حصار العثمانيين لبلغراد (المدينة الهامة استراتيجياً) عام 1440 شجع الهنغار على مهاجمة العثمانيين. حققت هنغاريا بعض الانتصارات الهامة مما جعل مراد الثاني يتّبع سياسية خارجية تصالحية. وقع اتفاقية مع هنغاريا تعهد فيها العثمانيون عدم عبور نهر الدانوب. الآن، وبعد إزالة المخاطر كلها عن الدولة ترك مراد الثاني العرش لابنه محمد. رأى البيزنطيون والهنغار ذلك فرصة كبيرة لتجهيز حملة صليبية من أجل إزالة الخطر التركي. أدركوا بعد

فترة قصيرة أنهم مخطئون حيث هَزَم الجيش العثماني بقيادة مراد الثاني (الذي عاد إلى الحكم عندما أصبح الخطر داهماً) الحملات الصليبية في فارنا عام 1444. حاول جون هونياد مرة أخرى ولكنه فشل أيضاً عام 1448. عززت هذه الانتصارات نفوذ العثمانيين جنوب نهر الدانوب. وفَقَدَ الصليبيون أملهم في إنقاذ اسطنبول من الأتراك.

في عهد مراد الثاني غدت العاصمة أدرنة مركزاً ثقافياً وعلمياً. انتقلت نشاطات الإمارات الأناضولية العلمية والثقافية إلى هناك. عندما توفي عام 1451، ورث محمد الثاني دولة قوية من والده، حيث حُيّد الصليبيون وأزيلت آثار غزو تيمور الضارة للحدود العثمانية. الآن عادت كما كانت قبل حرب أنقرة.

السلطان محمد الثاني: بناء إمبراطورية عالمية

عند جلوس محمد الثاني على العرش لم يكن هناك أي تهديد جدّي لوحدة العثمانيين. ولكن بوضع التجربة السابقة في الحسبان اعتبر محمد الثاني البيزنطيين تهديداً خطيراً على وحدة العثمانيين. على الرغم من أن بيزنطة كانت تحت الحصار العثماني مدة طويلة، فقد حرّض الأباطرة البيزنطيون الصراع على الخلافة بين أعضاء سلالة عثمان الحاكمة، وطلبوا مساعدة الصليبيين. كان هدف محمد الثاني الرئيس بناء إدارة مركزية لا تبقي أية قوة يمكن أن تهدد وحدة الإمبراطورية العثمانية. رأى بيزنطة عقبة رئيسة لهدفه. ينبغي تذكر أن الأهمية الرمزية والإستراتيجية الكبرى وحدها لم تكن سبب معظم الفتوحات التركية والإسلامية التي هدفت أخذ قسطنطينية، بل حديث النبي محمد الذي قدّس هدف فتح المدينة.

هدف السلطان محمد الثاني كان مركزة الدولة العثمانية بإزالة تأثير أية سلالات حاكمة في الأناضول وأية عائلات قوية مثل جاندارلي التي عُيّن أعضاؤها وزراء نبلاء في عهد مراد الأول. طمح محمد الثاني أيضاً لإزالة الأمراء الذين يمكن أن يهددوا قوة السلالة العثمانية ووجودها.

أثناء الاستعداد لفتح قسطنطينية عام 1452-1453، حاول الوزير خليل باشا جاندارلي أن ينصح السلطان محمد الثاني بالعدول عن حصار المدينة. حذر خليل باشا جاندارلي من أن أي عمل ضد البيزنطيين يمكن أن يستفز الصليبيين أكثر. لم يستطع إقناع السلطان محمد الثاني. بنى محمد الثاني حصنَ روملي على طرف البوسفور الأوروبي لمنع القوات البحرية البندقية من مساعدة البيزنطيين، وكان لديه صانع مدافع مجري يدعى أوربان جهز مدافعَ لهدم أسوار بيزنطية. فُتحت قسطنطينية وهي اسطنبول الآن (ولكن العثمانيين استمروا باستخدام الاسم السابق مدة طويلة) أخيراً في 1453/5/29. مُنح السلطان محمد لقب الفاتح. أصبح العثمانيون الآن قوة عالمية.

بعد فتح اسطنبول تمكن السلاطين العثمانيون من الإدعاء بأنهم ورثة الإمبراطورية الرومانية. اعتبر البابا بيوس الثاني هذا الادعاء ميل الفاتح إلى المسيحية، فكتب إليه أنه سيعمل كل ما بوسعه لجعله بطركاً. رفض الفاتح هذه الدعوة لاعتناق المسيحية حيث لم يكن هدفه تمديد قوته نحو الغرب فقط، بل بناء إمبراطورية تمتد إلى جميع أنحاء العالم أو نظام عالمي جديد يستند على السعادة البشرية حيث تعرف من التقاليد التركية والتعاليم الإسلامية. شارك السلاطين السابقين واللاحقين الفاتح هذا الهدف الجوهري.

وحّد فتح اسطنبول الأراضي العثمانية وعزز موقف إمبراطوريتهم كقوة بارزة في جنوب شرق أوروبا وشرق البحر المتوسط وكامل البحر الأسود. نُقلت عاصمة الإمبراطورية من أدرنة إلى إسطنبول بعد فترة قصيرة من فتحها. والجدير بالملاحظة أن الحفاظ على العاصمة العالمية التي كانت على وشك الانهيار من نتائج فتح اسطنبول. حافظت المدينة على كونها مركز الكنيسة الأرثوذوكسية اليونانية ومنها أعلن محمد الثاني نفسه حاميها. أعلن محمد الثاني نفسه خليفة مباشراً للأباطرة البيزنطيين. أزال أي سلالة يمكن أن تطالب بالعرش البيزنطي مثل ديفيد كومنينوس في طرابزون وديميتروس وتوماس في شبه جزيرة موريا. كان ديمتروس وتوماس أشقاء آخر إمبراطور بيزنطي. استولى الفاتح على موريا ووضع حداً لحكم ديميتروس وتوماس عام 1460. استولى على طرابزون عام 1461. أثار هذا حرباً استمرت ستة عشر عاماً بين العثمانيين والبندقية. طالت هذه الحرب بسبب ضعف الأسطول البحري العثماني. خلال هذه الفترة تحالفت البندقية مع الخرفان البيض بدلاً من التحالف من هنغاريا وألبانيا. أرسل محمد الثاني الذي طُوقت إمبراطوريته من الشرق والغرب حملتين ضد ألبانيا عامي 1466 و1467. تحالف حاكم الخرفان البيض حسن قوصون مع إمارة قرامان وفرسان رودس وقبرص. طمح في التوسع نحو الأناضول. استولى محمد الثاني على قرامان عام 1468، ثم قهر حسن وهزمه في معركة أوطلوكبيلي عام 1473. وهكذا حُيّد أكبر تهديد في الشرق والغرب.

أحد أهم انجازات محمد الثاني هو إعادة السيطرة العثمانية على الدول التركية الأخرى في الأناضول،

وإزالة أي تهديد يمكن أن يأتي من الشرق. كما أنه ضم الأراضي على ساحل البحر الأسود إليه وسيطر على خانية القرم. وهكذا أصبح البحر الأسود بحيرة تركية. بعد خسارة البندقية أحد أهم حلفائها اضطرت لتوقيع معاهدة مع العثمانيين، وفيها تخلت عن شقودرا، وجزيرتي ليمنوس وإيفيا، ووافقت على دفع الجزية. كانت حملة محمد الثاني الأخيرة على إيطاليا. تمنى أن يفتح روما عاصمة الإمبراطورية الرومانية الغربية حيث رأى نفسه الوريث الحقيقي لكامل إمبراطورية الروم. تم الاستيلاء على أوترينتو عام 1480، ولكن فتح إيطاليا لم يتحقق بسبب وفاة السلطان عام 1481.

كان هدف محمد الثاني الكبير تشكيل إمبراطورية مركزية. فعل ذلك من خلال القضاء على أي سلالة يمكن أن تطالب بحقها في العرش وأي نفوذ ارستقراطي أو طبقات ثرية يمكن أن تصبح قوة بديلة. إعدام الوزير الكبير خليل باشا يمكن أن يعتبر جزءاً من هذه السياسة. جعل بعض الأراضي الخاصة أملاكاً عامة بهدف الحد من قوة الارستقراطيين وتطوير الظروف الاقتصادية للإمبراطورية.

تعزيز الإمبراطورية في ظل حرب الخلافة

أصبح قتل السلطان أخوته وأولادهم الأمراء عندما يصعد إلى العرش شرعاً. وعُمِلَ بهذا من أجل تجنب التمرد والتنافس على العرش. كان القصد من هذه السياسة تسهيل الإدراك العثماني للنظام العالمي الجديد. عندما مات محمد الثاني كان له ولدان جم وبيازيد، كافحا من أجل العرش. معظم رجال الدولة دعموا بيازيد. آخرون مثل الوزير الكبير محمد باشا قراماني دعم جم. في

النهاية خلف بيازيد الثاني والده. ولكن رجال الدولة العثمانية انقسموا إلى زمرتين. قتلت الإنكشارية محمد باشا قراماني لأنه دعم جَم الذي أعلن نفسه سلطاناً في بورصة. اقترح جم على أخيه تقسيم الإمبراطورية إلى قسمين واحد في الأناضول والآخر في روملي. رُفضت هذه الفكرة بشكل قاطع. أصبح لا مفر من الحرب بين جيشي الأخوين. هُزم جيش جم في معركة يني شهير بلان في 1481/6/20. بعد ذلك هرب إلى قونية ولاحقاً إلى مصر. عاد جم إلى الأناضول، وأصبح يُنادى باسم محمد بيك قرامان أوغلو، ولكن بيازيد الثاني هزمه مجدداً. لجأ هذه المرة إلى فرسان رودس. من رودس ذهب إلى روملي ليبدأ حرباً انفصالية. انتهى المطاف بجم أسيراً للدول الأوروبية بما فيها البابوية التي استخدمت جم لابتزاز العثمانيين. دفع بيازيد الثاني الكفالة لآسري أخيه.

بعد أن لجأ جم إلى فرسان رودس، أَعدم السلطان أحمد باشا غديك. لعب أحمد باشا غديك دوراً أساسياً في إعادة بسط النفوذ العثماني في الأناضول. بعد ذلك نفي الوزير الكبير إسحاق باشا. بالتالي استولى بيازيد الثاني على السلطة بإزالة الشخصين البارزين اللذين ساعداه في حربه ضد جم. بعد ذلك، اضطر السلطان لإتباع سياسة أكثر تصالحية في الشؤون الداخلية والخارجية بسبب ثورة جم. حاول إرضاء أولئك الذين صادر السلطان محمد الثاني أراضيهم بإعادة ممتلكاتهم إليهم. فيما يتعلق بالبندقية وهنغاريا، أراد العثمانيون تجنب استفزازهما بحملة صليبية حيث كان جم لا يزال أسيرهما.

لكن العلاقات الإقليمية مع خانية القرم (التي أخضعها محمد الثاني) تشكلت من خلال الاستيلاء على أق



سليمان القانوني

كرمان وكيلي بغدان (ذات الأهمية إستراتيجية لتجارة البحر الأسود). بعد موت جم عام 5941 استولى على إينيباهتي ومودون وكوروني بعد سلسلة حروب مع البندقية بين عامي 1499 و3051. وهكذا أصبح العثمانيون أعظم قوة بحرية في البحر المتوسط. كان كمال ريز أحد القادة العثمانيين العظماء. أنقذ كمال ريز آلاف المسلمين واليهود الذين اضطُهدوا في إسبانيا. بتعليمات من بيازيد الثاني فقد نقل كمال ريز عدداً هائلاً من المسلمين الإسبان إلى شمال أفريقيا وإلى مناطق النفوذ العثماني. لم يفتح العثمانيون أبوابهم للمسلمين فقط بل لليهود أيضاً. أحضر العثمانيون اليهود للعيش على الأرض العثمانية.

اضطر العثمانيون للتعامل مع خطرين في عهد بيازيد الثاني: واحد من دولة المماليك الإسلامية والآخر من الدولة الصفوية. في حين أن طبيعة الصراع مع المماليك كان مرتكزاً بشكل كبير علي النفوذ السياسي فإن الصراع مع الصفويين تضمن بُعداً أيديولوجياً وطائفياً. اعتبر العثمانيون أنفسهم قادة العالم الإسلامي منذ عهد السلطان محمد الثاني، لذلك شعروا أنهم جاهزون للعب دور أكبر في هذه القضية. تدخل المماليك في شؤون بني ذولقادر (المنطقة العازلة في نطاق مرعش إلبستان). بدأ العثمانيون حملة ضد المماليك استمرت من عام 1485 إلى عام 1491. لا أحد من الطرفين استطاع أن يدّعي النصر. تطورت العلاقة بين البلدين لاحقاً حيث استغاث المماليك بالعثمانيين لمساعدتهم ضد الأسطول البرتغالي

الذي بدأ بالسيطرة على المحيط الهندي والبحر الأحمر من أجل السيطرة على طريق تجارة التوابل الآسيوي. انضم الأسطول والقوات العسكرية العثمانية إلى جيش المماليك في صراعهم ضد الدخلاء.

السيادة العثمانية في العالم الإسلامي

كان الخطر الصفوي مختلفاً في الميزات عن خطر المماليك. نشوء الصفوية في إيران مع الشاه إسماعيل خلق دولة معادية للعثمانيين من الناحيتين الأيديولوجية (العقائدية) والعسكرية. كان التشيّع باعتباره شكلاً من أشكال الإسلام الذي دعمه الصفويون جاذباً لانشقاق قوات داخل الدولة العثمانية التي احتشدت لدعم السلالة الجديدة في إيران بتحريض الشاه إسماعيل. بدأت تزداد سلسلة الانتفاضات المحرضة شيعياً بين القبائل التركمانية في شرق الأناضول في آخر سنوات حكم بيازيد الثاني بفضل الدعاية الصفوية. لم يكن دعم التركمان للصفويين تعصباً دينياً فقط، بل سياسياً أيضاً حيث أنهم لم يكونوا مسرورين من النظام الضريبي الذي فرضه العثمانيون. استخدم الشاه إسماعيل هذه العناصر المستاءة لإجهاد العثمانيين. وبناء على ذلك اندلعت انتفاضة شاه قولي في شرق الأناضول عام 1511. حقيقة أنها قُمعت بصعوبة كبيرة أثارت انتقاد السلطان سليم الذي كان في طرابزون حاكماً محلياً وله نظرة دقيقة لنشاطات إسماعيل. اعتقد سليم أن الاحتياطات التي تم اتخاذها ضد الشاه إسماعيل مُرضية إلى حد بعيد وأنه أصبح هناك حاجة لاتخاذ موقف حاد.

أثناء ذلك اندلع صراع الخلافة بين أولاد السلطان حيث شاخ بيازيد. جلس سليم الذي كان يحظى بدعم الإنكشارية

على العرش عام 1512 مطيحاً بوالده، على الرغم من حقيقة أن العديد من رجال الدولة دعموا الأمير أحمد. بعد أن عزز سليم الأول (الملقب بالجبار) حكمه في اسطنبول بدأ التفاوض مع الدول الأوروبية من أجل السلام. سعى إلى السلام مع الأوروبيين لأن أولى أولوياته كانت التعامل مع الشاه إسماعيل، ثم المماليك. خلال فترة حكم سليم تغير اتجاه الفتوحات العثمانية من الغرب إلى الشرق. هزم سليم الأول الصفويين في معركة جالديران عام 1514. هرب الشاه إسماعيل من ساحة المعركة. تقدم السلطان سليم الأول (الذي كان هدفه تحطيم الدولة الصفوية) إلى ما بعد تبريز، ولكنه اضطر للتراجع بسبب بعض الاضطرابات داخل جيشه. أصبح شرق الأناضول محمياً لفترة، وأزيل خطر الانفصال الديني. استولى العثمانيون أيضاً على أهم مراكز تجارية على طريق الحرير هي تبريز حلب وتبريز بورصة وقدمت تلك أرباحاً هائلة للخزينة العثمانية.

استيلاء سليم الأول على بني ذولقادر عام 1515 جرّ العثمانيين إلى احتكاك مباشر مع إمبراطورية المماليك للمرة الأولى. خلال هذه الفترة منع البرتغاليون التجارة العربية الإسلامية في المحيط الهندي وهددوا المدن الإسلامية المقدسة مكة والمدينة. أراد حكام هذه المدن إرسال مبعوث إلى سليم الأول لطلب المساعدة ضد البرتغاليين، ولكن سلطان المماليك لم يسمح بذلك. كان سليم الأول حريصاً على السيطرة على أراضي المماليك من أجل تأمين الطريق التجارية الشرقية التي تغيّرت على حساب العثمانيين بعد سيطرة البرتغال على المحيط الهندي والبحر الأحمر.

حطّم سليم الأول المماليك سياسياً وعسكرياً بفتح حلب ودمشق عام 1516 وأخذ القاهرة عام 1517. بالإضافة

إلى السيطرة على سوريا ودمشق فإن هذه الحملة ضمت إلى الإمبراطورية المواقع المقدسة مثل الحجاز أيضاً. أعلن شريف مكة طاعته للعثمانيين، وسلّم الودائع المقدسة التي تضم كل ما يخص النبي محمد. هذا جعل سليم الثاني قائداً له سمعة حسنة في العالم الإسلامي. كان الخليفة العباسي في بغداد تحت حماية المماليك في القاهرة بعد أن هزموا المغول عام 1258. في الحقيقة أن العثمانيين استخدموا لقب خليفة منذ مراد الأول بفضل إيمانهم بأن عليهم إتّباع مثال الخليفة في حماية طرق الحج والمدن المقدسة وتوسيع حماية الإسلام.

أحد أهداف سليم الجبار الرئيسة كان السيطرة على الهند من أجل إزالة الأسطول البرتغالي من المنطقة. هدد البرتغاليون أرض الإسلام المقدسة وكذلك طرق التجارة التقليدية للعثمانيين. ولكن الحملة المصرية أظهرت حاجة تقوية الأسطول العثماني. بعدئذ، وإثر العودة من الحملة المصرية، تأسس حوض بناء السفن في القرن الذهبي.

عند وفاة سليم الأول عام 1520 امتدت الإمبراطورية العثمانية من البحر الأحمر إلى القرم ومن تبريز إلى البوسنة، وأصبحت أبرز المشاركين والمنافسين في سياسات القوى الدولية اليومية. علاوة على ذلك بدأت الهجرة الإسلامية التركية الحقيقية إلى البلقان بإحداث تغيرات دائمة في الهيكل العرقي والديموغرافي للمنطقة.

عصر الإمبراطورية العثمانية الذهبي (1520–1566)

جلس سليمان الأول على العرش دون أي منافس، وبدأ بحكم الإمبراطورية. كان أكثرَ سلطانٍ خدم الإمبراطورية لفترة طويلة بحكم دام بين عامي 1520-1566. عُرف في الغرب بسليمان المدهش ولدى

الأتراك بالقانوني كتقدير لإتمام إعادة بناء النظام القانوني العثماني. كان يُعرف بأنه حاكم عادل ومعارض للفساد في الإمبراطورية العثمانية. وكان أحد الحكام البارزين في القرن السادس عشر في أوروبا ومنافساً محترماً للإمبراطور الجرماني المقدس كارلوس (1519–1556) وفرانسيس الأول (1515–1547) وهنري الثامن في انكلترا (1509–1547) وسيغيسموند في بولندا (1548–1572) وإيفان في روسيا (1530–1584). وصلت الإمبراطورية العثمانية تحت قيادته إلى عصرها الذهبي وأصبحت قوة عالمية.

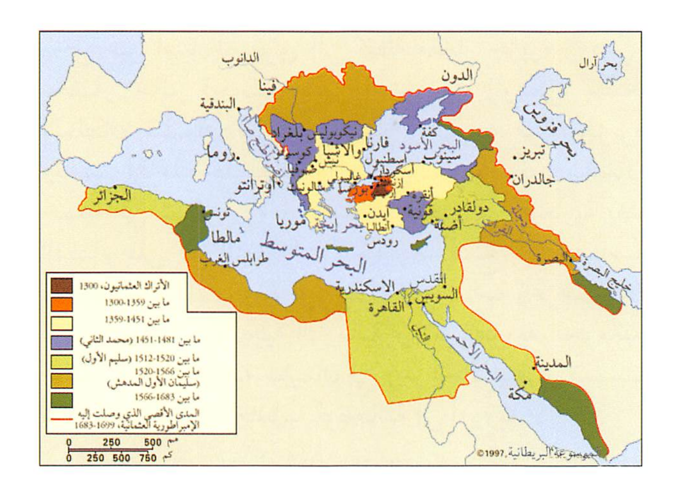
بعد خلافة سليمان الأول لوالده اضطر للتعامل مع ثورة قادها حاكم دمشق المنافس للعثمانيين، والذي كان متأثراً بالشاه إسماعيل. بعد تأمين حدود العثمانيين الشرقية حوّل سليمان المهيب اهتمامه إلى الغرب من أجل إزالة عائقين في وجه التوسع العثماني وهما هنغاريا ورودس. كانت أولوية سليمان هي فتح بلغراد التي حاصرها محمد الثاني مرتين دون جدوى. كان فتح بلغراد مؤثراً في القضاء على الهنغار داخل أوروبا. سقطت بلغراد في آب 1521 بعد سلسلة عمليات قصف هائلة من جزيرة الدانوب. أصبحت بلغراد الآن واحدة من القواعد البارزة لمزيد من حملات الجيش العثماني في أوروبا.

الفتوحات في أوروبا

في هذه النقطة اضطر سليمان المدهش لتحويل اهتمامه إلى جزيرة رودس. دعم فرسان رودس السوريين والمصريين المعارضين للعثمانيين. أرسل السلطان سليم أسطولاً حربياً من أربعمائة سفينة إلى رودس في صيف 1522. ورث العديد من تلك السفن من أسطول أبيه. في الوقت نفسه قاد السلطان سليم شخصياً جيشاً من مئة ألف

رجل عبر آسيا الصغرى إلى نقطة مقابل جزيرة رودس. بحصار خانق لخمسة أشهر استسلمت رودس. سمح السلطان سليمان لفرسان رودس بالهرب من الجزيرة وتأسيس قاعدة جديدة في مالطا. وبالتالي استأنف سليمان حملته في شرق أوروبا، وبشكل خاص في هنغارية بعد القضاء على كل التهديدات الخطيرة. أصبح لاعباً أساسياً في السياسات الأوروبية من خلال نهج سياسة زعزعت كلاً من الكنيسة الكاثوليكية الرومانية والإمبراطورية الجرمانية المقدسة. إستراتيجية سليمان في زعزعة الاستقرار ضمنت بقاء الإمبراطورية العثمانية قوة هائلة في أوروبا.

لم يكن الهدف من الحملة الهنغارية توسيع أراضي العثمانيين فقط، بل إيجاد احتكاك بين الدولة الهنغارية والدول الأوروبية الأخرى. أثناء تجهيز سليمان للحملة الهنغارية، حرض فرانسيس الأول حاكم فرنسا (الذي هزمه الإمبراطور الجرماني المقدس كاروس الخامس في بافيا) العثمانيين للهجوم على هابسبورغ. خلق هذا فرصة مناسبة للتدخل بالسياسات الأوروبية. في 1526/8/29 هزم سليمان لويس الثاني حاكم هنغاريا في معركة موهاج ومات. في معركة موهاج انهارت المقاومة الهنغارية والسلطة المركزية ودخل سليمان بعد ذلك بودين. عُين جو زابوليا وليُ العهد الذي يدعمه معارضو هابسبورغ. اقترح بعض النبلاء الهنغار آرشيدوق النمسا فرديناند ملكاً على هنغاريا معارضين سليمان. كان فرديناند مرتبطاً بعائلة لويس الثاني من خلال الزواج. استشهد النبلاء الهنغاريون المناهضون لسليمان باتفاقيات سابقة تنص على أن العرش الهنغاري يؤول إلى الهابسبورغيون إذا مات لويس الثاني دون وارث. تلا ذلك صراع ثلاثة أطراف حيث تحرك فرديناند لتأكيد حكمه على معظم



المملكة الهنغارية وبالتالي ظهر ملكان في هنغاريا، فرديناند في شمال غرب هنغاريا وزابوليا وسط هنغاريا وترانسلفانيا. كانت هذه بداية حرب مستمرة بين العثمانيين وهابسبورغ.

بعد ثلاث سنوات شنّ سليمان الأول حملة ضد هنغاريا لتأكيد صدارة زابوليا. لم يجرؤ فرديناند على قتال القوات العثمانية التي احتلت بودين ثانية عام 1528 وحاصرت فيينا دون جدوى في الخريف التالي. استأنف سليمان الأول حملته ضد فرديناند عام 1531 بسبب غزوه بودين ثانية. كان هدفه هذه المرة خوض معركة ضارية ضد فرديناند وحليفه الإمبراطور كارلوس الخامس. تقدم العثمانيون في أرض النمسا، ولكن فرديناند امتنع عن خوض معركة ضارية مع العثمانيين. بعد ذلك توجب على سليمان العودة إلى الأناضول لقتال الصفويين. وقّع فرديناند اتفاقية مع سليمان قبل بموجبها بحكم زابوليا ودفع الجزية عن الأراضي الهنغارية التي كانت بحوزته. مسألة اختيار خليفة للعرش

الهنغاري ظهرت ثانية عند وفاة زابوليا. أدى هذا إلى تقسيم ثلاثي للمملكة: استولى سيد سادة بودين على معظم الأراضي التي تسمى اليوم هنغاريا. وثبت ابن زابوليا حاكماً على دولة ترانسلفانيا المستقلة التي كانت تابعة للإمبراطورية العثمانية. زعم فرديناند أنه الملك الهنغاري في الشمال والشمال الغربي لإصلاح الحدود بين هابسبورغ والعثمانيين. وافق فرديناند على دفع الجزية لاسطنبول. عاد الصراع بين العثمانيين وهنغاريا إلى الظهور عدة مرات في عهد سليمان دون أي تغيير هام بالحدود. لم يكن هذا الصراع محدوداً بالقارة الأوروبية ولكنه اتسع إلى معارك بحرية في البحر الأبيض المتوسط.

الفتوحات في الشرق

استغل الصفويون التزامات العثمانيين أمام أوروبا، فبدؤوا بمضايقتهم في الشرق. في الحقيقة أن هنغاريا لعبت دوراً هاماً في تأجيج العداء بين العثمانيين والصفويين بهدف تخريب التوازن العثماني الغربي. بسط العثمانيون نفوذهم على بغداد وتبريز عامي 1533-1534، وبالتالي سيطر العثمانيون على طريق الحرير الذي كان له أهمية حيوية للاقتصاد العثماني وطريق التوابل بين بغداد والبصرة. بمحاولة هزيمة الشاه مرة واحد وإلى الأبد، باشر سليمان حملة ثانية عامي 1548-1549. تجنّب الشاه مواجهة الجيش العثماني واختار الانسحاب، كما فعل تماماً في الصراع السابق. بهذه الحملة أخذ مدينة وان ومحيطها بالإضافة إلى بعض الحصون في جورجيا. بدأ سليمان الأول حملته الثالثة والأخيرة ضد الشاه عام 1553، وانتهت بمعاهدة أماصيا عام 1555. بمعاهدة أماصيا قبل الصفويون بالنفوذ العثماني على بغداد وتبريز وشرق الأناضول. أخيراً انتهى الصراع مع الصفويين الذي بدأ عام 1514.

التفوق في البحر الأبيض المتوسط

أَوْلى العثمانيون أهمية كبرى لتطوير أسطولهم البحري منذ عهد محمد الثاني. أصبحت هذه قضية رئيسة في عهد سليمان الأول بعد أن سيطر الأسطول البرتغالي على طريق التوابل الآسيوي. كانت نقطة تحوّل الأسطول العثماني عام 1517 عندما وحده خضر بيك (سمّي خير الدين باشا بربروس) الذي فتح الجزائر وأعلن حاكماً. عُيّن قائد الأسطول البحري عام 1534، وكُلف بإعادة بناء الأسطول العثماني. بعد ذلك بفترة قصيرة وازن الأسطول العثماني أساطيل بلاد المتوسط الأخرى كلها. كانت قلعة كورون ذات الأهمية الإستراتيجية في موريا قد وقعت في يد الأميرال كارلوس الخامس أندريا دوريا عام 1532. استعاد كورون عام 1533 وأصبحت تونس تحت السيطرة العثمانية. ولكن كارلوس الخامس حقق انتصاراً هاماً ضد العثمانيين في تونس عام 1535. هَزَم خير الدين باشا الأسطول الإسباني في معركة بريفزا عام 1538. هذا ما ضمِن السيطرة العثمانية على البحر المتوسط مدة 33 عاماً. حقق الأسطول العثماني بعض الانتصارات الهامة في المتوسط ضد إسبانيا ولكنه هُزم في مالطا عام 1565.

كان العثمانيون يراقبون عن كثب الانتصارات البرتغالية في البحر الأحمر والمحيط الهندي منذ عهد بيازيد الثاني. استولوا على خليج البصرة والبحر الأحمر من الأسطول البرتغالي في ثلاثينيات القرن السادس عشر. كان هدف جهود العثمانيين تلك كلها تأمين طرق التجارة إلى الهند. استولى الأسطول العثماني على عدن عام 1538. بني أسطولاً جديداً بعد الاستيلاء على البصرة عام 1547. حاول البرتغاليون إيقاف النفوذ العثماني في خليج البصرة من خلال بناء قلعتي مسقط وهرمز. كان للقلعتين

أهمية إستراتيجية بحيث تحكمتا بمدخل خليج العقبة. عُيّن الريس بيري قائد الأسطول العثماني في المحيط الهندي وأميرال أسطول السويس. مع الريس بيري استعاد العثمانيون السيطرة على عدن من البرتغاليين عام 1549. حاصر الريس بيري هرمز بعد الاستيلاء على مسقط عام 1552 التي احتلها البرتغاليون منذ عام 1507. عاد الريس بيري إلى مصر عندما حاصرته القوات البحرية البرتغالية في خليج البصرة. لم يستطع خليفة الريس بيري أن يضع نهاية للتفوق البرتغالي في المحيط الهندي وخليج البصرة. كان العثمانيون قادرين بتلك الحملات على منع البرتغاليين من الاستقرار في عدن والبحر الأحمر وساحل خليج البصرة. سيطر العثمانيون أيضاً على اليمن والساحل الجنوبي للجزيرة العربية.

عندما مات سليمان العظيم عام 1566، وسعت الإمبراطورية العثمانية حدودها من شبه الجزيرة العربية إلى شبه جزيرة البلقان. لم تكن هذه نهاية التوسع العثماني حيث استمرت الإمبراطورية بتحقيق فتوحات جديدة حتى أواسط القرن السابع عشر. لم تكن هزيمة البرتغاليين في المحيط الهندي ممكنة، وهذا ما أظهر بدايات تفوق العالم الأوروبي. لم يستطع العثمانيون منافسة الأسطول الأوربي الأقوى في المحيط الهادي على الرغم من سيطرتهم في البحر المتوسط. لم تضعف التجارة في البحر المتوسط ولكن العثمانيين لم يستفيدوا من تطور التجارة على طريق الأطلسي. بدأ الاقتصاد الأوروبي ينمو بوتيرة سريعة بعد أن كان خلف الاقتصاد العثماني بكثير. ليست المشكلة كيف نمت أوروبا، فقد بقي العثمانيون الدولة الأقوى في العالم حتى القرن السابع عشر. هذا ما جعلهم لا يلاحظون إشارات التطور

داخل الإمبراطورية وخارجها. هذا لا يعني بالضرورة أن العثمانيين لم يكونوا غير مدركين تماماً للنهضة الأوروبية، حيث حاولوا إيقاف البرتغال في المحيط الهندي.

الفتوحات العثمانية بعد سليمان الأول

بعد سليمان الأول حكمت الإمبراطورية العثمانية سلالة الضعفاء. سليم الثاني (1566–1574) ابن سليمان السلطان العثماني الأول الذي لم يقد قواته في حملة. مع أنه الرجل الذي شكل سياسة الإخضاع للإمبراطورية، ولكن الوزير محمد باشا صوقولو تحكم في معظم شؤون الدولة. كمثال، لم يؤيد محمد باشا فتح قبرص لاعتقاده أنه سيثير غضب الصليبيين. أخيراً أُخذت قبرص من البندقية عام 1571. حملات الحجاز واليمن كانت ناجحة أيضاً. هزم العثمانيون في العام نفسه الحملة الصليبية البحرية بقيادة إسبانيا وإيطاليا لاسترجاع قبرص هزيمة ساحقة في بحر ليبانت. من ناحية أخرى ثبّت هذا سيادة العثمانيين في البحر المتوسط التي أُكِّدت للمرة الأولى في بريفيرا عام 1538. رُمم أسطول الإمبراطورية المحطّم بسرعة وحافظ العثمانيون على نفوذهم في البحر المتوسط.

أدرك العثمانيون في عهد سليم تهديد روسيا لهم بعد فتحها أستراخان عام 1556. ازدادت روسيا قوة منذ بداية القرن السادس عشر. وضع محمد باشا صوقولو خطة لتوحيد نهري الفولغا والدون بشقّ قناة في صيف عام 1569. هذا من شأنه أن يمنع روسيا من التوسع جنوباً. الاستيلاء على خانيات قازان وأستراخان وبقايا القبيلة الذهبية لا يساعد العثمانيين في تطويق الصفويين عبر بحر قزوين فقط، بل يمكن أن يساعد بالسيطرة على طرق التجارة في آسيا الوسطى الممتدة إلى الغرب. واحد من

أهداف هذا المشروع هو الوصول إلى المسلمين السنّة في آسيا الوسطى الذين ربما يساعدون العثمانيين ضد الصفويين. هدف آخر من أهداف مشروع صوقولو كان شق قناة السويس بهدف السيطرة على طريق التجارة الهندي. فشلت تلك الخطط. وصل العثمانيون بحر قزوين عام 1590 وأعقب ذلك سلسلة انتصارات على الصفويين ولكن السيادة العثمانية استمرت لفترة قصيرة فقط.

حول العثمانيون اهتمامهم نحو الغرب حيث بدأت تقع مشاكل منذ عام 1587 قبل تأمين الحدود الشرقية. نشبت حرب بين العثمانيين والنمسا عام 1593، وأخذت أربعة عشر عاماً لتنتهي دون أي مكسب للعثمانيين. نظّمت النمسا حملة صليبية بهدف أخذ الأفلاق وبوغدان وترانسلفانيا من العثمانيين. هزم محمد الثالث الذي أجبِر على قيادة جيشه الصليبيين في معركة هاجوفا عام 1596. توجب على السلطان العدول عن الهرب من ساحة المعركة وسط القتال خلال معركة هاجوفا. لم تُنه معركة هاجوفا الصراع العثماني النمساوي الذي استمر حتى عام 1606. على الرغم من الهجوم على الصفويين في الشرق فإن ثورة المحتجين في ترانسلفانيا أجبرت الطرفين على توقيع اتفاقية عام 1606 سمّيت زيتفاتوروك. ساوت هذا الاتفاقية بين السلاطين العثمانيين والأباطرة النمساويين. كانت هذه نقطة تحول كبيرة في سياسة العثمانيين الخارجية. إلى جانب تسجيل هذه المرحلة بداية نهاية التوسع العثماني، فقد شكلت هابسبورغ في وسط أوروبا والصفويين في وسط آسيا حواجز منيعة ضد العثمانيين. ظهرت روسيا أيضاً كقوة عظمى في الشمال حيث أعاقت التوسع العثماني.

2. الأزمة والتوحيد (1600–1774)

استمرت فتوحات العثمانيين بعد موت سليمان الأول على الرغم من أنها تباطأت تدريجياً. أجريت بعض التغيرات في نظام الإدارة الكلاسيكي العثماني بعد سليمان الأول. مثلاً، كان السلاطين العثمانيون يقودون عادة قواتهم في المعركة، أما سليم الثاني (ابن سليمان الأول) وابنه مراد الثالث (1574–1595) فقد كانا بعيدين عن الشؤون العسكرية المباشرة. تخلى السلاطين العثمانيون عن قتل أخوتهم في أواخر القرن السادس عشر، ولكنهم بقيوا يشككون بولاء أبنائهم. كان محمد الثالث (1595–1603) آخر سلطان عثماني يقتل أخوته وابنه. قدّم السلطان أحمد الأول (1603–1617) مدوّنة قانونية تقضي بجلوس أكبر أعضاء السلالة العثمانية على العرش.

في بداية القرن السابع عشر، بقيت الإمبراطورية العثمانية أقوى دولة في العالم سواء في القدرة العسكرية أو الثروة. فوق ذلك فإن الأسلوب الشخصي للحكومة المزروع بين السلاطين السابقين اختفى تماماً نتيجة تعديلات نظام الخلافة. لم يستطع السلاطين إدارة رعاياهم وشؤون دولتهم بشكل كاف مع بدء جلوسهم على العرش دون تحضير الحكّام المحليين، وصراعات الخلافة الدموية. يعتبر هذا الضعف في السلطة أحد الأسباب الرئيسة لأزمة الإمبراطورية نتيجة انحلال السلطنة، فقد انتقلت القوة الحقيقية في الإمبراطورية إلى مكان آخر. ظهرت صراعات السلطة بين مختلف عناصر البيروقراطية: الصدر الأعظم والديوان والمحكمة العليا وبشكل خاص العسكر (الإنكشارية). أدى هذا إلى تحول ثابت للقوة في الحكومة. وينبغي ألا ننسى تأثير أمهات السلاطين على شؤون الدولة. مع السلطانة خُرّم اكتسبت

كبريات نساء القصر (زوجات وأم السلطان) نفوذاً واسعاً مكّنهن من تعيين مناصب عليا داخل الإمبراطورية. ما كانت تحتاجه حقاً الإمبراطورية العثمانية في هذا الوقت سلطاناً قوياً على العرش حيث واجهت الإمبراطورية تصدعات اجتماعية ومشاكل اقتصادية.

خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر بدأ العثمانيون بمواجهة مشكلة التضخم. كان هذا ناتجاً عن خسارة العثمانيين السيطرة على طرق التجارة الآسيوية التقليدية لصالح الأوروبيين. كانت التغييرات الديموغرافية سبباً هاماً آخر للتضخم: ازداد عدد السكان بشكل كبير دون توسع أرض الإمبراطورية المزروعة (كان يعتمد اقتصادها بشكل كبير على الزراعة). انخفاض العملة رفع سعر البضائع نتيجة ارتفاع عدد السكان، وهذا أيضاً زاد حاجة الخزينة لتمويل النظام العسكري المتغير. أثرت معادن أميركا الثمينة سلباً في الاقتصاد العثماني أيضاً.

إعطاء الملوك الأوروبيون أهمية كبرى للمشاة المسلحين بأسلحة نارية فرض على العثمانيين عمل الشيء نفسه. كان لهذا تأثير كبير على النظام العسكري العثماني التقليدي. فقد احتاج نظاماً مالياً يستوعب هذه السياسة العسكرية. على الرغم من أن فيلق المشاة أصبح عاملاً حاسماً في الحرب، وخاصة مع هابسبورغ، اضطر رجال الدولة العثمانية لتجنيد مرتزقة مسلحين من الطبقات الدنيا: عرف أولئك بالمشاة المرابطين على الحدود. شجع العثمانيون أيضاً الباشاوات والنبلاء المحليين الأثرياء لتجنيد مشاة مرابطين على الحدود لاستبدال الفرسان. كما حدث في تجنيد المشاة، فقد ازداد عدد الإنكشاريين (مع ضعف الانضباط والتأثير). شكّل هذا عبئاً آخر على الاقتصاد العثماني. لمواجهة

النفقات العسكرية، فرض العثمانيون نظام ضرائب جديد على الأرض سُمّي «التزام». كانت الحكومة تمنح الالتزام للأغنياء المرموقين، وهم بدورهم يجنون خمسة أضعاف ما يدفعونه بفرض ضرائب على الفلاحين، وأخذ إنتاجهم الزراعي. خلق هذا استياء بين دافعي الضرائب الذين توجب عليهم التخلي عن أراضيهم. تمرد المشاة المرابطون على الحدود الذين لم تكن تدفع رواتبهم في أوقات السلام تحت قيادة الجلاليين القوية. انضم الفلاحون الذين جُردوا بنظام الالتزام إلى التمرد أيضاً. هُجرت العديد من الأراضي المزروعة والقرى.

أرهبت الإنكشارية المسؤولين والناس مرة أخرى في اسطنبول. أصبحت الإنكشارية لاعباً مؤثراً في الحكومة. كان هذا في الأساس نتيجة تدهور نظام التحويل الديني (دوشرمة). طوال القرن السابع تولّت الانكشارية رويداً رويداً مناصب عسكرية وإدارية هامة في الحكومة. حصل الانكشاريون على هذه المناصب عبر الرشاوى بشكل رئيس. ثار الإنكشاريون في اسطنبول بهدف جلب رجالهم إلى السلطة بعد أن اكتسبوا قوة، وبتعاون مع أمهات السلاطين أحياناً.

كان معظم السلاطين العثمانيين بعد سليمان الأول مبتدئين جداً في التغلب على مثل هذه القضايا. حاول عثمان الثاني (1618–1622) والذي سمي أيضاً عثمان الشاب استعادة قوة السلاطين ولكن الانكشاريين قتلوه. خلفه مراد الرابع البالغ من العمر ثماني سنوات وهو ابن أحمد الأول. بقي الشاب مراد الرابع تحت سيطرة والدته السلطانة كوسم العاطفية. حكمت بشكل أساسي من خلاله. وقعت الإمبراطورية بالفوضى: غزا الصفويون العراق، واندلعت ثورات في شمال الأناضول، وفي عام

1631 اقتحمت الانكشارية القصر وقتلت الصدر الأعظم وآخرين. خشي مراد الرابع أن يواجه مصير أخاه الأكبر عثمان الثاني وقرر أن يفرض سلطته. حاول إيقاف الفساد الذي نما في عهد السلاطين السابقين، ولم يتوقف أثناء حكم أمه بالنيابة. نجح مراد الرابع في الحد من الهدر في الإنفاق الحكومي. حظر أيضاً الكحول والتبغ في اسطنبول.

أهم انجازات مراد الرابع العسكرية كانت نصره على الصفويين حيث أعاد العثمانيون فتح تبريز وهمدان وبغداد عام 1638. قاد مراد الرابع بنفسه حملة العراق وإيران وأثبت أنه القائد الميداني المتميز. كان آخر سلطان عثماني يقود جيشاً في ساحة المعركة. انتهت حملته ضد الصفويين عام 1639 مع توقيع اتفاقية سميت قصر شيرين. أثناء حملته على إيران قضى على تمردات الأناضول كلها، وأعاد الشكل الأقدم للدولة. لم يدم هذا طويلاً حيث مات بعمر 72 عاماً. خلفه أخوه إبراهيم (1640-1648). المؤامرات والثورات التي هدأت خلال فترة حكم مراد الرابع عادت للظهور مرة أخرى بعد موته.

لم يكن إبراهيم قادراً على القيام بمهام السلطان بعد أن تحرر من القفص. لم يكن قد تربى لواجب حكم الإمبراطورية العظمى. يعتقد العديد من المؤرخين أن إبراهيم كان مختلاً عقلياً. ربما تأثرت حالته العقلية سلباً بسبب الوقت الطويل الذي قضاه في قفص القصر. وصلت الإمبراطورية العثمانية تحت حكم السلطان إبراهيم بسرعة إلى شفا الانهيار. هدد السلطان إبراهيم أيضاً بإنهاء سلالة عائلته حيث لم يكن لديه ولد. لحسن الحظ أصبح لديه ولد أخيراً هو محمد. حافظ هذا على وجود الإمبراطورية. بقي إبراهيم في البداية بعيداً عن السياسة ولكنه أخيراً سيطر على السلطة وأعدم عدداً من

الوزراء. لم تكن هذه نهاية المؤامرات على القصر. قُتل السلطان إبراهيم في انقلاب عام 1648. لحسن الحظ أن انشغال الأوروبيين بحروب الثلاثين عاماً (1918-1648) أعطى العثمانيين القدرة على صراع الصفويين والمشاكل الخارجية الأخرى دون أي تهديد من الغرب.

مرحلة عائلة كوبرلو

خلف محمد الرابع (1648-1687) أباه وهو في السابعة من عمره. وبالتالي عملت جدته السلطانة كوسم نائبة للسلطان (1648-1651). خلق هذا فراغاً في السلطة: كان كبار قادة الإنكشاريين والفرسان يقودون أجهزة الدولة، ولهم دور حاسم بتعيين الوزراء. أرهب القادة العسكريون البلاد وقمعوا جميع معارضيهم. أصبح الهيكل السياسي والاقتصادي للإمبراطورية غير محصّن أبداً. سبّب الصراع بين كبار نساء القصر ضرراً كبيراً للدولة حيث شاركن في حركات كسب التأييد داخل القصر. الصدام المتواصل بين السلطانة كوسم والسلطانة خديجة طورخان (والدة محمد الرابع) انتهى بشنق الأولى. أصبحت السلطانة طورخان غير العاطفية مثل كوسم وصية على العرش. بعد ذلك بوقت قصير شُنق القادة العسكريون ومعاونوهم.

في هذه الأثناء غزا العثمانيون جزيرة كريت عام 1644 ثأراً للاستيلاء على سفينة عثمانية. كانت السفينة العثمانية تبحر إلى مصر عندما استولى عليها قراصنة مالطا في جزيرة كريت. فتح العثمانيون خانيا ثاني أكبر مدن كريت. لكن الحرب استمرت لفترة طويلة في مضيق الدردنيل، وحاصر البندقيون موانئ موريا. دب ذعر كبير في اسطنبول عندما هزم الأسطول البندقي العثمانيين في مضيق الدردنيل عام 1656، ثم استولى على جزر تينيدوس وليمنوس.

بحثت السلطانة طورخان عن رجل حكيم يستطيع التغلب على المشاكل التي تواجه الإمبراطورية. عيّنت محمد كوبرُلو وهو رجل مسنّ صدراً أعظماً في تشرين الأول عام 1656. بعد ذلك انسحبت السلطانة طورخان من شؤون الإمبراطورية. تخلى محمد الرابع -الذي سمي الصياد لأن هذا العمل كان يأخذ كثيراً من وقته- عن معظم سلطته لوزيره. استلمت بعد ذلك عائلة كوبرُلو الإدارة السياسية مدة ثمانية وعشرين عاماً. سميت هذه الفترة مرحلة كوبرُلو (1656–1683). لأول مرة في التاريخ العثماني تسمى فترة تاريخية باسم صدر أعظم وليس سلطاناً.

خلال فترة حكم محمد باشا كوبرلو (1656–1661) وفاضل أحمد كوبرلو (1661–1676) عادت الإمبراطورية العثمانية إلى مجدها كما في عهد سليمان الأول. استعاد آل كوبرُلو جزر إيجة والبندقية وشنوا حملات ناجحة ضد ترانسلفانيا عام 1664 وبولندا في 1670-1674. نجحوا أيضاً بقمع ثورات الإنكشاريين. عندما مات أحمد باشا عام 1676 كانت الإمبراطورية العثمانية مستقرة وقوية من جديد. قرة مصطفى باشا آخر عضو في عائلة كوبرلو خلف أحمد باشا صدراً أعظماً.

وفّرت الإمبراطورية العثمانية مساعدة عسكرية للهنغاريين والأقليات غير الكاثوليكية في الأجزاء الهنغارية التي تحتلها هابسبورغ. ثار محتجون وقوات أخرى معادية لهابسبورغ بقيادة إمره ثوكولي ضد ليوبولد الأول عام 1681. طلب الثائرون مساعدة العثمانيين. اعترف العثمانيون بإمره ملكاً لهنغاريا العليا (سلوفاكيا الشرقية وأجزاء من شمال شرق ما يعرف اليوم بهنغاريا) وقرروا أن يشنّوا حملة ضد النمسا. الاستيلاء على مدينة فيينا كان منذ فترة طويلة هدفاً استراتيجياً هاماً

للإمبراطورية العثمانية بفضل سيطرتها على الدانوب (من البحر الأسود حتى غرب أوروبا) وعلى أوروبا الجنوبية وطرق التجارة البرية (شرق البحر المتوسط حتى ألمانيا).

أول هزيمة كبرى

في أيلول عام 1683 ضربت القوات العثمانية بقيادة قرة مصطفى باشا حصاراً على فيينا إثر هزيمة الجيش النمساوي بقيادة كارلوس الخامس دوق لورين. ولكن التحالف المسيحي بقيادة الملك البولندي جون سوبيسكي هزم الجيش العثماني. خيانة مراد كيراي ملك القرم كانت سبب هزيمة العثمانيين الرئيس. طلب مصطفى باشا من مراد كيراي منع تقدم سوبيسكي في نهر الدانوب ولكنه لم يتخذ أي تدبير ضد القوات البولندية. وضعت معركة فيينا حداً للسيطرة العثمانية جنوب شرق أوروبا. عام 1684 أسس البابا إنوسنت الحادي عشر تحالفاً مقدساً جديداً يتألف من الإمبراطورية الجرمانية المقدسة (تقودها النمسا وهابسبورغ) وجمهورية النمسا وبولندا. انضمت روسيا إلى التحالف المقدس عام 1686. توجب على العثمانيين القتال ضد التحالف المقدس في مختلف المناطق لمدة ستة عشر عاماً. أخيراً انتصر التحالف المقدس في الحرب عام 1699، وأجبر الإمبراطورية العثمانية على توقيع معاهدة كارلوفيتش. بناء على ذلك تنازل العثمانيون عن معظم هنغاريا وترانسلفانيا وسلوفينيا للنمساويين، بينما تنازلوا عن بودوليا لبولندا. نُقلت معظم دالماتيا إلى فيينا وموريا. استولت روسيا على قلعة أزوف خلال الحرب ووسعت نفوذها إلى البحر الأسود.

أشارت معاهدة كارلوفيتش إلى بداية ضعف العثمانيين في أوروبا الشرقية، وجعل هابسبورغ القوة المهيمنة

في وسط أوروبا. توجب على العثمانيين الكفاح من أجل إعادة تنظيم جيشهم وأسطولهم، وإعادة تأهيل وضع الإمبراطورية الإداري والمالي وفقاً لممارسات الدول الأوربية بدلاً من تقاليدهم. إحدى أولويات العثمانيين كانت استرجاع الأراضي التي خسروها في معاهدة كارلوفيتش. لفعل ذلك توجب عليهم أن يقودوا سلسلة من الحروب مع روسيا والبندقية والنمسا. حقق العثمانيون بعض الانتصارات الهامة في تلك الحروب.

سلسلة الحروب لاستعادة الأراضي التي خُسرت

طموح بطرس الأكبر بتحقيق عبور روسي إلى موانئ المياه الدافئة أدى إلى صراع لا مفر منه مع العثمانيين. طمح بطرس الأكبر لأخذ بحر آزوف، ثم اسطنبول وبعدها مضيق البوسفور، وعينه على البحر المتوسط. أراد العثمانيون استعادة مكانتهم في بحر آزوف. حدث الصراع المنتظر عندما استعدى بطرس الأكبر السويديين بحملته في الشمال. غزا الملك السويدي كارل الثاني عشر روسيا ولكنه هُزم في بولتافا عام 1709. سعى كارل الثاني عشر للجوء إلى تركيا لكي لا يقع بالأسر، ومنحه السلطان أحمد الثالث (1703–1730) لجوءاً. طالب بطرس الأكبر بواسطة سفيره تولستوي بتسليمه ولكن رفض هذا الطلب. حين أصرّ الروس، ألقى أحمد الثالث السفير تولستوي في سجن من سبعة أبراج في اسطنبول. هذا عنى حرباً بين البلدين.

هَزَمت القوات العثمانية الجيش الروسي بشكل حاسم في براث بتاريخ 1711/7/28. لسبب مجهول لم يستطع العثمانيون الاستفادة من هذا النصر الذي كان من الممكن أن يمكنهم من التقدم إلى موسكو. بالمقابل اضطر بطرس الأكبر من خلال شروط معاهدة براث إلى سحب السفير

الدائم من اسطنبول والتنازل عن بحر آزوف الذي كان بيد الروس منذ عام 1700. وبالتالي كسب العثمانيون ثانية ثقتهم بأنفسهم بانتصارهم على أحد أعضاء التحالف المقدس. بعد ذلك حوّلوا اهتمامهم إلى فيينا التي كانت على وشك الانهيار واستعادوا السيطرة على عدة أجزاء من موريا. شنت النمسا هجوماً بالتحالف مع البندقية عام 1716، مع العلم أنها ستكون الهدف التالي. الآن أُجبر العثمانيون الذين لم يعودوا يفوزون على توقيع معاهدة باساروفيتز للسلام عام 1718، وتخلوا بموجبها عن موريا وبلغراد وتيميشوار للنمسا. خسارة بلغراد أضعفت وضع العثمانيين في البلقان.

العصر الزنبقي (1718–1730)

لمواجهة هذه الخسائر اعتقد الصدر الأعظم الصهر إبراهيم باشا (الذي وقع اتفاقية باسّاروفيتز مع النمسا) أن الإمبراطورية تحتاج إجراء بعض الإصلاحات. تلك الإصلاحات يمكن أن تضع حداً للخسائر وتوقف الفساد السياسي والاقتصادي والاجتماعي. بناء على هذه الفكرة دخلت مرحلة جديدة في التاريخ العثماني بين عامي 1718-1730 سميت العصر الزنبقي. اسم العصر مستمد من انتشار جنون الزنبق. كان النبلاء يشترونه وأصبح موضة العصر. خلال هذا العصر أرسل إبراهيم باشا ممثلين إلى العواصم الأوروبية بهدف كسب معرفة حول النهضة الغربية. تأسست مطبعة في اسطنبول بهدف نشر الكتب التركية. وفتحت مكتبات جديدة وترجمت بعض الكتب الشرقية والغربية إلى اللغة التركية. شهدت الثقافة العثمانية الفريدة والتحف الفنية نمواً هائلاً على طول الإمبراطورية. وشهدت العاصمة مشاريع سكنية جديدة خاصة بتأسيس الشاليهات على البوسفور.

كانت مرحلةً سليمة نسبياً، ولأول مرة في تاريخها اتجهت الإمبراطورية العثمانية باتجاه الغرب. هذا يعني أن العثمانيين بدؤوا يلاحظون التقدم الأوروبي. حتى ذلك الوقت اعتقد رجال الدولة العثمانية بأن سبب الفساد السياسي والاجتماعي الاقتصادي في الإمبراطورية العثمانية هو خسارة العثمانية أسلوبها الكلاسيكي (كان الطريق الوحيد للهرب من الفساد والاضطراب الداخلي). ولكن مع العصر الزنبقي اعتقد أن العودة إلى الطرق السابقة ليست حلاً. بالمقابل توجب على العثمانيين استيعاب الابتكارات الأوروبية. ولكن هذا لم يلبِ حاجات الناس. كان الناس يتخبطون في الفقر بينما تعيش النخبة الحاكمة في ترف. حدث أمر هام آخر زاد غضب الناس وهو إعادة استيلاء الصفويين على تبريز. اندلعت ثورة المستاءين بقيادة بطرونا خليل في العاصمة عام 1730. أطيح بأحمد الثالث وخلفه محمد الأول (1730–1754) وقتل الصدر الأعظم. كان هذا نهاية العصر الزنبقي. استمرت الإصلاحات فترة قصيرة جداً.

استغلت كاترين الأولى الروسية (1725–1727) الوضع الذي واجه الإمبراطورية العثمانية فاستمرت بسياسة السعي للوصول إلى البحار الجنوبية التي بدأها زوجها بطرس الأكبر. تحالفت مع إمبراطورة النمسا آنا (1730–1740) ضد العثمانيين. في البداية حققت روسيا انتصارات كبرى من خلال أخذ أوزو في القرم عام 1737. لأول مرة بدأ الروس بالتفكير بأخذ اسطنبول وإعادة بناء الإمبراطورية البيزنطية القديمة. ولكن العثمانيين استولوا ثانية على بلغراد من النمسا. انسحبت النمسا من الحرب واضطرت روسيا للتوقيع على اتفاقية مع اسطنبول سميت معاهدة بلغراد عام 1739. بشفاعة من

فرنسا أعادت المعاهدة بلغراد وصربيا إلى العثمانيين من يد النمسا. وافقت روسيا على هدم قلعة آزوف وعدم إنشاء أسطول لها في بحر آزوف والبحر الأسود. وبالتالي خسر الروس حق التنقل في البحر الأسود. ستضطر بعد ذلك للاستمرار بالتجارة مع السفن العثمانية التي تحمل العلم العثماني. بالإضافة إلى ذلك، لم تَسْتَعِدْ الإمبراطورية العثمانية بعض المناطق التي خسرتها بمعاهدات كرلوفيتش وباساروفيتز فقط، بل كسبت الثقة بقدرتها على محاربة قوتين عظميين في وقت واحد.

بعد معاهدة بلغراد مالت الإمبراطورية العثمانية إلى الحفاظ على السلام ولم تعد الحرب حلاً وحيداً لمشاكلها الخارجية. عكس هذا مناخاً لمراحل أصبحت فيها الدبلوماسية خياراً رئيساً في العلاقات الدولية. اتّبعت الإمبراطورية العثمانية هذه السياسة ثلاثين سنة. كان الصدر الأعظم قوجا راغب باشا (1757–1763) أكبر المؤيدين لهذه السياسة، تجنّب عقد تحالف مع أي دولة ضد دولة أخرى. تراجع العثمانيون عن تلك السياسة بعد وفاته عام 1763. انتهى هذا القرار بمأساة. حدث ذلك إلى حد ما بجر كاترين الثانية حاكمة روسيا (1762–1796) العثمانيين إلى حرب من خلال تنشيط سياسة التوسع الروسية باتجاه البحر المتوسط. أعقب الحرب مع روسيا توتر دولي داخل بولندا حيث كان هناك صراع بين القوميين والملك ستانيسلاوس بونياتوسكي المدعوم عسكرياً من روسيا. قاومت القوات الروسية القوميين البولنديين الذين لجئوا إلى المناطق العثمانية. تبع الروس البولنديين إلى مدينة بالطا العثمانية. في بالطا ذبحت القوات الروسية القوميين البولنديين. رفضت السلطات الروسية هذه التهمة. بعد هذا الحدث الحدودي في بالطا

أعلن السلطان مصطفى الثالث الحرب على روسيا في 25/ 9/ 1768 دون أي تجهيز عسكري لائق حيث أثارت المذبحة الروسية ردة فعل كبيرة بين العثمانيين.

الحرب الروسية التركية

كانت حرباً مدمرة استمرت ست سنوات، وكان القتال على الأرض وفي البحر. كانت المملكة المتحدة تدعم روسيا بمستشارين للأسطول الروسي. بدأت الأعمال العدائية في البلقان والقرم وعلى الحدود الجورجية القوقازية في وقت واحد. خرّب الأسطول الروسي المنطلق من بحر آزوف ساحل البحر الأسود التركي وأظهر إشارات لفتح طريق عبر المضيق. في الوقت نفسه أبحر الأسطول الروسي الثاني من البلطيق إلى البحر الأسود حيث دعمه الأسطول البريطاني بقيادة الأميرال إلفينيستون. هزم الروس والقوات البحرية البريطانية أسطول البحر المتوسط التركي بتاريخ 1770/7/5 في معركة تششمة وهي إحدى مناطق إزمير.

هذه النكسات دفعت الأتراك للدخول في مفاوضات سلام ولكن الروس رفضوا. استمرت الحرب والأتراك كانوا قادرين على إجبار الروس على التراجع عبر الدانوب عام 1773 وإن لم يكن لفترة طويلة. بعد ذلك بوقت قصير هاجموا دوبروزها من جديد ولكنهم فشلوا في الاستيلاء على سيليسترا وفارنا. أثناء هذا الصراع توفي مصطفى الثالث بتاريخ 1773/12/24. خلفه عبد الحميد الأول (1774–1789). بعد سلسلة من الهزائم فعل عبد الحميد كل ما بوسعه ليحفظ ما يستطيع حفظه. أخيراً اضطر إلى توقيع معاهدة سميت معاهدة كوتشوك كاينارجا مع شروط روسية قاسية في 1774/7/21.

3. الضعف (1774 – 1914)

كانت معاهدة كوتشوك كاينارجا اتفاقية مدمرة للإمبراطورية العثمانية وسجلت بداية الضعف العثماني في جنوب شرق أوروبا والبحر الأسود. مع المعاهدة، أمّن الروس الحق بحرية التنقل في البحر الأسود والمرور من دون عائق في البحر المتوسط والمعاملة المحترمة لسفرائهم ومرور الحجاج الروس الآمن لزيارة مقدساتهم في القدس وحماية جميع المسيحيين على الأراضي العثمانية. ولدت هذه التنازلات الأخيرة صراعاً حاداً حيث منح سليمان المدهش هذه التنازلات لفرنسا من قِبل. علاوة على ذلك خسر العثمانيون أيضاً خانية القرم التي اضطروا لمنحها الاستقلال. كانت خانية القرم عام 1783 مستقلة اسمياً، ولكنها تابعة لروسيا ومنتمية رسمياً إلى الإمبراطورية الروسية. معظم جوانب المعاهدة الهامة للتاريخ البحري هي منحها الروس ممراً إلى موانئ المياه الدافئة، ومرورا عبر الدردنيل.

بحث عبد الحميد الأول عن طرق لمحو عار معاهدة كاينارجا. ولكن التهديد الروسي تجاه الإمبراطورية العثمانية استمر في الزيادة حيث حرضت كريستين المسيحيين في البلقان للتمرد ضد العثمانيين. تحالفت روسيا أيضاً مع النمسا بهدف مشاركة الأراضي العثمانية والاستيلاء على اسطنبول. لمواجهة التحرش الروسي المتواصل أعلنت الحكومة العثمانية الحرب على الروس في 1787/8/19. الرغبة باستعادة القرم وكوتشوك كاينارجا من الروس كان سبباً رئيساً لإعلان العثمانيين الحرب. ولكن التجهيزات العثمانية كانت غير ملائمة واللحظة كانت سيئة الاختيار، الآن روسيا والنمسا تحالفتا. القتال

ضد قوتين عظميينٍ على جبهتين وضع العثمانيين في موضع صعب جداً. كان السلطان الشاب سليم الثالث (1789–1807) متلهفاً لاستعادة الهيبة العثمانية بنصر له قبل أن يصنع السلام، ولكن حالة قواته جعلت هذا الأمل مستحيلاً. لحسن الحظ أن السويد وبروسيا القلقتين من تطور روسيا والنمسا وآثار الثورة الفرنسية عام 1789 وقّعتا معاهدات مع الإمبراطورية العثمانية التي وضعت حداً للحرب. أنقذت الثورة الفرنسية الإمبراطورية العثمانية. تخلت النمسا عن الأراضي التي استولت عليها في الحرب مع الإمبراطورية العثمانية (بما فيها بلغراد)، وتعهدت بعدم عقد أي تحالف مع الروس ضد العثمانيين في معاهدة زيشتوفي عام 1791. خففت معاهدة ياش مع الروس لعام 1792 العبء المفروض على تركيا بمعاهدة كاينارجا. مع ذلك اضطر العثمانيون للتخلي عن مطالبهم بالقرم وبيسارابيا. ولكن القوى العظمى في هذه الفترة كان لديها مشاكل أكثر إلحاحاً من الالتفات إلى العثمانيين. لم تعد مصالحها تكمن في الشرق بل في الغرب. انتصرت الثورة في باريس.

جهود الإصلاح العسكري العثماني

طمحت السلطات العثمانية لتطوير عسكريتها وفقاً للمعايير الغربية منذ بداية القرن الثامن عشر. في عام 1731 عين محمد الأول الكونت دو بونيفال لتنظيم قسم المدفعية في الجيش العثماني بما يتطابق مع النماذج الغربية. كان الكونت دو بونيفال لاجئاً في الإمبراطورية العثمانية واعتنق الإسلام. لاحقاً أصبح يعرف بأحمد باشا المدفعي. تأسست مدرسة عسكرية سمّيت مهندس خانة عام 1734 لتدريب أفراد الجيش من أجل قسم المدفعية.

قدمت المدرسة خدمات قيّمة للعثمانيين في حربهم مع روسيا والنمسا بين عامي 1736-1739. ولكن المدرسة أُغلقت عام 1747 بسبب معارضة الإنكشاريين. في الواقع إن رجال الدولة العثمانية بما في ذلك السلاطين كانوا تواقين لإصلاحات جذرية في نظامهم العسكري. ولكن المعارضين الإنكشاريين أحبطوا تلك الرغبات، وذهبوا أبعد من ذلك، فقتلوا السلطان. عندما انتهت الحرب الروسية التركية التي اندلعت بين عامي 1768–1774 بهزيمة العثمانيين، نشّط عبد الرحمن الأول الإصلاحات العسكرية.

بهدف منافسة القوات الأوروبية، أحضر عبد الرحمن الأول عدداً من الأجانب للعمل كمستشارين عسكريين عثمانيين بغض النظر ما إذا كانوا مسلمين أم لا، أو كانوا ملتزمين بالقضية العثمانية أم لا. كان فرانتشويس بارون دي توت أحد الإصلاحيين الغربيين الذين استقدموا، وهو ضابط فرنسي نجح في بناء مسبك جديد لصنع مدافع الهاوتزر وشكل وحدات المدافع المتنقلة. بنى تحصينات على البوسفور وأمر ببناء منشآت لقواعد بحرية جديدة. بمشورة دي توت ومبادرته بدأ العثمانيون بحلقات دراسة العلوم البحرية التي وضعت أسس مدرسة الهندسة البحرية السلطانية عام 1775. وتأسست في عهد سليم الثالث مدرسة للقوات البرية هي الهندسة البرية السلطانية عام 1795 بهدف تدريب ضباط المدفعية بأساليب غربية.

اعتقد السلطان سليم الثالث أن تأسيس جيش حديث بأسلوب غربي هو الطريق الوحيد الذي يمكّن الإمبراطورية العثمانية من استعادة قوتها السابقة. بعد جلوسه على العرش أرسل سليم الثالث أبو بكر راتب

أفندي إلى فيينا سفيراً له. مهمة أفندي كانت إعداد تقرير حول القوات الأوروبية وخاصة التشكيل العسكري والإداري للنمسا. لاحقاً أطلق اتفاقاً كبيراً لإصلاح المجالات المالية والتجارية والإدارية والعسكرية. سميت إصلاحاته «النظام الجديد». أهم تغيير كان إيجاد وحدة مشاة النخبة الجديدة أي النظام الجديد. أعطي النظام الجديد لباساً غربياً وأسلحة وتدريباً. حقق إنجازات كبيرة في وقت قصير حيث هزم جيش نابليون بونابرت في عكا في حملته المصرية. أثبت هذا أهمية الجيش العثماني العصري الجديد. هذا الانجاز جلب لهم دعماً شعبياً كذلك. ولكن هذه المجموعة أثارت غضب الإنكشاريين الذين أصبحوا نخبة محافظة تستخدم قوتها العسكرية لتطوير نفسها سياسياً وتجارياً.

بالجرأة المستمدة من هذا النجاح أصدر سليم الثالث أمراً يفيد بأنه في المستقبل ينبغي أن يخضع الإنكشاريون سنوياً للخدمة في النظام الجديد. عندئذٍ خرج الإنكشاريون وأعداء آخرون من أدرنة. بحسب عددهم (تتجاوز عشرة آلاف) وعنف مقاومتهم اتخذ قرار بضرورة ترك الإصلاحات مؤقتاً. قام الإنكشاريون مرة أخرى بثورة. حثوا شيخ الإسلام لإصدار فتوى ضد الإصلاح. خلع الإنكشاريون سليم الثالث أيضاً وسجنوه، واستبدلوه بابن شقيقه مصطفى الرابع (1807–1808). استبدل عام 1808 بمحمود الثاني (1808–1839). فرض مصطفى باشا علم دار حكماً عرفياً في العام نفسه، وأعاد بدء الإصلاح. تحالف أولاً مع الإنكشاريين لكسر سلطة الحكام المحليين. بعد ذلك، التفت إلى الإنكشاريين وذبحهم في ثكناتهم في اسطنبول وفي العواصم الإقليمية عام 1826. نوى السلطان محمود استبدال الإنكشاريين

بقوات منظمة أخرى سميت بعساكر منصورة محمدية. من المثير للاهتمام ملاحظة أن الشعب العثماني سمى مذبحة الإنكشاريين (واقعة خيرية).

الإمبراطورية العثمانية في القرن التاسع عشر

صرفت الإمبراطورية العثمانية معظم طاقتها للدفاع عن سلامة أراضيها التي كانت تهددها الحركات القومية مدعومة من القوى الأوروبية العظمى. في الوقت نفسه اضطرت الإمبراطورية العثمانية لصد التدخل الأوروبي بشؤونها الداخلية. لإنجاز الهدفين، شرع العثمانيون بسلسلة إصلاحات في المجالات العسكرية والاقتصادية والبيروقراطية بهدف تحديث هيكل الإمبراطورية. لكن الإمبراطورية العثمانية واجهت أزمات ضخمة بسبب القوى الأوروبية العظمى التي أثارت الشعب العثماني ضد الحكومة في القرن التاسع عشر.

جاذبية ممتلكات الإمبراطورية الشاسعة، وبروز الحركات القومية بين الشعوب العثمانية، والأزمات المتعاقبة وعوامل أخرى من مؤشرات انهيار السلطة العثمانية أصبحت تعرف بين الدبلوماسيين الأوربيين في القرن التاسع عشر باسم «المسألة الشرقية». في عام 1853 وصف القيصر نيقولا حاكم روسيا الإمبراطورية العثمانية بأنها رجل أوربا المريض. المشكلة من وجهة نظر الدبلوماسية الأوروبية كانت كيفية التخلص من الإمبراطورية العثمانية بحيث لا أحد أن يكسب ميزات على حساب الآخرين ويخل بالتوازن السياسي الأوروبي.

دخلت الإمبراطورية العثمانية القرن التاسع عشر بأزمات خطيرة سببها غزو نابليون لمصر عام 1798.

جلس سليم الثالث الذي أعطى أهمية كبرى للعلاقات مع فرنسا (حليفة العثمانيين منذ فترة طويلة) على العرش قبيل الثورة الفرنسية مباشرة. اتفق أيضاً مع لويس السادس عشر ونابليون بونابرت. في الحقيقة أن الثورة الفرنسية لم تُبرز أي رد فعل لدى العثمانيين حيث كانت تُرى على أنها قضية فرنسية داخلية. إضافة إلى ذلك، لم يكن لدى العثمانيين وقت لحشر أنفهم في دول أخرى إذ لديهم مشكلاتهم الخاصة يريدون حلها، وجيشهم يصارع دولتين قويتين هما النمسا وروسيا في آن واحد. لم تحلل الحكومة العثمانية آثار الثورة الفرنسية على الإمبراطورية العثمانية المتعددة الأعراق. لذلك ستصبح الدولة العثمانية ضحية القوى العظمى التي اتجهت سياساتها ضد وجود الإمبراطورية. ولكن الإمبراطورية العثمانية فوجئت بغزو نابليون لمصر عام 1798. لم يكن واضحاً سبب إصرار نابليون على غزو مصر. الأهداف الظاهرية كانت سحب الإمبراطورية الهندية من أيدي البريطانيين. ذكر نابليون في مذكراته أن السبب هو المجد فقط. دافع الغزو ليس المشكلة، ولكن آثاره وضعت العثمانيين في خطر كبير. أولاً لم تكن الإمبراطورية العثمانية قادرة على إخراج الفرنسيين من مصر دون مساعدة روسيا وبريطانيا العظمى اللتين كان لهما أهدافهما الخاصة هناك. انسحبت القوات الفرنسية من مصر، وبعد ذلك أصبحت مصر ساحة صراع سياسي للقوى العظمى.

وهكذا ضعفت السيادة العثمانية في مصر. كان محمد علي الفائز النهائي في حرب داخلية فعلية. كان قائداً عثمانياً له حضوره في معركة أبي قير عام 1799. بعد مغادرة الفرنسيين أُرسِل إلى مصر بوصفه قائداً ثانياً في الفرقة الألبانية من القوات العثمانية الاحترافية. أصبح

قائداً فعالاً لمصر، واعترفت السلطات في اسطنبول بمكانته عام 1805. حكم محمد علي مصر مدة أربعين السنة التالية باعتبارها دولة مستقلة تقريباً.

بعد مغادرة الفرنسيين مصر عادت العلاقة بينهم وبين العثمانيين. أزعج هذا الروس والبريطانيين. هددت بريطانيا العظمى اسطنبول بإرسال أسطولها إلى بحر الدردنيل أثناء قتال العثمانيين ضد روسيا التي غزت الأفلاق وبوغدان عام 1806. قصدت الحكومة العثمانية التعاون البريطاني ضد روسيا ووقعت اتفاقية عام 1809. انتهت الحرب التركية الروسية الثانية التي استمرت حتى عام 1812 بمعاهدة بوخارست التي تنازل العثمانيون بموجبها عن صربيا لروسيا ومنحوا الصرب الثائرون بعض الامتيازات.

الحركات القومية والتمردات

واجهت الإمبراطورية العثمانية مشكلتين في مطلع القرن التاسع عشر. عليها أولاً مواجهة هجمات القوى الإمبريالية على مناطقها، وثانياً مكافحة تمرد المسيحيين المتأثرين بالحركات القومية وبالثورة الفرنسية. شهدت صربيا أول تمرد قومي في الإمبراطورية. اشتكت المقاومة الصربية من أساليب قمع الإنكشاريين في أيانز (أبرز المحافظات)، واكتسبت طابعاً قومياً بسبب سوء أسلوب السلطات العثمانية عام 1804. دعمت روسيا الصرب لقرابتها الثقافية والدينية بهم. تجنباً للاستفزاز الروسي منحت صربيا الاستقلال عام 1816.

لكن الحركات الصربية أثارت الثورة اليونانية. تأسست «Filiki Eteria/ جمعية الأصدقاء" عام 1814 بهدف الإطاحة بالحكم العثماني في اليونان وتأسيس

دولة يونانية مستقلة. في الأشهر الأولى لعام 1821 بلغ عدد أعضاء الجمعية ألف عضو. كان ثمة تجار ورجال دين وإداريون من الإمبراطورية العثمانية من فناري وآخرون بين أعضائه. لم تكن الإمبراطورية العثمانية جاهزة عندما بدأت الثورة اليونانية في موريا عام 1821. انتشرت باتجاه وسط وجنوب اليونان خلال وقت قصير. طلب السلطان محمود من حاكم مصر المساعدة. وافق محمد علي باشا على إرسال جيشه إلى اليونان مقابل ضم جزيرة كريت والبيليبوينز إلى السيادة المصرية، وقبل السلطان العثماني. عندما كان العثمانيون على وشك السيطرة على الثورة اليونانية بالمساعدة المصرية تدخلت القوى الأوروبية لصالح اليونان.

كانت حرب الاستقلال اليونانية أول أزمة في القرن التاسع عشر سببت تدخلاً أوروبياً: بمبادرة من القادة الميدانيين، وموافقة ضمنية من حكوماتهم هاجمت الأساطيل الروسية والفرنسية والبريطانية الأسطول العثماني والمصري، ودمروهما في معركة نافارينو في تشرين الأول عام 1827. كانت تلك اللحظة حاسمة في معركة الاستقلال. بقيت فرنسا وبريطانيا صامتتين إزاء استيلاء روسيا على الأفلاق ومولدافيا مرة أخرى، وتقدم القوات الروسية إلى ما بعد أدرنة، المنطقة الشرقية من الأناضول. معاهدة السلام في أدرنة لعام 1829 أنهت الحرب. اكتسبت السفن التجارية الروسية حرية المرور من الدردنيل، وتنازلت روسيا عن المناطق التي حصلت عليها وضُمِن الاستقلال اليوناني. قَبِل العثمانيون بتأسيس إمبراطورية اليونان المستقلة. سجل هذا الحدث تفككاً تدريجياً للإمبراطورية العثمانية كما بدأ غير الأتراك في الإمبراطورية حركاتهم التحررية.

القضية المصرية

أسس محمد علي جيشاً وأسطولاً حديثين في مصر بمساعدة فرنسا التي أرادت أن تواجه النفوذ البريطاني في الشرق الأوسط. احتل سوريا عام 1831، ولاحق الجيش العثماني المتقهقر داخل الأناضول عندما لم يُكافأ كما وُعِد بسبب مساعدته خلال الثورة اليونانية. وفي يأس أدى إلى تهور ناشدت الحكومة العثمانية روسيا للدعم. بعد ذلك تدخلت بريطانيا لإجبار محمد علي على الانسحاب من الأناضول إلى سوريا. الثمن الذي دفعه السلطان لروسيا بسبب مساعدتها كانت معاهدة هنكار إسكالة سي لعام 1833. بموجب هذه المعاهدة يغلق مضيقا البوسفور والدردنيل في وجه سفن القوى البحرية الأخرى بطلب روسي.

من المثير للاهتمام أن نلاحظ هنا مناشدة الإمبراطورية العثمانية الروس للمساعدة ضد ثورة أحد حكامها المحليين. عزز هذا تدخل القوى الأوروبية في شؤون الإمبراطورية العثمانية الداخلية. أعلنت فرنسا وبريطانيا القلقتان من رؤية روسيا تخترق الحكومة العثمانية أنهما لا تقبلان بأي تغيير في وضع المضائق التركية (البوسفور والدردنيل). وبالتالي ظهرت قضية المضائق بالإضافة إلى القضية المصرية. عند استئناف محمد علي الحرب عام 1839، قدمت القوى الأوروبية الخمسة بقيادة بريطانيا (التي كانت قلقة من التدخل الروسي) مذكرة للحكومة العثمانية بهدف التوصل إلى اتفاقية مع مصر. وبالتالي تحولت مشكلة الإمبراطورية العثمانية الداخلية إلى قضية عالمية. بعد أن هزم محمد علي العثمانيين مرة أخرى وقّعوا معاهدة مع البريطانيين سميت معاهدة بلطة ليمان، التي منحت البريطانيين

فوائد سياسية واقتصادية مقابل دعم للحكومة العثمانية. بموجب اتفاقية لندن عام 1840 أُجبِر محمد علي على التخلي عن سوريا، ولكن اعترف به حاكماً ووراثياً لمصر تحت السيطرة العثمانية اسمياً. بموجب اتفاقية سياسية إضافية عام 1841 تعهدت الحكومة العثمانية بإغلاق المضائق في وجه كل السفن الحربية كلها للقوى كافة.

محمود الثاني والإصلاحات المدنية

على الرغم من مواجهة الإمبراطورية العثمانية مشاكل داخلية وخارجية حرجة، نفّذ محمد الثاني إصلاحات حاسمة في عهده. بدأ بإنهاء الإنكشارية عام 1826 حيث رآها عائقاً أمام الإصلاحات اللازمة. بعد ذلك وضع أسس بناء مؤسسات الدولة العثمانية الحديثة. أرسل السلطان طلاباً إلى أوروبا بهدف تلقيهم تدريبات عسكرية حديثة. بعد تأسيس مدارس طبية وعسكرية أحضر مرشدين ومختصين من أوروبا لرفع مستوى التعليم. لأول مرة في التاريخ العثماني باستثناء العصر الزنبقي ظهرت مؤثرات أوروبية في الفنون والثقافة العثمانية. أعيد تنظيم ملابس الضباط والإداريين العثمانيين بما يتوافق مع الأسلوب الأوروبي. تحول الديوان إلى نظام مجلس الوزراء. بُسّطت إدارة الحكومة وقويت ضمن سلسلة الإجراءات الهامة الأخرى. ألغي عدد ضخم من المكاتب العاطلة عن العمل، وأعطى السلطان مثال الشخصية القيمة ذات الحس السليم والتدبير الجيد من خلال إعادة تنظيم الأسرة الإمبراطورية، وألغيت بلا رحمة الألقاب التي لا مهمات لها، ورواتب الضباط دون وظائف.

اعتبر المؤرخون العثمانيون إصلاحات محمود الثاني مشروع تحول حضاري. لذلك قارنه المؤرخون الغربيون

مع بطرس الأكبر قيصر روسيا (الذي أجرى إصلاحات جذرية) وسمّوا السلطان (بطرس العثماني الأكبر). اعتبر بعض المؤرخين الأتراك محمود الثاني أعظم سلطان عثماني بعد سليمان الأول، لأن إصلاحاته وضعت أسس الجمهورية التركية.

مرحلة التنظيمات

التنظيمات مرحلة إصلاح بدأت عام 1839 بإعلان السلطان عبد المجيد (1839–1861) مرسوماً سمّي (تنظيمات فرمانِ). حضّر فرمان التنظيمات مصطفى رشيد باشا الذي كان من المتعاطفين مع بريطانيا وقدّمه للسلطان محمود. قَبِل السلطان الجديد بالتنظيمات بعد وفاة محمود. وحّدت التنظيمات الإصلاحات ووضعتها حيز التنفيذ بإدارة محمود الثاني. ضمنت التنظيمات للشعب العثماني أمن حياته وكرامته وممتلكاته، كما ضمنت المساواة في جمع الضرائب وحق التملك لأي شخص، وتأسست محكمة للدفاع عن تلك الحقوق.

قد يبدو أن هدف الإصلاحات كان الحصول على الدعم الغربي في مواجهة التهديد الداخلي وليس التهديد الخارجي فقط. ولكن ينبغي أن لا يغيب عن البال أن فرمان التنظيمات أُقِر قبل فترة طويلة من الإصلاحات. ما أراده العثمانيون كان منع تقطيع أوصال الإمبراطورية. لذلك فإن الإصلاحات هدفت لتشجيع العثمنة في الدول الانفصالية وإيقاف نهوض الحركات القومية داخل الإمبراطورية. على الرغم من محاولة دمج غير المسلمين وغير الأتراك في المجتمع العثماني بقوانين جديدة وإصلاحات فشلت هذه المحاولات.

حاولت القوى الأوروبية الاستفادة من التنظيمات لأهدافها الخاصة. كانت التنظيمات بالنسبة إليها فرصة

للتدخل بشؤون الإمبراطورية العثمانية. طالبت القوى الأوروبية بضرورة توسيع حقوق المسيحيين أكثر في الإمبراطورية العثمانية. يمكن بعد ذلك أن يُستخدم المسيحيون لإضعاف مكانة الإمبراطورية العثمانية لصالح القوى الأوروبية. بحسب القوى الأوروبية فإن المسيحيين في الإمبراطورية العثمانية ليس لديهم حرية كافية، ولم تلب التنظيمات مطالبهم. وبالتالي فإن الضغط الأوروبي المتواصل على العثمانيين أجبر الحكومة العثمانية على تقديم حقوق جديدة لغير المسلمين عام 1856 مع إعلان فرمان الإصلاح. ألغيت الضريبة التي تفرض تعرفة أعلى على غير المسلمين، وسمح لغير المسلمين بأن يصبحوا جنوداً، وصدرت أحكام مختلفة لإدارة أفضل خدمة للإمبراطورية، وطورت التجارة. لا شيء من هذا أرضى القوى الأوروبية واستمرت في ضغطها على الإمبراطورية العثمانية حتى انهارت.

بدأت بريطانيا العظمى تتدخل في شؤون الإمبراطورية العثمانية الداخلية وسياستها الخارجية. أصبح الوضع البريطاني أمام الحكومة العثمانية أقوى بمعاهدة بلطة ليمانِ ودورها في إعلان التنظيمات. اعتقد رجال الدولة العثمانية -خاصة مصطفى رشيد باشا- بأن الدولة العثمانية لن تكون آمنة ما لم تقضِ على التهديد الروسي. لهذا السبب تحالفت الحكومة العثمانية مع بريطانيا وفرنسا. أتى سوء الحساب هذا عندما فرضت روسيا سلسلة طلبات غير مقبولة على الحكومة العثمانية مما أدى إلى حرب كبرى مع روسيا سميت حرب القرم (1854–1856). أثناء انشغال الإمبراطورية العثمانية بإصلاحات التنظيمات، كانت القوى الأوروبية ما عدا روسيا تكافح التمردات بين عامي (1830-18348). حاولت هذه التمردات تحويل

النظام الاجتماعي الأوروبي ورسم حدود للدول الأوربية. دخلت روسيا في قيادة معالجة المسألة الشرقية لمصالحها مستغلة التمرادات الأوروبية.

كانت روسيا في الأصل مهتمة بالحصول على أرض، فاستولت على دول آسيا الوسطى الإسلامية بهدوء طوال القرنين السابع عشر والثامن عشر. وجدت روسيا نفسها قرب شواطئ البحر الأسود عام 1854. بسبب حرص روسيا على المناطق التي تم الاستيلاء عليها في أوروبا الشرقية وخاصة إقليمي مولدافيا وأفلاق العثمانيين، أشعلت حرباً بذريعة واهية: منح العثمانيون فرنسا الكاثوليكية حق حماية المواقع المسيحية في الأرض المقدسة (الموجودة تحت سيطرة العثمانيين) بدلاً من روسيا الأرثوذكسية. اعتبر الروس هذا مبرراً لشنهم حرباً على العثمانيين. شكلت فرنسا وبريطانيا والإمبراطورية العثمانية تحالفاً ضد روسيا. انتهت حرب القرم بعد ثلاث سنوات بمعاهدة باريس عام 1856 التي تخلت روسيا بموجبها عن حماية المسيحيين الأرثوذكس في الإمبراطورية العثمانية وعن حقها بالتدخل في البلقان. علاوة على ذلك اتفق السلطان والقيصر على عدم تأسيس أي ترسانات عسكرية أو بحرية في البحر الأسود. كانت شروط البحر الأسود سيئة جداً لروسيا، لهذا قللت كثيراً من التهديد البحري الذي تشكله على الأتراك. علاوة على ذلك، تعهدت القوى العظمى باحترام استقلال أراضي الإمبراطورية العثمانية وسلامتها. ولكن سرعان ما اتضح أن تلك مجرد كلمات فارغة. ظلت معاهدة باريس قائمة حتى عام 1871 عندما هُزمت فرنسا أمام الدول الألمانية في الحرب الفرنسية البروسية. أثناء توحد بروسيا وعدة دول ألمانية أخرى لتشكل إمبراطورية ألمانية قوية،

خُلع إمبراطور فرنسا نابليون الثالث، وتشكلت الجمهورية الفرنسية. وبتغيير توازن القوى الأوروبية بظهور دولتين قويتين في أوروبا هما إيطاليا وألمانيا، تنكرت روسيا لشروط معاهدة باريس فيما يتعلق بوجودها في البحر الأسود. بعد ذلك قررت حل قضية البلقان لصالحها.

أشارت المشاكل التي واجهتها الإمبراطورية العثمانية بعد حرب القرم إلى قرب نهاية الإمبراطورية. على الرغم من عدم دخول الإمبراطورية العثمانية الحرب حتى عام 1877، فقد جرتها الثورات والصراعات الحادة في أجزاء مختلفة منها والديون الزائدة التي أفلست اقتصادها إلى شفا الانهيار. الصراع بين المسلمين والمسيحيين في جدة عام 1858 وفي لبنان بين (1860–1861) الذي أثاره الفرنسيون والبريطانيون أدى إلى تدخل أجنبي انتهى بتأسيس قيادة متميزة في تلك الدول. اتحدت أفلاق وبوغدان عام 1861 لتشكلا إمارة رومانيا. سجل تمرد جزيرة كريت المدعوم من اليونان بداية استقلال الجزيرة عن الإمبراطورية العثمانية. نهجت روسيا سياسة خارجية تعتمد على الحركة القومية السلافية التي دعت لتضامن الشعوب السلافية والأرثوذكسية كلها بقيادة روسيا. أثارت هذه السياسة تمردات في الهرسك عام 1875، ثم في بلغاريا عام 1876. تبع ذلك إعلان صربيا والجبل الأسود (مونتينيغرو) الحرب. دعاية الاستجابة العثمانية نحو التمردات في بلغاريا انتشرت في أوروبا باسم (الوحشية التركية). أجج هذا العواطف ضد الأتراك بين الجمهور البريطاني مما خدم الهدف الروسي.

العصر الدستوري الأول (المشروطية) (1876–1908)

طفح الجمهور التركي بالغضب لقتل العديد من الأتراك في البلقان أثناء التمردات القومية وترحيلهم.

وسط تلك الأحداث خَلَعَ الوزراء السلطان عبد العزيز (1861–1866) في 1876/5/30. خلفه مراد الخامس الذي خُلع أيضاً بعد ثلاثة أشهر بسبب خلل في عقله. جلس عبد الحميد الثاني (1876–1909) على العرش، ووعد بعمل دستور. كان عبد الحميد الثاني آخر سلطان عثماني حكم دون قوة منازعة. بالرغم من أن ثورة تركيا الفتاة حدثت بعد عزله عام 1908، فإن العديد من العثمانيين يعتبرون مفخرة عبد الحميد الثاني هي تأخيره انهيار الإمبراطورية العثمانية الذي لا مفر منه بضعة عقود على الأقل. وحّد الإمبراطورية العثمانية بأساليبه الاستبدادية ومناوراته الدبلوماسية الماكرة حيث تلاعب بالقوى أوروبية ضد بعضها بعضاً.

أثناء احتداد التوتر في البلقان عقدت القوى الأوروبية مؤتمراً في اسطنبول بهدف إعطاء حكم ذاتي للبوسنة والهرسك وبلغاريا. أعلن عبد الحميد الثاني دستوراً تجنباً لآثار المؤتمر. رفضت القوى الأوروبية في المؤتمر الدستور لكونه تافهاً. استمرت روسيا بحشد الطاقات للحرب التي أعلنت في 1877/4/24. في بداية الحرب دمرت روسيا السفن كلها على طول نهر الدانوب، ثم سارت باتجاه بلغاريا. نظّم عثمان باشا دفاعاً مدهشاً عند وصولها إلى بلفن، وصد هجمتين روسيتين موقعاً خسائر ضخمة في الجانب الروسي. فشلُ دفاع بلفن البطولي أخيراً سمح للروس بالسير باتجاه اسطنبول. استمرت روسيا بتحركها نحو اسطنبول على الرغم من قبولها الهدنة التي عرضها الأتراك في كانون الثاني عام 1878. قتلوا في طريقهم آلاف الأطفال والنساء والشيوخ الأتراك بمساعدة العصابات البلغارية. في أعقاب تلك الفظائع بدأ العديد من الأتراك بالهجرة من البلقان باتجاه

اسطنبول والأناضول. بعد ذلك وافقت روسيا على التسوية بمعاهدة سان ستيفانو في 1878/3/3. اعترفت الإمبراطورية العثمانية باستقلال رومانيا وصربيا والجبل الأسود، وبحكم ذاتي لبلغاريا بموجب هذه المعاهدة. فرضت القوى العظمى لاحقاً تغييرات في المعاهدة في مؤتمر برلين نتيجة القلق من توسع النفوذ الروسي في البلقان. التحول الرئيس الذي حدث في برلين كان تقسيم بلغاريا بين القوى العظمى لمنع خلق دولة سلافية جديدة كبرى. أصبحت أجزاء بلغاريا الشمالية والشرقية ولايات منفصلة بحكّام مختلفين كما كانت من قبلٍ (إمارة بلغاريا وروملي الشرقية). أعاد مؤتمر برلين أيضاً منطقة مقدونيا (في الأصل هي جزء من بلغاريا بموجب معاهدة سان ستيفانو) إلى الإدارة العثمانية المباشرة. اقترحت معاهدة برلين أيضاً بعض الإصلاحات لمصلحة الأرمن العثمانيين.

أدركت قوى معاهدة برلين العظمى أن الإمبراطورية العثمانية ضعيفة جداً بحيث لا يمكنها الدفاع عن نفسها ضد حركات الاستقلال التي تتطور ضمن حدودها. بعد ذلك تنكرت هذه القوى لاحترام سلامة مناطق الإمبراطورية العثمانية. استقرت بريطانيا العظمى في قبرص عام 1878، واحتلت تونس مؤقتاً عام 1881. توحدت روملي الشرقية مع بلغاريا عام 5881. أثار اليونانيون تمرداً في جزيرة كريت مما أدى إلى حرب مع اليونان انتهت بانتصار الأتراك عام 1897، ولكن إدارة مستقلة أنشئت هناك نتيجة التدخل الروسي والبريطاني.

بمعزل عن هذه الخسائر، أجبرت العوائق المالية المحرجة عبد الحميد الثاني على قبول إدارة الأجانب

للدين الوطني. في مرسوم صادر في كانون الأول عام 1881، سُلّم قسم كبير من واردات الإمبراطورية العثمانية لإدارة الدَّين العام بما يفيد بشكل خاص مالكي السندات الأجانب. بعد أن أصبح لبريطانيا العظمى سبباً مشتركاً مع الحلف الثلاثي (فرنسا وروسيا) ضد الإمبراطورية العثمانية إثر معاهدة برلين، اتصل عبد الحميد بألمانيا كصديقة محتملة للإمبراطورية. استضاف عبد الحميد القيصر وليم الثالث مرتين في اسطنبول، الأولى في 1889/10/21 والثانية بعد تسع سنوات في 1898/10/5. كان الضباط الألمان مثل البارون فون دير غولتز يشرفون على إعادة تنظيم الجيش العثماني. استقدم مسؤولو الحكومة الألمان لإعادة تنظيم أموال الحكومة العثمانية. مُنحت سكة بغداد الحديدية للألمان الذين كانوا يطمحون بها عام 1899. كان هذا جزءاً من سياسة عبد الحميد الخارجية التي حاولت التلاعب بقوة ضد أخرى. رغبة القيصر بتوسيع النفوذ الألماني عبر الشرق الأوسط أنتجت نفوذاً ألمانياً قوياً على الحكومة العثمانية.

نشوء القضية الأرمنية

وضعت معاهدة برلين القضية الأرمنية في جدول أعمال القوى العظمى. احتمال أن تؤدي إلى تقطيع أوصال منطقة الأناضول حقيقة جعلها قضية ذات أهمية كبرى لروسيا وبريطانيا اللتين لهما مصالح متنافسة في الشرق الأوسط. احتاجت روسيا تعاون الأرمن بهدف الوصول إلى الشرق الأوسط وبلاد ما بين النهرين. كما احتاجت بريطانيا العظمى تعاون الأرمن لمنع النفوذ الروسي من الوصول إلى الجنوب. ظهرت القضية الأرمنية بسبب بدء الأرمن أنشطة إرهابية في شرق

الأناضول بتحريض روسيا وبريطانيا العظمى. وقُدم هذا الاستفزاز بذريعة الإصلاحات المقترحة في معاهدة برلين.

عاشت المجتمعات الأرمنية والتركية والمسلمة في الإمبراطورية العثمانية معاً بشكل سلمي جداً حتى بدأت القوى الإمبريالية بإظهار مصالحها في المنطقة. مع تدخل القوى الإمبريالية جاء تكاثر التنظيمات الإرهابية والسياسية الأرمنية. في الواقع تأسست التنظيمات الأرمنية المحلية في أضنة ووان وموش في مطلع ستينيات القرن التاسع عشر. توحدت هذه التنظيمات عام 1880 لتشكل المنظمة الأرمنية الموحدة. في ثمانينيات القرن التاسع عشر تأسست بعض التنظيمات الأرمنية الثورية الأخرى كذلك مثل الصليب الأسود والجمعيات الأرمنية في وان والحرس الوطني في أرضروم.

بإدراك أنها ستكون أكثر تأثيراً في الخارج بدعم القوى العظمى النشط والموجه، قرر القوميون الأرمن توسيع تنظيماتهم خارج الإقليم العثماني. أسسوا لجنة هينشاك في جنيف عام 1887، ولجنة طاشناق في تبليسي عام 1890. أعلنت اللجنتان هدفهما الأساسي لتصبحا «حركة تحرير مناطق شرق الأناضول والأرمن العثمانيين». بدأت أعمال الشغب الأرمنية بعد وقت قصير من تأسيس تلك البنيتين السياسيتين الفعالتين.

اندلع أربعون تمرداً أرمنياً أو نشاطا إرهابياً تقريباً في عقدين بين عامي 1889 و1909. تورطوا بعدة أعمال عنف في اسطنبول. حاولوا اغتيال السلطان عبد الحميد عام 1905. نجا السلطان بالحظ. أدت تدابير الحكومة العثمانية لتدخل القوى العظمى. ازدادت خطورة القضية الأرمنية أثناء الحرب العالمية الأولى.

ترميم الدستور (استعادة الدستور) عام 1908

بدأت معارضةُ عبد الحميد عندما عطّل الدستور في أيار عام 1878. نمت هذه المعارضة في السنوات الأولى من القرن العشرين. جمعية الاتحاد والترقي من معارضيه الشديدين. انبثقت هذه الجمعية من تنظيم تركيا الفتاة وأرادت استعادة الملكية الدستورية. لاقت الجمعية قبولاً لدى الضباط الذين جعلوا الحركة أقوى بمشاركتهم. لذلك انتقل معارضو الجمعية الموجودين في الخارج إلى الإمبراطورية العثمانية. في أواسط عام 1908 حضر فرع سالونيك للجمعية ثورةً استجابةً لآثار القضية المقدونية. اعتقدوا أن إصلاح البلقان كان الطريق الوحيد لمنعهم من مغادرة الإمبراطورية العثمانية. عندما ثارت الجمعية في سالونيك بهدف استعادة الدستور فشلت محاولة السلطان بقمع هذه الثورة نظراً لشعبية الحركة بين القوات نفسها. انتشر التمرد بسرعة. أعلن عبد الحميد استعادة الدستور في 1908/7/23. في 1909/4/13 اندلع تمرد مكافحة الملكية الدستورية في اسطنبول. قمع جيش الحركة مكافحة التمرد هذه. اتهم عبد الحميد بدعم مكافحة التمرد وتم خلعه. خلفه أخوه محمد رشيد (محمد السادس). شغل محمد السادس منصب السلطان بين عامي (1918-1909). ولكنه في الحقيقة كان قائداً ضعيفاً. بعد إعادة الدستور أصبحت الجمعية حزباً سياسياً نافذاً بأغلبيةٍ في البرلمان بين عامي (1913-1908). بقيت الشخصيات غير الحزبية من مرحلة ما قبل الثورة تدير مجلس الوزراء العثماني على الرغم من الانتخابات البرلمانية. أصبحت الشخصيات غير الحزبية تلك هدفاً للجمعية. في 1913/1/23 وصلت الجمعية إلى السلطة بانقلاب سمّي (مداهمة الباب العالي). استولت الجمعية

وقادتها أنور باشا وجمال باشا وطلعت باشا على السلطة خلال السنوات الأخيرة للإمبراطورية العثمانية.

لم تمنع الملكية الدستورية تقطيع أوصال الإمبراطورية العثمانية كما ادّعت تركيا الفتاة وجمعية الاتحاد والترقي. بعد إعادة الدستور بوقت قصير سيطرت النمسا على البوسنة والهرسك في 1908/10/5. في اليوم التالي أعلنت بلغاريا استقلالها. سيطرت اليونان على جزيرة كريت في 1911/5/9. استغلت إيطاليا الوضع وغزت طرابلس (وهي ما يعرف اليوم ليبيا) بدعم من القوى العظمى في 1911/9/29. بدعم محلي نجحت القوات التركية بقيادة مصطفى كمال باشا وأنور باشا بصد الإيطاليين مدة سنة تقريباً. بعد ذلك احتلت إيطاليا جزر دوديكانيسا بهدف اختراق المقاومة التركية. وقّع العثمانيون أخيراً معاهدة أوشي مع إيطاليا في 1912/11/15. لم يُجبر العثمانيون على توقيع هذه المعاهدة بسبب نجاح الجيش الإيطالي، بل بسبب بدء حرب البلقان ذات الأهمية وضرورة سرعة اهتمامهم. أعطت معاهدة أوشي الإيطاليين ملكية طرابلس وجزر دوديكانيسا.

حروب البلقان (1912–1913)

أثناء احتلال الدولة العثمانية وطرابلس، وضعت روسيا حداً نهائياً للسلطة العثمانية في البلقان. حرضت روسيا دول البلقان على مدى سنوات لتتمرد ضد السيادة العثمانية. في ربيع 1912 شكّلت مختلف دول البلقان المسيحية تحالفاً عسكرياً عرف بتحالف البلقان. في أواخر أيلول حشد كل من التحالف والإمبراطورية العثمانية جيشهما. بعد إطلاق إنذار مستحيل للحكومة العثمانية أعلن الجبل الأسود الحرب على الإمبراطورية

العثمانية في تشرين الأول عام 1913. اتّبعت ثلاث دول بلقانية أخرى لاحقاً نموذج الجبل الأسود. هُزمت القوات العثمانية أمام تحالف البلقان. كان الانشقاق داخل الجيش السبب الرئيس للهزيمة. وصلت القوات البلغارية إلى تشاطلجا وهي منطقة من اسطنبول. سيطرت اليونان على سالونيك واستولت صربيا على مناستر. بعد ذلك عُقد مؤتمر سلام في لندن بتاريخ 1913/11/29. أرادت الحكومة العثمانية من القوى العظمى أن تسوي الخلاف. اعترفت القوى العظمى باستقلال ألبانيا في 1913/12/17. أجبرت الإمبراطورية العثمانية أيضاً على التخلي عن روملي من ضمنها تراكيا الشرقية وجزر إيجة في البلقان. خلال هذا الوقت استلم حزب الاتحاد والترقي السلطة في الإمبراطورية العثمانية بانقلاب في 1913/1/23. في نهاية المؤتمر استلمت بلغاريا القسم الشمالي من تراكيا بين إينوس على بحر إيجة وميديا على البحر الأسود. كانت هذه خسارة عظيمة للإمبراطورية العثمانية وخلقت مشاعر سيئة لدى الأتراك.

نتيجة شروط معاهدة لندن، وبسبب المكاسب الهائلة في بلغاريا اندلعت حرب البلقان الثانية بين الأطراف المتحاربة في حزيران 1913. اتُفق على سلام نهائي في معاهدة بخارست في 1913/8/12. استعاد العثمانيون معظم خسائرهم من حرب البلقان الأولى بالمعاهدات المتعاقبة مع بلغاريا واليونان. الحدود الحالية بين الجمهورية التركية واليونان رُسمت في ذلك الوقت.

كانت حروب البلقان إحدى الكوارث الكبرى التي واجهت الأتراك في تاريخهم. خمسة قرون من السيطرة التركية على روملي شارفت على الانتهاء ما عدا تراكيا

الشرقية. رُحِّل آلاف الأتراك من روملي إلى الأناضول. وضعت الهجرة العثمانيين في موقف صعب جداً حيث واجهوا توتراً اقتصادياً هائلاً. بقي الأتراك الذين يعيشون في البلقان مميزين اجتماعياً واقتصادياً.

4. الانحلال

الحرب العالمية الأولى: آخر حروب الإمبراطورية العثمانية

في 1914/6/28 قُتل الأرشيدوق فرانز فرديناند على يد طالب صربي بوسني في سراييفو. ورث الأرشيدوق فرديناند عرش الإمبراطورية النمساوية المجرية (الهنغارية). كان قاتله عضواً في تنظيم البوسنة الفتاة الذي شملت أهدافه توحيد سلافية الجنوبية والاستقلال عن الإمبراطورية النمساوية المجرية. عملية القتل في سراييفو أججت سلسلة أحداث متسارعة تصاعدت إلى حرب واسعة النطاق. أعلنت الإمبراطورية النمساوية المجرية الحرب على صربيا بذريعة تعمد صربيا عدم معاقبة المسئولين عن عملية القتل. بسبب اتفاقيات الدفاع المشترك المتداخلة، وطبيعة التحالفات العالمية المعقدة، دخلت القوى الأوربية العظمى في الحرب في غضون أسابيع. ولكن للصراع أيضاً أسباب معقدة أخرى.

انخرطت قوى الحلفاء (فرنسا وبريطانيا وروسيا) في الحرب بسرعة عندما أعلنت ألمانيا (قائدة دول المحور) الحرب على روسيا في 1914/8/1. كانت ألمانيا قوة عالمية ناشئة بدأت تطمع بأملاك بريطانيا العظمى فيما وراء البحار. شكلت بريطانيا قضية مشتركة مع روسيا في الساحة العالمية لتدافع عن نفسها ضد الطموح الألماني. هذا يعني أن بريطانيا وافقت على الأهداف التاريخية الروسية في البلقان والمضائق التركية مقابل الاعتراف

الروسي بمصالح بريطانيا الإستراتيجية في الشرق الأوسط. هدد التحالف بين بريطانيا وروسيا سلامة أراضي الإمبراطورية العثمانية بشدة. على الرغم من كل هذا كان وضع الإمبراطورية العثمانية في المرحلة الأولى من الحرب غامضاً جداً. بالرغم من تحالف الإمبراطورية العثمانية مع ألمانيا المؤرخ منذ معاهدة برلين عام 1878، سعى قادة حزب الاتحاد والترقي الذي استلم السلطة منذ عام 1913 (أنور باشا وجمال باشا وطلعت باشا) إلى إقامة تحالف مع بريطانيا لصد الضغط الروسي. وجد قادة حزب الاتحاد والترقي أيضاً أن المصالح الألمانية في الأراضي العثمانية مفرطة جداً. ولكن لا بريطانيا العظمى ولا فرنسا قبلت العرض العثماني بالتحالف. سعى طلعت باشا أيضاً للتحالف مع روسيا لكنه فشل. اعتقدت الحكومة العثمانية أن قوى الحلفاء وافقت على تقسيم الإمبراطورية العثمانية في حرب كبرى. لذلك تحالف حزب الاتحاد والترقي (الذي تعاطف أنصاره مع الألمان) مع فيلهلم الثاني في 1914/8/2. ومن المثير للاهتمام ملاحظة طلب الحكومة العثمانية سفينتين حربيتين (السلطان عثمان ورشادية) من بريطانيا عام 1911. جمعت الحكومة العثمانية الهبات المُقدمة من شعبها ثمن تينك السفينتين. ومع ذلك تعمدت بريطانيا تأجيل تسليم السفينتين، واستولت عليهما في 3 آب. من الواضح أن بريطانيا لم تكن تريد أن تُستخدم السفينتان ضدها.

دخول العثمانيين في الحرب العالمية الأولى

في الواقع أن المجلس العثماني وغالبية الناس لم يرغبوا بالدخول في الحرب. ولكن قادة الحزب الحاكم حرصوا على الوقوف بجانب دول المحور للاعتقاد بأن هذا يمكن أن يحول دون تقطيع الحلفاء أوصال

الإمبراطورية. الحدث الذي أدى إلى دخول الإمبراطورية العثمانية الحرب العالمية الأولى كان إعطاؤها اللجوء لسفينة «جيوبين» الحربية ألمانية ذات 19,000 طن، وسفينة «بريسلاو» الخفيفة ذات 5,000 طن. أعلنت الإمبراطورية العثمانية أنها اشترت تينك السفينتين، وأسمتهما «ياووظ» و»ميديللي». اعتقدت الإمبراطورية العثمانية ربما أن تينك السفينتين كانتا بدلاً (للسلطان عثمان ورشادية). لفترة قصيرة قصفت تانك السفينتين الميناءين الروسيين سيفاستوبول وأوديسا في 1914/10/29 بقيادة الأميرال سوخون دون إذن البرلمان العثماني أو مجلس الوزراء. كان هذا تحرشاً خطط له الألمان بهدف إدخال الدولة العثمانية في الحرب. يمكن لدخول العثمانيين في الحرب أن يخفف ضغط الحلفاء على الجبهات الشرقية والغربية حيث بدأت القوات الألمانية (والنمساوية المجرية) تعاني من نكسات خطيرة في مارن وغاليسيا. بعد هذا الحدث أعلنت روسيا الحرب على الإمبراطورية العثمانية في 3 تشرين الثاني وبريطانيا وفرنسا في 5 تشرين الثاني. وهكذا وجد العثمانيون أنفسهم في الحرب. دعا السلطان العثماني للجهاد في 23 تشرين الأول لكل المسلمين بما في ذلك أولئك الذين يعيشون في روسيا وبريطانيا وفرنسا. هذه هي الحرب التي أرادتها ألمانيا، حيث أن ثورة الشعب المسلم في المستعمرات (خاصة في الهند) يمكن أن تضع أعداءها في مشكلة كبيرة. ينسحب هذا على روسيا أيضاً التي تضم عدداً كبيراً من المسلمين الذين يجب أن تقلق منهم.

قاتل الجيش التركي في عدة جبهات في وقت واحد: القوقاز والعراق والدردنيل ومصر واليمن ومقدونيا. في بداية الحرب أمر رئيس الأركان أنور باشا القوات

التركية بالسير إلى القوقاز بهدف تطويق روسيا. ولكن ما يقارب تسعين ألفاً من الجنود الأتراك ماتوا نتيجة للخطة السيئة. كانت معظم الخسائر بسبب جهل ظروف الشتاء وصقيعه ونقص اللباس والجوع والمرض عندما تسلقوا جبل الله أكبر في طريقهم لمواجهة القوات الروسية. في النهاية سيطرت القوات الروسية على مدن ملازكرد ووان وإرزنجان أرضروم وطربزون في شباط عام 1916. ثار الأرمن الذين يعيشون في المنطقة على الإمبراطورية العثمانية ونفذوا مذبحة منهجية ضد الشعب المسلم والتركي هناك بتشجيع من روسيا. الواضح من المصادر المدنية والأرشيف أن الشعب العثماني الأرمني اشترك بعدد معقول وتورّط في أنشطة لتسهيل غزو الأعداء.

القضية الأرمنية عام 1915

إزاء التمردات المتعددة التي بدأت بعد 1890، وتبعتها فوراً المجزرة الأرمنية التي تسببت في قتل عشرات ألوف الأتراك أبلغت الحكومة العثمانية أهم شخصيات الطائفة الأرمنية والنواب الأرمن: «الحكومة ستتخذ الإجراءات اللازمة إذا استمر الأرمن بطعن الأتراك في الظهر واغتيالهم». بالنسبة إلى الحكومة العثمانية فإنه أصبح من الضروري ضمان أمن حدودها حيث أنها انخرطت في الحرب على مختلف الجبهات. لم تتوقف الأحداث بل تصاعدت، كما تصاعدت الاعتداءات على النساء والأطفال الأتراك العُزّل. لذلك قررت الحكومة العثمانية تهجير الأرمن المشاركين في الثورة إلى مكان أكثر أماناً يسمى سوريا ولبنان الذي كان جزءاً من الإمبراطورية العثمانية. من المهم الإشارة إلى أن كلمة تهجير العربية الجذر لا تعني نفياً أو منفى بالتأكيد. وبالتالي القانون

المعروف باسم قانون التهجير هو «تدابير عسكرية تتخذ مؤقتاً مع الذين يقاومون الإجراءات الحكومية». إثر قرار التهجير تُرك للسلطات المحلية على طول الطريق حماية حياة الأرمن وممتلكاتهم، وتوفير احتياجاتهم كالطعام والشراب وما إلى ذلك. صدر مرسوم يسمح للأرمن المُهجّرين بأخذ كل ممتلكاتهم ويمكن لمعداتهم التي تتعلق بالإنشاء أن تُجهز وتُسلم للسلطات المعنية.

الأمر مزعج، ولكنه تدبير عسكري لا مفر منه اتّخذته الحكومة العثمانية التي كانت في حرب كبيرة. لا يمكن لأي قوة أن تبقى لا مبالية عندما تواجه وضعاً مشابهاً. كانت الهجرة أيضاً اقتراحاً مُلحّاً من رئيس هيئة الأركان العامة الألمانية. في الواقع، أن أحد أسباب التهجير كان منع الصراع بين الأرمن والأتراك كردة فعل. ينبغي ألا ننسى أن قانون التهجير صدر عندما كانت القوات التركية تحارب في معركة الدردنيل، وهي إحدى المعارك التركية القاسية في الحرب الكبرى. استمرت عملية التهجير بشكل ناجح حيث نُقل معظم الأرمن بأمان إلى سوريا. بعض السلطات المحلية تصرفت بشكل غير مسئول كما هاجمت بعض العصابات الأرمن انتقاماً أثناء هجرتهم.

يكاد يكون من المستحيل أن نطلق على هذا الحدث (إبادة جماعية) كما ادعى الأرمن. صحيح أن ما حدث عام 1915 كان محزناً جداً للأرمن. ينبغي للمرء ألا ينسى معاناة الأتراك والمسلمين الآخرين في الأناضول نتيجة الاعتداءات الأرمنية. وهكذا فإن الأرمن والأتراك قتل كل منهما الآخر في هجوم متبادل.

يوجد نقطة أخرى تُنسى دائماً: عاش الشعبان معاً بسلام لمدة قرون تحت الحكم العثماني حتى أواسط

القرن التاسع عشر. عندما ظهرت مصالح القوى العظمى في المنطقة، تغيرت طبيعة العلاقات بين الأرمن والأتراك بشكل كبير. إذا أراد أحد إلقاء اللوم على جهة ما، فهي القوى الإمبريالية الغربية، لا الأتراك ولا الأرمن.

إذا نظرنا إلى الوضع الراهن للعلاقات الأرمنية التركية، فإن هناك عقبات أكيدة ودائمة في وجه التصالح وتفهم المشكلة. الأولى هي القضية السياسية. نشأت هذه القضية بمعظمها في الشتات الأرمني بمحاولة مهاجمة السياسيين الذين كانوا في الحقيقة معنيين بسياسة بلدهم وناخبيهم أكثر من اهتمامهم بالإبادة الجماعية الأرمنية من أجل تمرير قرارات ضد تركيا في مختلف البلاد. لم يؤد ذلك سوى إلى قرارات سياسية وسّعت الهوة بين الطرفين للمصالحات. المهم في هذه العملية هو تمهيد الطريق لتصفية التاريخ. لا يشكل إصدار قرارات الاعتراف بما يسمى إبادة جماعية أرمنية في برلمانات بعض بلدان الطرف الثالث دليلا تاريخياً على ما يسمى إبادة جماعية للأرمن، هذا عقّد القضية وجعلها سياسيةً أكثر. بالعودة إلى تلك النشاطات السياسية، استخدمت تركيا قوتها السياسية والاقتصادية والدبلوماسية للتخلص من تأثيراتها السلبية.

معركة أو حملة الدردنيل

هي إحدى المعارك الكبرى في الحرب التي نشبت في غاليبولي (تعرف باسم معركة تشنق قلعة في تركيا أو حملة الدردنيل في بريطانيا وفرنسا واستراليا ونيوزلندا). نفذت العملية القوات البريطانية والفرنسية المشتركة بمحاولة للاستيلاء أخيراً على عاصمة العثمانيين اسطنبول. سبب المعركة هو عمل الحلفاء طوال الحرب على فتح طريق إمدادٍ فعالٍ لروسيا التي كانت تشهد ثورةً

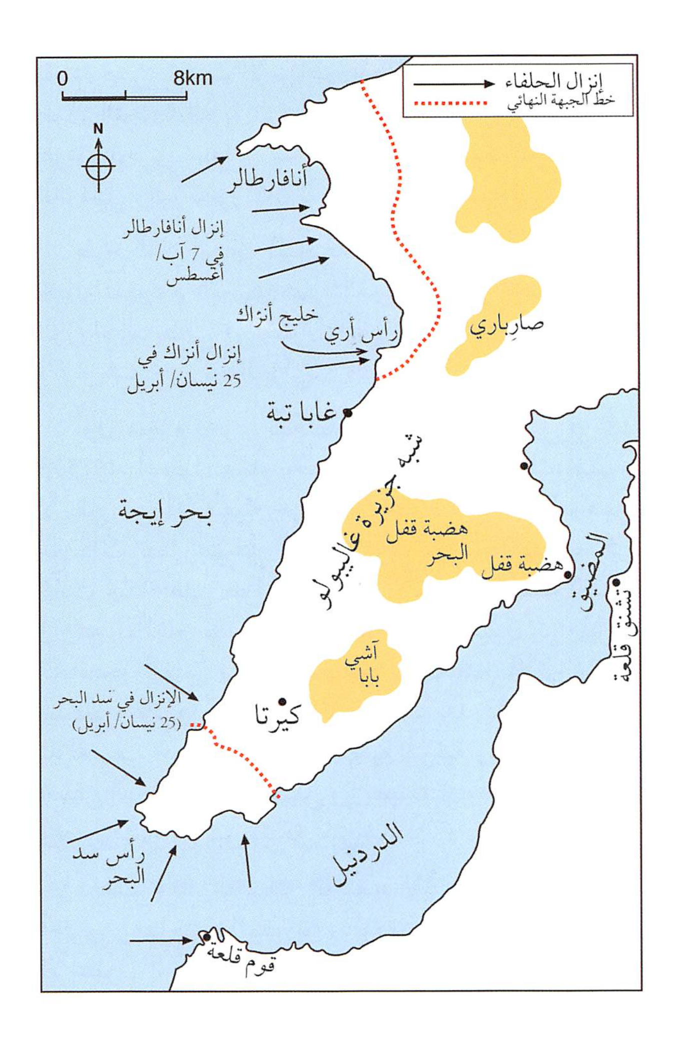
بقيادة لينين. سدّت الإمبراطورية الألمانية والنمسا والمجر طرق التجارة البرية الروسية إلى أوروبا، ولم يكن هناك طريق بحري سهل. مدخل البحر الأسود الوحيد عبر الدردنيل والبوسفور كان تحت سيطرة العثمانيين.

طرح أول أميرال للبحرية البريطانية ونستون تشرشل خطته للهجوم البحري على الدردنيل. قِبل أخيراً مجلس الوزراء البريطاني في كانون الثاني عام 1915 خطة الهجوم وغزو شبه جزيرة غاليبولي.

أول هجوم بحري للحلفاء أطلق على الدردنيل في 18/ 3/ 1915. أسطول هائل تحت قيادة الأميرال دوبيك يضم ما لا يقل عن 61 سفينة حربية حاولت التقدم عبر الدردنيل. مع ذلك تضررت كل السفن تقريباً بالألغام البحرية التي كانت ملقاة على طول الشواطئ الآسيوية بواسطة السفينة زارعة الألغام نُصرت. استخدم البريطانيون تراوليرمن ككاسحة ألغام. تراجع الحلفاء حيث فتح الأتراك النار عليهم وغادروا حقل الألغام بسلام. بعد ذلك تم إغراق ثلاثة سفن حربية بواسطة المدفعية التركية وهذه السفن هي السفن البريطانية إنفليكسيبل وإريسيستيبل والفرنسية سوفرن وتضررت غاولويس بشكل سيء.

دفعت هذه الخسائر الحلفاء لإيقاف أي محاولات أخرى لمهاجمة المضائق بالقوة البحرية فقط. هزيمة الأسطول البريطاني أعطت القوات التركية دفعة معنوية. بعد فشل الهجمات البحرية تقرّرَ أن القوات البرية ضرورية للقضاء على المدافع التركية المتنقلة.

في أوائل عام 1915 نزلت قوات المتطوعين الأستراليين والنيوزلنديين في مصر. شكّلت كتائب مشاة الجيش النيوزلندية والأسترالية (الأنزاك). وكان لدى



الجنرال هاملتون الفصيلان العاشر والتاسع والعشرين النظاميين، وهناك كتائب الاستطلاع الفرنسية الشرقية. بدأت قوات التحالف بغزو شبه جزيرة غاليبولي في 1915/4/25. لكنها لاقت مقاومة تركية لا يمكن

تصورها. في البداية لم تستطع القوات التركية إيقاف تقدم الغزاة، ولكنهم لم يتقدموا كما هو مخطط (تقدموا ثلاثة كيلومترات فقط في ثلاثة أشهر). بعد ذلك، في السادس من آب نزلت فرقتا مشاة للتحالف في سوفلا. مرة أخرى استطاع الأتراك بقيادة مصطفى كمال الفوز في سباق الأراضي المرتفعة لتلال أنافارطا مما جعل جبهة خليج سوفلا تواجه حالة أخرى من حرب الخنادق الساكنة. استمرت المعركة حتى نهاية كانون الأول دون أي نجاحات كبرى للحلفاء. ومن المفارقات أن الإخلاء الذي بدأ في كانون الأول كان أعظم نجاح لحملة الحلفاء. آخر قوة من قوات الحلفاء رحلت من غاليبولي في نهاية أول أسبوع من كانون الثاني 1916. في النهاية كان المصابون الأتراك حوالي 250 ألفاً وإصابات الحلفاء بلغت ما يقارب 150 ألفاً.

كانت معركة الدردنيل إحدى أشجع اللحظات في تاريخ الشعب التركي وأبهاها. كانت آخر موجة في الدفاع عن الوطن الأم حيث تهدّمت ما سميت في القرون السابقة الإمبراطورية العثمانية، التي وضعت الأساسات للنضال القومي التركي وإنشاء الجمهورية التركية الجديدة بعد ثماني سنوات بقيادة أتاتورك قائد غاليبولي. حتى يومنا هذا يتم إحياء ذكرى يوم كتائب الجيش النيوزلندي والأسترالي في استراليا ونيوزلندا، وتعتبر المعركة ولادة هويتين وطنيتين للبلدين بدلا عن تلك الهوية المشتركة للإمبراطورية البريطانية.

قاوم الأتراك قوات التحالف البحرية الضخمة وجيوشها في غاليبولي، وهزمتها. ولكن الوضع على الجبهة المصرية لم يكن يسير بسلاسة. كان هدف هذه

الحملة التي دعمها الألمان إعادة السيطرة العثمانية على مصر وبشكل خاص السويس التي من خلالها يمكن قطع طريق الإمبراطورية البريطانية إلى الهند. كانت فاشلة.

الاتفاقات السرية

تمرد الشريف حسين بن علي أمير الحجاز على الحكم العثماني عام 1916 في الثورة العربية. كان هدفه تأسيس دولة عربية مستقلة موحدة تمتد من حلب في سوريا إلى عدن في اليمن. كان هذا وعداً بريطانياً في حال ثار ضد الإمبراطورية العثمانية. في واقع الأمر كان هذا جزءاً من سياسة القوى العظمى لتقسيم الإمبراطورية العثمانية. عقدت بريطانيا العظمى وفرنسا اتفاقية سرية سميت اتفاقية سايكس بيكو في أيار عام 1916. حددت هذه الاتفاقية مجالات نفوذ كل منهما بعد الحرب العالمية الأولى، والسيطرة على الشرق الأوسط بعد خيبة توقعاتهما من الإمبراطورية العثمانية. بناء على ذلك نُدبت بريطانيا للسيطرة على المساحة التي تضم ما يقارب الأردن والعراق ومساحة صغيرة حول حيفا للسماح بالوصول إلى ميناء على البحر المتوسط. وندبت فرنسا للسيطرة على جنوب شرق الأناضول.

توسعت الاتفاقية لاحقاً لتشمل إيطاليا وروسيا. تسلّمت روسيا شرق الأناضول بينما أراد الإيطاليون الحصول على جزر إيجة وبسط نفوذهم حول إزمير جنوب غرب الأناضول. لم يكن هذا كل شيء. دعمت بريطانيا أيضاً الخطط الصهيونية لتأسيس «وطن قومي» يهودي في فلسطين بوعد بلفور عام 1917 كجزء من خطة تقسيم الإمبراطورية العثمانية.

أدت الثورة الروسية عام 1917 إلى حرمان روسيا من مطالبها في الإمبراطورية العثمانية. في الوقت نفسه نشر لينين نسخة من اتفاقية سايكس بيكو السرية إضافة إلى معاهدات أخرى سببت إرباكاً بين الحلفاء، وعدم ثقة العرب بهم. أدت الثورة الروسية أيضاً إلى انسحاب القوات الروسية من الأراضي العثمانية التي أخذتها بموجب اتفاقية بريست ليتوفسكي في آذار عام 1918. ولكن الوضع العسكري للقوات التركية في العراق وسوريا أصبح سيئاً. انسحب أعضاء قوى المحور الأخرى من الحرب بقبول الهزيمة. لذلك، واعتماداً على مبادئ ولسون التي أشارت إلى ضرورة حماية السيادة على الجزء التركي من الإمبراطورية العثمانية الحالية، فقد قررت الحكومة العثمانية أن تعرض هدنة على الحلفاء ووقعت هدنة مودورس في 1918/10/30.

نجحت الإمبراطورية العثمانية التي غطت كامل البلقان ومعظم الشرق الأوسط وشمال أفريقيا بالإضافة إلى القوقاز بتشكيل هدوء نسبي في ذروة قوتها خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر ومعظم القرن الثامن عشر. سمى بعض المؤرخين العثمانيين هذه الفترة «السلام العثماني». لهذا المصطلح معنى إذا قارن أحد ما المناطق التي واجهت عدم استقرار سياسي واقتصادي واجتماعي بعد زوال الحكم العثماني وبشكل خاص بعد نهاية الحرب العالمية الأولى.

هدنة مودروس

الهدنة التي أنهت القتال بين الإمبراطورية العثمانية والحلفاء ووقعها وزير الشؤون البحرية رؤوف بيك والأميرال البريطاني كالستروف على متن سفينة إتش

إم إس أغامنون في ميناء مودروس في جزيرة ليمنوس، حددت هزيمة العثمانيين في الحرب العالمية الأولى. قبل أن تُوقع الهدنة ضَمِن الأميرال كالستروف لرؤوف بيك عدم احتلال اسطنبول، وعدم جلب السفن اليونانية إليها. أشارت الاتفاقية ببنودها الخمسة وعشرين بمجملها إلى ضرورة تخلي العثمانيين عن إمبراطوريتهم باستثناء الأناضول، وترك حامياتهم العسكرية في الحجاز واليمن وسوريا والعراق وطرابلس وبرقة. احتل الحلفاء المنطقة حول مضيقي البوسفور والدردنيل ومداخل جبال طوروس. كان للحلفاء أيضاً الحق باحتلال ستة أقاليم فيها سكان أرمن من شمال شرق الأناضول الواقعة في حالة من الفوضى، بالإضافة إلى أي نقطة إستراتيجية تهمّ أمن الحلفاء. كان الهدف الأول للحلفاء السيطرة على كل الذخيرة. الهدف الثاني كان حلّ مختلف وحدات الجيش الصغيرة إما عن طريق جمعها في وحدات أكبر للتحكم بها أكثر أو بإعادتها إلى وطنها.

إذا درس أحد ما بنود الهدنة، يمكن أن يرى أن هدف الحلفاء كان فتح الأناضول لغزو دون مواجهة أي مقاومة خطيرة. بدأ الحلفاء بغزو الأناضول بذرائع مختلفة دون انتظار مؤتمر السلام الذي يجب أن يُعقد بعد الحرب. أولاً غزت بريطانيا الموصل بشكل غير قانوني بعد ثلاثة أيام فقط من توقيع الهدنة. عند توقيع الهدنة كانت القوات البريطانية على بعد ستين كيلومتراً جنوب محافظة الموصل. لا ينبغي عليهم التحرك نحو الشمال وفقاً لشروط الهدنة.

نُقضت الوعود السابقة، ورست ثلاث وسبعون قطعة من السفن الحربية البريطانية والفرنسية والإيطالية

واليونانية في اسطنبول بتاريخ 1918/11/12. اجتاح الفرنسيون محافظتي أضنة ومرسين التركيتين في جنوب الأناضول في كانون الأول عام 1918، وغزت بريطانيا عينتاب في 1918/12/17، ومرعش في 22/ 2 وأورفا في 1919/3/24. غزا الإيطاليون أنطاليا وفتحية وبودروم وقونية. علاوة على ذلك سيطرت بريطانيا على مناطق صمصون ومرزفون على البحر الأسود. سلمت بريطانيا عينتاب ومرعش للفرنسيين، بينما أظهرت طموحاً أكبر في العراق المساحة الغنية بالنفط.

الفصل الحادي عشر

النضال الوطني التركي

تجدر الإشارة إلى أن النضال الوطني التركي جاء نتيجة تطورات سياسية وعسكرية حدثت بين عامي 1919-1922، وتبلورت تحت شروط هدنة مودروس. ولكن جانباً آخر لهذا النضال، بمعنى أنه سرّع عملية التحديث التركية التي بدأت في القرن الثامن عشر. في نهاية النضال الوطني التركي أسس قائده مصطفى كمال أتاتورك الجمهورية التركية. هذا أمر هام في التاريخ التركي لأنه سجل أول انتقال مباشر للسلطة إلى يد الشعب. أنهت هدنة مودروس عملياً الإمبراطورية العثمانية التي استسلمت للحلفاء بكامل أراضيها ما عدا الأناضول وتراكيا الشرقية.

عندما عاد الضباط قادة الجيش العثماني مثل مصطفى كمال وكاظم قرة بكر وآخرون من مواقعهم إلى اسطنبول في تشرين الثاني عام 1918، وجدوا العاصمة محتلة عملياً. هناك قول شهير لمصطفى كمال عندما رأى سفن الأعداء راسية في البوسفور: «سيعودون كما جاؤوا». يرمز هذا لتصميمه على المقاومة ضد الغزو.

كانت الحكومة العثمانية والسلطان أضعف جداً من فرض قرار أو تطبيق قانون ونظام في عدة مناطق. لأن الحلفاء كانوا يحتلون العاصمة. الأسوأ من ذلك هو أن العديد من أعضاء الحكومة العثمانية لم يروا أي حل غير التعاون مع الغزاة الذين بقيت مصالحهم هي العليا. لذلك عُقدت سلسلة من الاجتماعات بين مصطفى كمال وزملائه

في اسطنبول فيما يتعلق بمستقبل البلد عندما كانت البلاد في حالة انهيار، وليس لدى حكومة اسطنبول أي تصور للتغلب على الوضع الذي وجدت الإمبراطورية نفسها فيه. كانت هناك فصائل متضاربة مع رؤى متضاربة، ولكن هدف الحلفاء المتجلي بالقضاء على سيادتهم في وطنهم ما وحد رأيهم. كان هذا الإدراك هو القوة الدافعة التي ألزمت أتراك الأناضول بالدرجة الأولى بالتوحد. نستنتج إلى حد ما أن حكومة اسطنبول والسلطان نفسه كانا تحت سيطرة خارجية، والطريق الوحيد للهرب من السيطرة الخارجية كان الذهاب إلى الأناضول بهدف تنظيم حركة وطنية ضد المحتلين. إنه تغيير كبير للوطنيين عندما عينت وزارة الدفاع المؤلفة بمعظمها من ضباط وطنيين بعض زملاء مصطفى كمال مثل رأفت بيلي وكاظم قرة بكر وعلي فؤاد جبة صوي وآخرون في قطع الجيش في مختلف مناطق الأناضول.

في غضون ذلك، كانت حكومات الحلفاء على وشك التوصل إلى قرار يتعلق بمستقبل غرب الأناضول. أعطيت إزمير وغرب الأناضول للإيطاليين في معاهدة سرية لتقسيم الأناضول وقعت بين الحلفاء أثناء الحرب. ولكن عندما طرحت بريطانيا إمكانية غزو اليونان لإزمير على الطاولة غادرت إيطاليا مؤتمر السلام في 1919/4/24، ولم تعد حتى الخامس من أيار. بغياب إيطاليا أقنع لويد جورج فرنسا والولايات المتحدة الأمريكية بتفضيل مصالح اليونان على مصالح إيطاليا في إزمير وغرب الأناضول. يمكن القول بسهولة إن غزو اليونان لإزمير في 1919/5/15 أثار الشعور القومي وسرّع انتماء الناس إلى حركات النضال القومي من خلال تنظيم المجتمع المحلي للدفاع عن الحقوق والمصلحة ومن خلال تأسيس القوى القومية بهدف الدفاع عن مناطقهم ضد الغزاة.

في هذا الوقت سنحت لمصطفى كمال فرصة الذهاب إلى الأناضول بقرار رسمي عندما وجه الأميرال والمفوض البريطاني في الإمبراطورية العثمانية كالستروف مذكرة للحكومة زاعماً أن المدنيين اليونانيين في منطقة البحر الأسود يتعرضون لاعتداء الأتراك. كان أسلوب المذكرة تهديدياً: «لا مفر من تدخل الحلفاء إذا لم توقف هذه الأعمال». في واقع الأمر، على الرغم من أن التهديد الحقيقي كان على الأتراك الذين يتعرضون لاعتداءات بعض العصابات اليونانية المدعومة من قوى الحلفاء، فقد كان عذراً لفتح الطريق لتدخل الحلفاء. بهدف تجنّب المزيد من التدخل الأجنبي، عيّن السلطان محمد وحد الدين (السلطان العثماني السادس والثلاثين والأخير محمد السادس 1918–1922) مصطفى كمال مفتشاً عام للجيش التاسع في 1919/4/30 مع صلاحيات واسعة. كان الواجب الرسمي لمصطفى كمال نزع سلاح الجيش التركي والسيطرة على الوضع هناك. في هذا الخصوص، أراد تفقّد عملية تطبيق شروط الهدنة. ولكن هذه المهمة أخفت الهدف الرئيس لمصطفى كمال بتنظيم حركة مقاومة وطنية. لذلك يمكن بسهولة ملاحظة أن لمصطفى كمال هدفين رئيسين: الأول، النضال ضد الغزو الأجنبي؛ والثاني، النضال لتأسيس سيادة وطنية، وهذه تعني النضال ضد السلطان والحكومة العثمانية. كان اسم مصطفى كمال حميماً للأتراك، إذ أن نجاحه في معركة غاليبولي منحه بعض الامتيازات.

الصحوة القومية

غادر مصطفى كمال اسطنبول على متن سفينة باندرما للشحن والركاب مساء 1919/5/16. توجه إلى صمصون

وسط منطقة البحر الأسود حيث مشا على الشاطئ في 1919/5/19. سُجّل هذا التاريخ باعتباره بداية حركة النضال الوطني. أشعر الناس في صمصون بمعنى رسو السفن اليونانية والاستعمار الأجنبي.

أخبر مصطفى كمال زملاءه بواسطة التلغراف أنه في صمصون، وبأنه سيذهب قريباً إلى وسط الأناضول. غايته النهائية سيواس التي كانت أكثراً أماناً من أي مكان آخر بهدف تنظيم حركة مقاومة وطنية. تم اختيار سيواس أيضاً لأن كتائب جيش صديقه المقرب كاظم قرة بكر كانت في أرضروم غير البعيدة كثيراً من هناك. كانت سيواس بعيدة عن نفوذ حكومة اسطنبول.

للوصول إلى سيواس انتقل إلى حَوْظا حيث اتصل بمختلف المجموعات الوطنية ودعا الناس للقاء جماهيري. أرسل برقيات احتجاج إلى السفارات الأجنبية ووزارة الحرب في اسطنبول حول التعزيزات البريطانية في المنطقة والمساعدة البريطانية لعصابات قطّاع الطرق اليونانية. كثّف اتصالاته بهدف تنظيم زخم حركته أثناء عمل المحتل على نزع السلاح العسكري رسمياً. بعد ذلك انتقل إلى أماصيا حيث التقى رؤوف بيك وعلي فؤاد بيك ورأفت بيك. بعد بعض الأعمال التحضيرية أصدروا وثيقة في 1919/6/22 سميت تعميم أماصيا دعا فيه الأتراك إلى الانتباه من العدوان الأجنبي الذي يهدد وجودهم. بنشر التعميم على الأناضول، أعلن أن استقلال تركيا وسلامة أراضيها في خطر. كما دعا التعميم لمؤتمر قومي يُعقد في سيواس، وقبل ذلك دعا إلى مؤتمر تحضيري يضم ممثلين من المناطق الشرقية للأناضول ليعقد في أرضروم.

رأت حكومة اسطنبول أن مصطفى كمال تمادى كثيراً بإصداره التعميم. استدعاه السلطان إلى اسطنبول من أرضروم ليل 1919/7/7. لم يكن لدى مصطفى كمال خيار إلا الاستقالة من جميع مناصبه الرسمية، وقد فعل ذلك. ولكن قيادة الحركة الوطنية بقيت كما هي. استمر هو وآخرون بعملهم في مؤتمر أرضروم الذي عُقِد بين 7/23 و1919/8/7. كانت هذه الخطوة الثانية في تأسيس الوحدة القومية.

في غضون ذلك أجج الاستعمار اليوناني صحوة قومية في غرب الأناضول حيث عُقدت بعض المؤتمرات أيضاً. أرسِل مندوبون من غرب الأناضول إلى مؤتمر سيواسٍ المنعقد في 11-1919/9/4. أصدر مؤتمر سيواس عدداً من القرارات شكلت في الواقع مستقبل سياسة الحركة الوطنية. اتُخذ قرار بتنظيم حدود تركيا كما تقرر في هدنة مودروس وإعادة تسمية المنظمات المحلية «تنظيم الدفاع عن حقوق أقاليم الأناضول وروملي وواجباتها». وأقر في سيواس ضرورة اجتماع البرلمان في اسطنبول حتى لو كان واضحاً أنه لا يمكنه العمل في ظل الاستعمار. كانت فرصة كبيرة لبناء أساس الحركة الوطنية ومشروعيتها. ثمة قرار هام آخر اتخذ في المؤتمر يقضي بتشكيل لجنة تمثيلية تُصنف قرارات المؤتمر وتنفذها. وهذه يمكن أن تتحول بسهولة إلى حكومة جديدة إذا قرر الحلفاء حل كاملٍ هيكل الحكومة العثمانية. انتخب مصطفى كمال رئيساً للجنة. بمؤتمر سيواس أصبحت حركة الأناضول بقيادة مصطفى كمال حركة منظمة تغطي كامل البلاد. تصرفت اللجنة التمثيلية كحكومة إذ عينت علي فؤاد باشا قائداً لقوى غرب الأناضول القومية بهدف القتال ضد الجيش اليوناني.

أصبحت الحركة الوطنية في الأناضول أكثر تأثيراً حيث كانت حكومة اسطنبول مقيدة بالمقارنة مع الوطنيين. لذلك اضطر رئيس الوزراء فريد باشا المعارض القوي للحركة الوطنية والموالي للبريطانيين بشدة للاستقالة، واستُبدل بعلي رضا باشا المتعاطف مع الوطنيين. أرسل علي رضا وزير البحرية صالح باشا للتفاوض مع مصطفى كمال. التقى الاثنان في أماصيا بين 22-1919/10/20، ووقّعا اتفاقاً يوافق مصطفى كمال وصالح باشا بموجبه على حماية السلامة التركية الإقليمية بمقتضى هدنة مودورس. وافق صالح باشا على ضرورة اجتماع البرلمان العثماني في مكان ما من الأناضول وليس في اسطنبول. في 27 كانون الأول انتقل مصطفى كمال ولجنته التمثيلية إلى أنقرة لتأسيس مركز دائم للحركة القومية. نقطة أخرى في هذا السياق أن أنقرة كانت أقرب بكثير إلى الجبهة الغربية واسطنبول أيضاً. لذلك أراد أن يكون بوضع يمكّنه من توسيع سيطرته على البرلمان بواسطة أتباعه الذين تم اختيارهم أعضاء في البرلمان عن الأناضول. شغلت أنقرة أيضاً أهمية إستراتيجية لمصطفى كمال وللجنة التمثيلية.

الرؤيا القومية

بسبب الضغط البريطاني تنكر علي رضا باشا لعدد من بنود بروتوكول أماصيا. ولكنه كان قادراً على عقد اجتماع للبرلمان العثماني في اسطنبول بتاريخ 1920/1/12. قبل ذلك أجريت انتخابات جديدة للبرلمان العثماني. اعتبرت حكومة علي رضا فرصة للوطنيين. ولكن البرلمان كان تحت هيمنة الكتيبة البريطانية المتمركزة في اسطنبول. قبِل البرلمان بالرؤيا القومية في 1920/1/28 كما اقترح مصطفى

كمال على النواب الذين زاروه قبل الذهاب إلى اسطنبول.

كان أول بند بالرؤيا هاماً: يحدد الاستفتاء مستقبل المناطق ذات الأغلبية العربية أثناء توقيع معاهدة مودروس في 1918/10/30. ستكون المناطق غير المحتلة في ذلك الوقت وذات الأغلبية التركية المسلمة الوطن الأم للشعب التركي. اقترحت بنود الرؤية القومية الأخرى ضرورة استقلال البلاد وتحررها بحيث تُزال قيود التنمية الاقتصادية والقضائية والسياسية لتطوير البلاد في جميع المجالات.

صاغ قادة الحركة الوطنية التركية أهدافهم في الرؤيا القومية، وصمموا على استمرار المقاومة لإنقاذ الدولة التركية واستكمال استقلالها. حددت حدود تركية الجديدة ذات الأغلبية المسلمة والموحدة بالدين والثقافة.

لم تكن قوى التحالف مسرورة في الواقع من إعلان الرؤيا القومية. أظهروا ردة فعلهم بغزو اسطنبول رسمياً بتاريخ 1920/3/16. حلّ السلطان البرلمان العثماني في 1920/4/11. أرسل النواب الذين اعتقلهم البريطانيون إلى مالطا. لجأ الآخرون الذين هربوا من الاعتقال إلى مصطفى كمال في أنقرة. أراد مصطفى كمال أن يجتمع البرلمان في أنقرة أو في مكان ما في الأناضول مثل بورصة حيث اعتقد أنها الخيار الأخير.

ولادة الدولة من جديد

أرسل مصطفى كمال مذكرة إلى مندوبي الحلفاء في اسطنبول والبرلمانات الإيطالية والفرنسية والبريطانية محتجاً على الاحتلال. اعتقل كاظم قرة بكر قائد الجيش الخامس عشر الكولونيل راولينسون مع عشرين عنصراً

بريطانياً احتجاجاً على غزو اسطنبول. بعد ذلك، قطع مصطفى كمال أي نوع من العلاقة مع حكومة اسطنبول. أصدر تعميماً في 19 آذار يدعو فيه البرلمان الجديد إلى الاجتماع مع السلطة الاستثنائية في أنقرة. سيضم البرلمان النوابَ السابقين الذين سيأتون إلى أنقرة ونواباً ينتخبهم الشعب التركي. في هذه النقطة يبرز سؤال ما إذا كان البرلمان استمراراً للبرلمان العثماني أم لا. أراد مصطفى كمال أن يكون هذا البرلمان دستورياً. ولكن بهدف الهرب من النقاش الطويل حول طبيعته أسماه مجلس الأمة الكبير. يتألف المجلس من حوالي ثلاثمائة نائب، وافتتح في 1920/4/23، واختير مصطفى كمال رئيساً له. من الواضح تماماً أن التشكيل الجديد في الأناضول لم يكن حركة ضد القوى المستعمرة فقط، بل تشكيلاً لدولة جديدة. أقر المجلس الدستور الأول في 1921/1/20. أعلن الدستور الأول:

1. سلطة مجلس الأمة الوطنية هي منطلق أساسي من أجل مستقبل البلاد.

2. لمجلس الأمة الكبير الممثل الحقيقي والوحيد للأمة صلاحية التشريع والتنفيذ.

3. يتألف مجلس الأمة الكبير من أعضاء ينتخبهم شعب المحافظات.

الأحداث اللاحقة التي تبعت فتح المجلس أجبرت الإدارة الجديدة على الاختيار بين الحياة والموت. توجب عليهم النضال ليس فقط ضد اسطنبول وقوى الحلفاء، بل ضد ثورات الأناضول والتي غالباً ما أثارتها قوى الحلفاء. بعد حلّ السلطة العثمانية استبدل علي رضا باشا بالصهر فريد باشا المؤيد للبريطانيين الذي يتعاون مع الحلفاء

بهدف إضعاف وضع حكومة أنقرة. في غضون ذلك عقدت قوى الحلفاء مؤتمراً عالمياً في سان ريمو بين 18-1920/4/26 بهدف نقاش شروط معاهدة السلام التي سيتم توقيعها مع الأتراك. مسودة المعاهدة التي عرضتها قوى الحلفاء على الأتراك في المؤتمر كانت مرفوضة حيث دعت إلى تقطيع أوصال تركيا. في 22 حزيران غزت القوات اليونانية غرب الطريق بين أوشاق وبورصة بهدف دفع الأتراك للقبول بعرض الحلفاء للسلام. في 8 تموز غزا اليونانيون بورصة، ثم كامل منطقة إيجة ثم تراكيا.

بعد تلك الضغوط وقّعت حكومة الصهر فريد معاهدة سيفر في 1920/8/10. رسخت هذه المعاهدة تقسيم الإمبراطورية العثمانية بموجب اتفاقيات سرية بين قوى الحلفاء. اقتصرت تركيا التي تحددت حدودها في الرؤيا القومية على اسطنبول ومناطقها الريفية وقسم صغير من الأناضول. لم تغادر قوى الحلفاء أي مساحة من أجل أتراك الأناضول. رفض مجلس الأمة الكبير معاهدة سيفر بشدة، واعتبر الذين وقعوا عليها خونة. كانت اتفاقية فاشلة في غياب برلمان اسطنبول العثماني الذي حله الحلفاء المحتلون. في غياب البرلمان فإنها لم ترسل إلى السلطان محمد السادس لتُصدّق، ونشرت في "تقويم الوقائع" وهي جريدة رسمية. إلى جانب هذا لم يوافق على المعاهدة أي بلد غير اليونان.

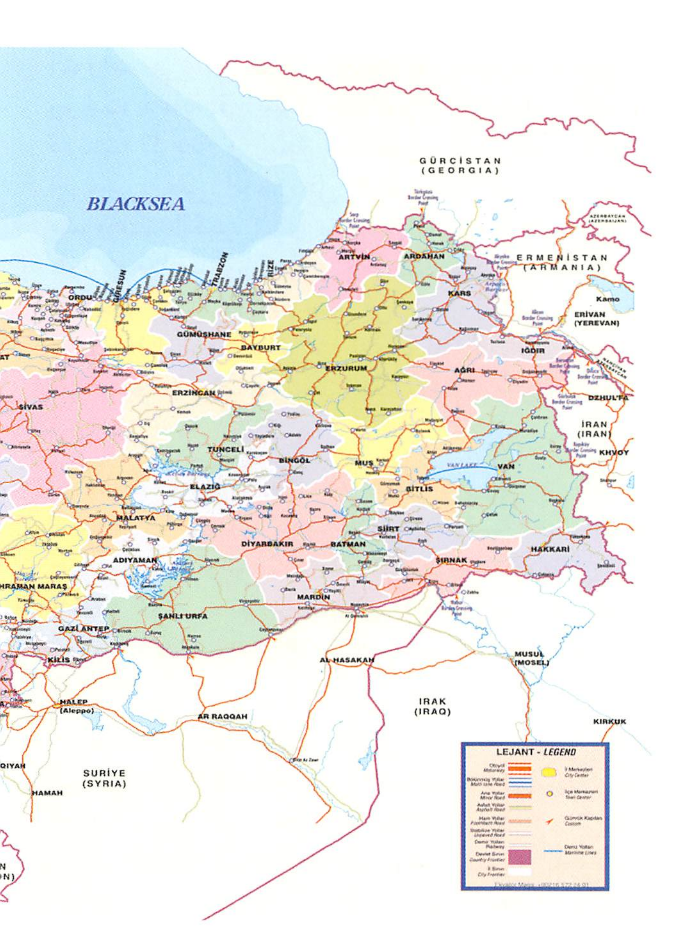
القتال من أجل الحرية

لم تُبرم المعاهدة نتيجة معارضة مجلس الأمة الكبير والشعب التركي القوية. ولكن هذا لا يعني تخلي قوى الحلفاء عن أهدافها في تركيا. حرضت بعض

الثورات في الأناضول بالتعاون مع حكومة اسطنبول. روجت دعاية في شرق الأناضول تدعو إلى تأسيس دولتين كردية وأرمنية مستقلتين أيضاً. كان الأرمن حريصين على العمل في شرق الأناضول من أجل مشروعهم الكبير الذي تدعمه القوى العظمى لوقت طويل، فهاجموا وذبحوا شعوب المنطقة. صدّ كاظم قرة بكر القوات الأرمنية في شرق الأناضول. في 1920/11/18 دعت القوات لوقف إطلاق النار والسلام في الجبهة الشرقية، وتحقق هذا بمعاهدة غومر الموقعة في 1920/12/3.

صراع آخر بدأ فوراً بعد هدنة مودروس في الجبهة الجنوبية. بعد الهدنة كانت القوات الفرنسية تحتل منطقة جنوب غرب تركيا. نظّم الشعب في تلك المنطقة حركة مقاومة كبرى بدعم من مجلس الأمة الكبير ضد القوات الفرنسية. أنهي الصراع مع الفرنسيين باتفاقية أنقرة في 1921/10/21.

حدث صراع آخر في تراكيا الشرقية أثناء الاحتلال اليوناني عام 1920. نجم عن احتلال اليونان لجبهة تركيا الغربية صراع كبير وحاد. باحتلال اليونان لإزمير نظّم سكان المنطقة المحتلة مقاومة شعبية بهدف الدفاع عن أنفسهم ضد وحشية اليونان. بدأت المقاومة الشعبية تنتظم بجيش وطني بعد فتح مجلس الأمة الكبير. لذلك أصبح لدى مجلس الأمة الكبير أو حكومة أنقرة جيش وطني في نهاية عام 1920. كانت هذه خطوة هامة خطاها المجلس لأن اليونانيين بدؤوا حملة عسكرية داخل الأناضول بداية عام 1921. بدأت قوات الاحتلال اليونانية بالتقدم من بورصة وأوشاق إلى إسكي شهير وأفيون في 1921/1/6، ولكنّها هُزمت في معركة إينونو الأولى



في 1921/1/11، وتراجعت. بعد هذا النجاح للأتراك في الجبهة الغربية رأت قوى التحالف ضرورة إجراء بعض التعديلات على معاهدة سيفر. لذلك دعت قوى الحلفاء الأتراك إلى عقد مؤتمر في لندن بين 1921/3/2-12/21. على الرغم من عدم حصول الأتراك على أي قرار هام في المؤتمر، فقد كان مفيداً جداً



حيث أُعلنت الحركة الوطنية التركية نفسها في كل أنحاء العالم. وبما أن مجلس الأمة الكبير رفض عرض الحلفاء فقد حثّ الحلفاءُ القوات اليونانية لشن هجوم جديد، ولكنهم هُزموا مرة أخرى في إينونو في 30 آذار.

في هذه الأثناء طور الإيطاليون علاقاتهم مع أنقرة أخيراً، وبدؤوا بالانسحاب من أنطاليا وضواحيها في حزيران. هذا دليل على وجود اختلاف بين الحلفاء. ولكن القوات اليونانية نجحت في معركة إسكي شهير وكوتاهيا بين 10-1921/6/24. أمر مصطفى كمال الجيش التركي بالانسحاب إلى شرق صقاريا، على بعد خمسين كيلومتراً فقط من أنقرة بهدف اتخاذ وضع دفاعي. كان انسحاباً تكتيكياً لكسب الوقت من أجل إعادة تنظيم الجيش. هذا ما أثار عدداً من الأسئلة الحرجة في مجلس الأمة الكبير الذي كان في حالة من الذعر.

في هذه النقطة شجع مصطفى كمال مجلس الأمة الكبير للاقتناع بتسلِّم زمام الأمور. منح مجلس الأمة الكبير مصطفى كمال باشا منصب رئيس الأركان بقانون أُقِرّ في 1921/8/5. كان يجهّز لاتخاذ تدابير ضرورية لضربة نهائية ضد القوات اليونانية في الأناضول. ولكن القوات اليونانية التي ربحت المعركة الأخيرة سارعت بمهاجمة القوات التركية لإيقاع هزيمة نهائية بها. ولكن القوات اليونانية أجبرت على الانسحاب إلى غرب صقاريا في نهاية معركة صقاريا التي دارت على جبهة امتدت حوالي مائة كم بين 8/23 و1921/9/13، وانتهى العدوان اليوناني على الأناضول. مجلس الأمة الكبير الذي انتقد مصطفى كمال قبل المعركة كافأه في 1921/9/19 برتبة مارشال ولقب غازي لقاء إنجازاته في معركة صقاريا.

لم تزد إنجازات صقاريا من مصداقية مجلس الأمة الكبير في عيون الشعب التركي فقط، بل في أعين العالم أجمع بما في ذلك قوى الحلفاء أيضاً. وقّع مجلس الأمة الكبير معاهدة أنقرة مع فرنسا في 1921/10/20. تم توقيع

اتفاقية أخرى وهي اتفاقية قارص مع أذربيجان وجورجيا وأرمينيا. لذلك أصبحت الحدود التركية مستقرة. بعد صقاريا انتهى أيضاً التعاون اليوناني البريطاني إلى حد كبير.

بعد تلك التطورات أرادت اليونان من قوات الحلفاء أن تسوي الخلاف بعقد هدنة مع الأتراك، ولكن أنقرة رفضتها. على الرغم من تحقيق الجيش التركي نصراً كبيراً، لم يكن بعد في موقف مناسب لطرد المستعمر من الأناضول. أراد وقتاً كافياً لتجهيز القوات لمعركة نهائية. استغرق تقريباً سنة للهجوم النهائي على الجيش اليوناني. في هذه الفترة انتقلت بعض القوات من الجبهات الجنوبية والشرقية إلى الجبهة الغربية. نُقلت الذخائر أيضاً إلى الجبهة. أصدر مصطفى كمال رئيس الأركان أمراً بإنهاء التجهيزات كلها بحلول 1922/8/15.

بدأ الهجوم الكبير في 1922/8/26 بقيادة مصطفى كمال والجنرال فوزي تشقمق والجنرال عصمت إينونو. حوصرت القوات اليونانية وهوجمت بجنون. بعضها وقع أسيراً. لذلك بلغ الهجوم نهايته. في 30 آب هزمت القوات التركية القوات اليونانية في معركة ضارية سميت معركة القائد العام وكانت بقيادة مصطفى كمال. واصل الجيش التركي عملياته حيث أخذ إزمير في 9 أيلول وبورصة في 11 أيلول وأخيراً في 18 أيلول تحررت كامل البلاد من المحتل اليوناني.

المرحلة النهائية من الصراع: النصر الكبير لمصطفى كمال

الأمر النهائي الذي أراد فعله مصطفى كمال هو تحرير اسطنبول ومضيقي البوسفور والدردنيل وتراكيا الشرقية. ولكن التوتر بين القوات اليونانية والتركية أثير


مصطفى كمال أتاتورك

عندما صرّح لويد جورج رئيس الوزراء البريطاني أن هذا سيكون سبباً لحرب. هذه المرة ربما ستندلع الحرب بين بريطانيا وتركيا حيث كانت قوات الاحتلال البريطانية تتمركز في تشنق قلعة الميناء الصغير على الدردنيل. في 15 أيلول أرسلت بريطانيا برقية تدعو فيها السلطات بإشراك جنود لإظهار تضامن الإمبراطورية ضد الأتراك. هذه الأزمة سميت قضية تشنق قلعة. في اليوم التالي انتشر الطلب مما أدى إلى خرق الآداب الدبلوماسية والسياسية بالمعنى الجيد. في واقع الأمر فإن الفرنسيين والإيطاليين تركوا بريطانيا وحيدة في هذه القضية. الشعب البريطاني أيضاً لم يُرِدْ هذه الحرب حيث ضمن الأتراك عدم إغلاق المضائق في وجهه. بعد ذلك انتهت الأزمة بسرعة.

محادثات السلام

بعد نصر الجيش التركي، بدأت قوى الحلفاء بمناقشة هدنة مع مصطفى كمال. بعد ذلك وُقعت اتفاقية مودانيا التي مهدت الطريق إلى لوزان في 1922/10/11. بحسب هدنة مودانيا يخلي اليونانيون تراكيا الشرقية خلال خمسة عشر يوماً، وتعود هذه المنطقة للأتراك. ستبقى قوات الحلفاء في البوسفور واسطنبول حتى توقيع معاهدة السلام. تخلصت تركيا من الاحتلال الأجنبي الذي رزحت تحته منذ هدنة مودرس. إنه وقت اللقاء من

أجل نقاش بنود معاهدة السلام. في واقع الأمر وقّعت قوى الحلفاء مع الحكومة العثمانية معاهدة سيفر كعمل نهائي للحرب العالمية الأولى. ولكن مجلس الأمة الكبير لم يعارضها فقط بل خاض سلسلة معارك بهدف عدم تطبيق بنودها. أفشلِ القوميون مع قائدهم مصطفى كمال معاهدة سيفر عملياً. بدأ مؤتمر لوزان في سويسرا بتاريخ 1922/11/22 من أجل معاهدة بديلة. أدى مؤتمر لوزان إلى فتح مفاوضات بمساواة أكبر.

في هذه النقطة دعا الحلفاء الحكومتين العثمانية في اسطنبول والوطنية في أنقرة إلى لوزان بهدف التلاعب بواحدة ضد الأخرى. بدا أن هناك حكومتين في تركيا واحدة في أنقرة والأخرى في اسطنبول. يمكن أن يعرّض التمثيل المزدوج سلامة البلد للخطر. استغل مصطفى كمال الفرصة لإلغاء السلطنة حيث بدت أنها لاغية. ألغيت السلطنة في 1922/11/1 حيث سجل هذا التاريخ نهاية رسمية للإمبراطورية العثمانية. وبما أن السلاطين العثمانيين كانوا خلفاء أيضاً، فقد عُين عبد المجيد خليفة إذ جُرد محمد السادس من منصب السلطان. حافظت السلالة العثمانية على سلطة الخلافة بيدها. ولكن مجلس الأمة الكبير أصبح السلطة الوحيدة في البلاد.

بدأت مفاوضات السلام بين تركيا وقوى الحلفاء في مؤتمر لوزان بتاريخ 1922/11/20. كان عصمت بيك إينونو رئيس الوفد التركي. على الرغم من أن المؤتمر انهار في 1923/2/4، فقد انعقد ثانية في 4/23. أصر الوفد التركي على بنود الرؤيا القومية لعام 1922، ولكن قوى الحلفاء كانت حريصة أكثر على بنود معاهدة سيفر. كان النزاع الرئيس حول الديون العثمانية، والتنازلات، ووضع المضائق التركية، والحدود العراقية.

بعد محادثات طويلة، تم التوصل إلى اتفاقية في لوزان بتاريخ 1923/7/24. نصّت المعاهدة على استقلال الجمهورية التركية، واعتراف عالمي بحكومة مصطفى كمال في أنقرة والدولة التركية الجديدة. إنه نصر كبير للأتراك الذين حصلوا على استقلال تام. تم إلغاء الدساتير. لن تكون هناك دولة أرمنية أو كردية مستقلة ولا أي شكل من التشكيلات السياسية في شرق تركيا. لن يكون غرب الأناضول جزءاً من النفوذ اليوناني. حقق مصطفى كمال أهداف الرؤيا القومية لعام 1920 كلها تقريباً. ولكن بعض المشاكل مثل الموصل وهطاي والمضائق لم تُحل في المؤتمر كما في الرؤيا القومية. أصرت بريطانيا العظمى على ضرورة عودة الموصل إلى العراق، على الرغم من أن هدنة مودروس اقترحت العكس.

كانت المضائق التركية منزوعة السلاح وستقوم بإدارتها لجنة دولية. لم تُصر تركيا على هذه النقطة بهدف الوصول إلى نتائج سلمية كانت بحاجة ماسة لها. اعتقدت بأن تلك المشاكل يمكن التغلب عليها عبر طرق دبلوماسية بعد قدر كاف من الوقت.

الفصل الثاني عشر
تأسيس الجمهورية التركية

بعد الإنجازات العسكرية والسياسية التركية، تحقق انجازان هامّان آخران: الأول إعلان أنقرة عاصمة لتركيا في 1923/11/13. الثاني إعلان مجلس الأمة الكبير قيام الجمهورية في 1923/11/29. بعد ذلك اختار مجلس الأمة الكبير مصطفى كمال الذي كان له دور كبير في تأسيس الدولة الجديدة أول رئيس للجمهورية التركية. مصطفى كمال هو مؤسس تركيا الحديثة. منحه الشعب التركي لقب أتاتورك والذي يعني جدّ الترك.

فترة أتاتورك (1923–1938):
إصلاحات أتاتورك الأساسية

كلّف أتاتورك عصمت إينونو بتشكيل حكومة. بعد ذلك نفّذ أتاتورك سلسلة إصلاحات جذرية بهدف خلق دولة حديثة مرتكزة على مبادئ علمانية وديمقراطية. أقرّ مجلس الأمة الكبير قانون إلغاء الخلافة في 1924/3/3. في اليوم نفسه أصدر قانوناً يقضي بإلغاء وزارة الشؤون الدينية والأوقاف وقانونَ توحيد التعليم. تأسست رئاسة الشؤون الدينية بهدف تنظيم شؤون المجتمع الدينية. لتلبية حاجة المواطنين الدينية افتتحت كلية لاهوت في دِار الفنون التي سميت جامعة اسطنبول عام 1933. لذلك أُغلِقت المدارس التابعة لوزارة الشؤون الدينية والأوقاف كلها. بتوحيد التعليم ألحقت المدارس كلها بوزارة التربية الوطنية وفقاً للمبادئ القومية والعلمانية. كان تحديث الدولة التركية والمجتمع التركي أحد أهداف أتاتورك

الرئيسة. كان عليه النضال من أجل تطوير نظام التعليم وتحديثه. لذلك أسس عدداً من الكليات والمدارس في ثلاثينيات القرن العشرين.

أصدر مجلس الأمة التركي الكبير دستوراً جديداً يعيد تنظيم الدولة في 1924/4/20. ألغيت تعديلات قانون العقوبات التجارية الذي عمل به في فترة التنظيمات كقانون إسلامي. في 1926/4/4 دخل القانون المدني التركي حيز التنفيذ، ثم قوانين أخرى. اكتسبت المرأة التركية الحقوق الأساسية وبلغت مكانة هامة على طريق التحديث بالقانون المدني التركي. منح قانون البلدية لعام 1930 وقانون مجلس الأمة لعام 1934 حق الانتخاب للمرأة التركية. وبالتالي ملَكَت المرأة التركية كل الحقوق السياسية الأساسية تقريباً.

ألغيت عبارة «الإسلام دين الدولة الرسمي» من الدستور بما يوافق المبادئ العلمانية عام 1928. كتب الدستور التركي لعام 1937 المبادئ الأساسية لتتماشى تركيا مع معايير الحضارة العلمانية والحديثة.

محاولة فاشلة في نظام التعددية الحزبية

اعتماداً على حقيقة أن هدف أتاتورك كان تأسيس نظام سياسي يرتكز على الديمقراطية، أسس حزب الشعب في 1923/9/9 وأعاد تسميته بعد ذلك إلى حزب الشعب الجمهوري. بالطبع أن الأحزاب السياسية هي إحدى ركائز النظام الديمقراطي الأساسية. كان لدى تركيا بعض التجارب في الأحزاب السياسية منذ عام 1908، حيث تأسست بعض الأحزاب التركية في المرحلة الدستورية الثانية. ولكن حزب الاتحاد والترقي استلم السلطة بالقوة

عام 1913، ورسّخ ديكتاتوريته الخاصة التي خلقت نظام الحزب الواحد.

بعد تأسيس الجمهورية اضطرت الدولة الجديدة لمواجهة عدد من المشاكل الداخلية والخارجية. أدى النقاش حول هذه المشكلات إلى ترك بعض النواب حزب الشعب الجمهوري. بعض رفاق أتاتورك في النضال القومي الذين استقالوا من حزب الشعب الجمهوري مثل كاظم قرة بكر ورأفت بيلي ورؤوف أورباي أسسوا حزباً جديداً اسمه حزب الترقي الجمهوري الذي كان أول حزب معارض في الجمهورية ترأسه كاظم قرة بكر. اعتبر الحزب ذا طابع إسلامي في السياسة الداخلية. في الحقيقة أن شعار الحزب كان احترام المبادئ الدينية وجمع أولئك الذين كانوا ضد مبادئ التحديث الأساسية لأتاتورك. هدد برنامج حزب الترقي الجمهوري وحدة تركيا حيث أثارت هذه المعارضة عدداً من الأحداث غير المرغوبة. في هذه الأثناء، وبينما كانت تركيا منشغلة بقضية الموصل (والتي لم تُحل في مؤتمر لوزان)، اندلع تمرد بقيادة الشيخ سعيد في الشرق. قُمِع تمرّد الشيخ سعيد بصعوبة كبيرة في 1925/5/13. فشلت محاولة أتاتورك الأولى بتأسيس نظام حزبي تعددي.

كان أتاتورك مدركاً تماماً حقيقة أن نظام الحزب الواحد لا يلائم النظام الديمقراطي. بالرغم من فشل المحاولة الأولى، فقد طلب من صديقه المقرب فتحي أوقيار تأسيس حزب جديد لامتصاص الاستياء المتولد من المشاكل الاقتصادية وبرامج الحكومة الراديكالية. استقال فتحي أوقيار من منصبه كسفير في فرنسا، وتولى

قيادة الحزب. أسس فتحي الحزب الجمهوري الحر في 1930/8/12. شجّع حزب فتحي أوقيار السياسة الاقتصادية الليبرالية، واحترم المبادئ الديمقراطية والعلمانية للفكر الكمالي. ولكن عندما بدأت العناصر الدينية وآخرون يلتفون حول الحزب الجمهوري الحر أدرك فتحي أوقيار الخطر الذي تتعرض له السلطة، ولذلك أنهى حزبه في 1930/11/17. بالرغم من عدم إمكانية تأسيس نظام تعددي حزبي في فترة حكم أتاتورك، فقد فضّل المحافظة على الديمقراطية حيث أنه لم يتخل عن النظام البرلماني على الأقل. وينبغي ألا ننسى حقيقة أن الديكتاتوريات سادت في جميع أنحاء العالم في الفترة نفسها.

سياسة أتاتورك الخارجية

ينبغي أن تُعطى العلاقات الدبلوماسية التي أسسها أتاتورك مع القوى الإمبريالية قدراً كبيراً من الأهمية بعد النهاية الناجحة للنضال الوطني ضدها. في الواقع أن العالم في عهد أتاتورك كان متجهاً نحو الأزمات حيث الليبرالية على شفا الإفلاس، والأنظمة الاستبدادية والديكتاتورية سائدة في معظم أنحاء أوروبا. بأخذ هذا بعين الاعتبار، يعتبر ظهور قائد مثل أتاتورك ليس تغييراً من أجل تركيا فقط، بل من أجل العالم كاملاً. أتاتورك الذي ناضل ضد القوى الإمبريالية الغربية دفاعاً عن بلده مدة معقولة من الزمن، اختار إيجاد نظام سياسي على النمط الغربي. وبالتالي أصبح قائداً من قادة العالم القلائل الذين دعوا إلى السلام وأصرّوا على استخدام الدبلوماسية لحل المشاكل.

تحققت أهداف الحركة الوطنية إلى حد كبير من خلال معاهدة لوزان عام 1923 التي سجّلت قبولاً قانونياً

لوجود تركيا الحديثة حيث اعترف بها المجتمع الدولي. حرمت تركيا من سيادتها الكاملة على المضائق التي تعتبر أكبر نقط أمنها القومي لأول مرة في تاريخها. كانت تركيا الأتاتوركية بعيدة كل البعد عن قبول قضية المضائق والمناطق المنزوعة السلاح لارتباط هذه القضية ارتباطاً وثيقاً بهدف السيادة الكاملة على البلاد. في الوقت نفسه لم تستطع تركيا أن تصر على قرارات نهائية في لوزان بوجود السفن الحربية البريطانية المهددة الراسية حول اسطنبول. للحظة اضطرت تركيا للتمرير الوقت. أشار توفيق رشدو آراص أحد مندوبي الجمعية الوطنية التركية والمشارك في مؤتمر لوزان، ولاحقاً في وزارة الخارجية إلى أنه استنتج بعد نقاش طويل أن البنود التي تشير إلى نزع السلاح عن المضائق تضع تركيا في وضع غير آمن على الرغم من عدم تعارض اتفاقية المضائق مع الميثاق الوطني لعام 1920. ولكن الوصول إلى التسوية السلمية اشترط أن تضمن القوى الأربعة (بريطانيا العظمى وفرنسا وإيطاليا واليابان) أمن المضائق، وإبقاء المؤسسة العسكرية خارج المنطقة المعزولة السلاح لتقوم بتدابير عسكرية ضرورية.

في الواقع أن مقرري السياسة الخارجية التركية، وبشكل رئيسي أتاتورك، ونتيجة تجربتهم في الفترة العثمانية، ونضالهم في الحركة القومية التركية بعد عام 1918 نهجوا سياسة خارجية غير مغامرة مرتكزة على الواقعية إلى حد ما. بعد تقطيع أوصال الإمبراطورية العثمانية، صمّمت النخبة الكمالية على تأسيس دولة قومية ترتكز على النماذج الغربية المعاصرة. في سياق النهج العملي للسياسة الخارجية أيضاً قررت أن تنفيذ الإصلاحات في البلد يحتاج بيئة سلام. هذا كان جزءاً


عصمت إينونو

من عملية التحديث التي تهدف إلى استقلال سياسي واقتصادي وإيديولوجي كامل يجعل تركيا تجاري الغرب، إضافة إلى معالجة ضعفها الاقتصادي. في الحقيقة أن نخبة صنّاع القرار الرائدة كانت مدركة تماماً لحقيقة أن موقفها هو الطريق الوحيد لتحقيق جو سلمي في هذه المنطقة التي تقع جغرافياً على مفترق طرق بين الشرق والغرب حيث كان للقوى العظمى مصالح ضخمة وبشكل خاص لبريطانيا العظمى والاتحاد السوفيتي.

بعد عدة أشهر من تسوية لوزان، تركز اهتمام تركيا الرئيس في الشؤون الخارجية على حل المشاكل العالقة التي خلفتها تسوية لوزان. أحدها خلاف الموصل الشديد مع بريطانيا الذي أنهته عصبة الأمم لصالح الأخيرة في 1925/12/16. نقاش العصبة أدى إلى إحياء العلاقة بين تركيا والاتحاد السوفيتي. في الواقع وقّع البلدان معاهدة صداقة في اليوم التالي لمناقشات العصبة حول خلاف الموصل. لم تبن هذه المعاهدة على أساس تقارب أيديولوجي لأن التغريب أحد المبادئ الأساسية لتركيا الحديثة يتعارض مع البلشفية. مع ذلك فإن وضع تلك الفترة جعل تركيا تحصل على دعم سياسي واقتصادي سوفيتي، وحاول الاتحاد السوفيتي استغلال الوضع لفرض نفوذه السياسي على تركيا. في الواقع كان هذا مرضياً مع تقارب تركيا البطيء مع الغرب والذي بدأ بعد حل خلاف الموصل بتوقيع معاهدة تركية-انكليزية في 1926/6/6.

بما أن السلامة الإقليمية والحرية الكاملة كانت مهمة لتركيا الكمالية منذ بدايتها، فقد اعتبرت قضية المضائق في معاهدة لوزان تسوية غير مرضية حيث انتهكت استقلالها، وعرضتها لهجوم خطير وقللت من قيمتها في عالم الدبلوماسية الدولية. لم تطمئن تركيا للاتفاقية، لذلك طرحت طريقاً للتخفيف من آثارها. شُق طريق داخل المناطق بهدف تمكن تركيا من حشد جيشها في المنطقة منزوعة السلاح، وتثبيت المدفعية خارج أو حتى داخل المناطق، بالإضافة إلى زرع الألغام في مخرج الدردنيل ومدخل البوسفور بهدف إمكانية إغلاق المضائق في وجه أي اعتداء. وهكذا تركت تسوية لوزان تركيا في وضع يعتمد على الصداقة مع الاتحاد السوفيتي لأنها كانت بعيدة عن حلٍ مُرضٍ.

على الرغم من استمرار العلاقة القوية مع الاتحاد السوفيتي أقل من عقد، فقد أظهرت بأن السياسة السوفيتية فيما يتعلق بالمضائق لا تختلف عن السياسة القيصرية. استمر السوفيت بالضغط على تركيا لضمان موقف أفضل في مواجهة تسوية لوزان. على سبيل المثال، اقترح السوفيت على الحكومة التركية -خلافاً لاتفاقية لوزان- ضرورة أن تكون السفن الحربية السوفيتية في الحرب التي هم أحد أطرافها قريبة من السفن كلها في المضائق باعتبار هذا نوعاً من التدبير الدفاعي المشترك. وبعبارة أخرى حاولت موسكو بمختلف الوسائل الاستفادة من إقامة علاقة جيدة مع تركيا. تماشياً مع هذا، سعت الحكومة السوفيتية لوضع تركيا كحاجز بينها وبين بقية القوة البحرية وبشكل خاص بريطانيا.

ولكن أسلوب الاتحاد السوفيتي لم يلقَ ترحيباً من مقرري السياسة التركية لاعتقادهم بأن العلاقة الجيدة مع

الاتحاد السوفيتي لا تضعهم على قدم مساواة معه، وهذا ما يعارض مبادئ السياسة الخارجية الكمالية. لذلك كانت النخبة الكمالية مصممة على إقامة علاقات مع البلاد الغربية ترتكز على المساواة التي تستطيع تركيا عبرها أن تكسب مكاناً أكثر تحصيناً في المنطقة. أدركوا بعد تجربة خلاف الموصل حقيقة أن كل صراع كبير مع البلاد الغربية سيمنح الاتحاد السوفيتي هيمنة أكبر على تركيا. بوضوح فإن تركيا لن تُسرّ بأن يصبح للاتحاد السوفيتي وجوداً مسيطراً على طول حدودها. بالمقابل نهج مقررو السياسة الخارجية التركية سياسة إقامة علاقة جيدة مع الغرب وكل جيرانهم بهدف أخذ مكان محترم في الدبلوماسية العالمية كقوة إقليمية. غير هذا فقد كانت تركيا تعتقد أن وجود علاقة جيدة مع الغرب يمكن أن يخفف من الضغط السوفيتي عليها. في هذا الشأن ستكون العلاقة مع بريطانيا العظمى أفضل أسلوب سياسي خارجي واقعي.

كخطوة أولى، أقامت تركيا علاقات جيدة مع كل جيرانها من خلال توقيع اتفاقيات صداقة، وحلت قضايا الحدود وحاولت توجيه سياستها الخارجية إلى الغرب. بأخذ هذا بعين الاعتبار فقد توصلت تركيا إلى اتفاقية مع بريطانيا حول الموصل بدلاً من القتال من أجل المناطق المتنازع عليها. بعد إصرار طويل على حماية نظام الامتيازات وتعويضات الديون التي نتجت عن التدخل الغربي الاقتصادي السابق لتركيا، توصلت فرنسا أخيراً إلى اتفاقية مع تركيا لتنظيم المسائل الاقتصادية والمالية في حزيران عام 1928. بمتابعة خط تحسين العلاقات مع الغرب، وقّعت تركيا اتفاقية حياد مع إيطاليا في أيار عام 8291، وسُويت العلاقة المعقدة مع اليونان في حزيران عام 0391. اتفاقيات مثيلة وُقعت مع الدول

الشرقية العراق وإيران وأفغانستان ودول البلقان ألبانيا وبلغاريا ويوغوسلافية في الفترة نفسها.

على الرغم من ذلك كانت الفترة بين لوزان وأوائل عام 1930 واحدة من الفترات التأملية في المقام الأول، والسياسة الخارجية ثانوية الأهمية. كانت تركيا منشغلة تماماً بتحديد هويتها القومية وإجراء إصلاحات داخلية، ولديها القليل من الوقت للاضطرابات الخارجية. ولكن بحلول أوائل عام 1930 بدأت تركيا بنهج سياسة خارجية أكثر نشاطاً. حوّلت تركيا اهتمامها باتجاه المنظمات الدولية وبدأت بحضور اللقاءات الثنائية والمتعددة الجنسيات والتي أعطت فيها أولوية لاستقرار المضائق. في الحقيقة أن تركيا اغتنمت كل الفرص لتشير إلى أن المضائق المنزوعة السلاح لا تهدد أمن تركيا فقط، بل تهدد السلام الإقليمي. لاشك أن هذا نتج عن اعتراف متزايد بالتهديد الخارجي الرئيس لتركيا: طموح إيطاليا الفاشي للسيطرة العسكرية على شرق المتوسط والأناضول. في الواقع، بعد الحرب العالمية الأولى مباشرة أصبح من الواضح أن النظام المنبثق عن معاهدة فرساي زاد من تعقيد المشاعر القومية التي أفسدت كامل أوروبا. النضال لخلق عصبة أمم تدعم الوضع الذي نجم عن معاهدات السلام كان مخيباً لآمال كثير من الدول التي لم تكن راضية عن تسويات ما بعد الحرب.

اعتقد مصطفى كمال أتاتورك أن صراعاً كبيراً آخر كان وشيكاً. لاحظ في نقاشاته مع الجنرال مك آرثر عام 1391 أن معاهدة فرساي لم تُزل أي من الأسباب التي أدت إلى الحرب العالمية الأولى. على العكس تماماً عمقت الصدع بين الخصوم السابقين. بقدر ما سيكون أمن

تركيا قلقاً في حال تجدد الصراع، فإن المضائق التركية ستكون في موقف أضعف. لذلك فهذا الوقت الأنسب لاتخاذ خطوات أكثر حسماً قبل فوات الأوان بهدف وضع تركيا في وضع أكثر أمناً. كانت تركيا مصممة على تحقيق هدفها بالطرق الدبلوماسية على عكس الطريقة التي اختارها الأعداء السابقين. بهذا المعنى يمكن اعتبار قبول تركيا في عصبة الأمم عام 1923 نجاحاً تركياً كبيراً ليس للتخلص من العزلة الدبلوماسية فقط (التي كانت عدواناً من الدول الغربية على تركيا بعد الحرب العالمية الأولى)، بل للتخلص من الاعتماد على الاتحاد السوفيتي أيضاً. وكما تطورت العلاقات التركية-الانكليزية تدريجياً، تدهورت العلاقات التركية السوفيتية تدريجياً. خوفاً من تصاعد النفوذ البريطاني على المضائق، عادت الحكومة السوفيتية إلى سياسة روسيا الإمبريالية، وطمحت إلى تحالف مع تركيا يعطي الاتحاد السوفيتي قاعدة عسكرية في المضائق. تزايد الضغط السوفيتي المرفق بتدهور الوضع في شرق المتوسط الذي تسببت فيه إيطاليا عجّل من تقارب تركيا مع القوى الغربية التي دعت لتغيير نظام المضائق الحالي.

أمل السلام

بكل الأحوال علّقت تركيا أهمية كبيرة على دعم بريطانيا العظمى للتوصل إلى نتائج إيجابية بترميم الوضع. بهذا الصدد، قبل إلى حد كبير أن سنة 1934 سجلت بداية مرحلة جديدة من تقارب العلاقات التركية-الانكليزية مع تعيين سير بريسي لوراين سفيراً بريطانياً في أنقرة، وفتحي أوقيار صديق أتاتورك المقرب سفيراً تركياً في لندن. أقام لوراين صداقة شخصية مع أتاتورك إلى حد لعبهما

البوكر كل ليلة. من المؤكد أن أتاتورك رغب برؤية بعض الإشارات الملموسة للصداقة التي تمت بعد 4 سنوات.

على الرغم من مناشدة لوراين ووزارة الخارجية لتقوية العلاقات مع تركيا فإن لندن كانت مترددة لاتخاذ أية خطوات أخرى في هذه المرحلة معتبرة أن هذا يعني بعض أنواع الارتباطات الأمنية التي لا تستطيع بريطانيا أن تمنحها حالياً. مع ذلك أدت هذه العملية إلى جو من التفاهم الكبير بين البلدين.

كثفت أنقرة نشاطها لتعزيز أمنها بالطرق الدبلوماسية في مواجهة نوايا إيطاليا العدوانية التي تستهدف تركيا. أضاف هيكل اتفاق البلقان الدفاعي بين دول البلقان الأربعة يوغوسلافية واليونان ورومانيا وتركيا في 1934/2/9 حماساً إلى الجهد المتزايد من أجل عملية التنقية الشاملة لتسوية ما بعد الحرب. أحد أهداف تركيا من تشكيل اتفاق البلقان كان دعوة بلغاريا إلى الاتفاق حيث أن بلغاريا تريد الانفصال عن إيطاليا. على الرغم من رفض البلغار الدخول بالاتفاق، فقد أمنت تركيا دعم بقية دول البلقان بقضية المضائق بشكل كبير.

بحلول منتصف آذار عام 1936 دخلت قضية المضائق مرحلة جديدة بسبب تحديات أخرى لمؤتمر فرساي الذي زوّد تركيا بأسباب مواتية لادّعائها، أي الحملة الإيطالية الناجحة على نحو متزايد في الحبشة في انتهاك ميثاق الأمم المتحدة، وإعادة احتلال الألمان مناطق منزوعة السلاح في رينلاند بتاريخ 1936/3/7 منتهكة معاهدتي فرساي ولوكارنو مما أزال هيبة القانون الدولي. في هذه الظروف ظهرت تركيا باعتبارها مثالاً جيداً للبلد القادر على إظهار إمكانية مراجعة المعاهدة بالتفاهم

بدلاً من القوة، وفي كلمة راند «رئيس قسم الشرق في وزارة الخارجية البريطانية» قال إنها سوف «تعرض لنا أملنا الوحيد بالسلام». بعد ذلك شُجّعت تركيا لإبراز قضية إعادة تسليح المضائق مرة ثانية. سمحت التطورات اللاحقة لتركيا بأن تكون وصية على المضائق باتفاقية مونترو لعام 1936. كان هذا انجازاً دبلوماسياً هائلاً لتركيا. حدث نتيجة إصرار أتاتورك على الحفاظ على الدبلوماسية.

بدأت تظهر مؤشرات تدهور صحة أتاتورك عام 1937. أثناء رحلة إلى يالَوا في الشهر الأول لعام 1938 واجه مرضاً خطيراً. توفي أتاتورك مؤسس الدولة الحديثة في 1938/11/10 عن عمر 57 عاماً.

فترة إينونو (1938–1950)

بعد يوم من وفاة أتاتورك، انتُخب عصمت إينونو رئيساً. تولى أيضاً قيادة حزب الشعب الجمهوري. بقي إينونو رئيساً للجمهورية التركية حتى أيار عام 1950. في المؤتمر العام لحزب الشعب الجمهوري في 1938/12/26 انتُخب إينونو قائداً لحزب الشعب الجمهوري بعد عهد أتاتورك. منح المندوبون أتاتورك لقب الرئيس الأبدي وإينونو الرئيس الوطني. وفقاً لنظام الحزب الواحد كان هناك علاقات ودية بين الحزب وجهاز الدولة لأن رئيس الدولة كان رئيس حزب الشعب الجمهوري في الوقت نفسه. وزير الشؤون الداخلية كان الأمين العام للحزب، والمحافظون رؤساء الحزب في المحافظات. لذلك قاد إينونو الحزب وجهاز الدولة بحزم، ولم يعط فرصة لبروز رجل ثانٍ. لذلك كان يسيطر على سياسة تركيا الخارجية والداخلية. في مؤتمر الحزب الاستثنائي

بتاريخ 1939/5/29، تأسست مجموعة مستقلة من نواب الحزب بهدف النقد الحر لسياسة الدولة بغياب أي حزب معارض. ولكن أعضاء المجموعة لم يستطيعوا التصرف كمعارضين، بالأحرى تصرفوا كأعضاء في حزب الشعب الجمهوري، ولم يثر أي منهم معارضة جدية لسياسة الحكومة في حين أن بعض أعضاء حزب الشعب الجمهوري فعلوا.

يمكن القول إن إمساك إينونو بالسياسة كلها لم يكن رغبة بخلق حكمٍ مطلق، بل حفاظاً على إصلاحات أتاتورك. يجب على المرء ألا ينسى حقيقة أن الحرب العالمية الثانية كانت على وشك الاندلاع عندما أتى إينونو إلى السلطة. شيء آخر هو أنه لم يكن من السهل التحكم بالسلطة السياسية بغياب تجربة ديمقراطية حيث لا يملك شخصية كارزمية كالقائد السابق. لم تُفقد مكاسب الجمهورية بوجه تزايد الانشقاق. في النهاية تخلّى إينونو طوعاً عن كل ألقابه بعد الحرب، ووضع نظاماً حزبياً تعددياً.

تشكّلت معظم سياسة تركيا الداخلية والخارجية في عهد إينونو في ظروف الحرب العالمية الثانية. على الرغم من عدم دخول تركيا الحرب فإن جيشها كان مستنفراً. خُصصت معظم الميزانية الوطنية التركية للنفقات العسكرية. بهدف التغلب على الأزمة الاقتصادية أصدرت الحكومة قانون حماية الأمن الوطني في 1940/1/18. حال هذا القانون دون الاضطراب الاقتصادي أثناء الحرب. ولكنه كان فاشلاً. المحاولة الثانية لتصحيح الوضع الاقتصادي كانت منع الأغنياء الذين يحاولون استغلال ظروف الحرب من الاحتكار واستخدام السوق

السوداء بحسب ادعاء الحكومة. ادعت الحكومة أنهم لا يدفعون ضرائب تناسب دخلهم. ركزت الحكومة اهتمامها على هؤلاء الأغنياء غير المسلمين بغالبيتهم في البحث عن مصادر جديدة لدخلها، فأصدرت قانوناً جديداً بتاريخ 1942/11/11 سمي ضريبة الممتلكات. خُصّص هذا القانون لجمع الأموال لحماية البلاد في حال نشوب حرب. فُرضت ضريبة على غير المنقول كالعقارات وعلى أصحاب الأبنية وتجار العقارات وبما في ذلك الأقليات. أُرسل من لم يستطع دفع ضريبته إلى معسكرات عمل. انتقدت قرارات الحكومة لأن هؤلاء الذين عانوا بشدة كانوا غير مسلمين. أخيراً تخلت الحكومة عن تطبيق قانون ضريبة الممتلكات في 1944/3/15.

لم تقتصر المعاناة من الحكومة على الأغنياء فقط. أُجبِر الفلاحون الأتراك أيضاً على دفع الضرائب بقانون صدر في 1943/5/3 من أجل الإصلاح الزراعي. كان الوضع في المناطق الريفية أكثر سوءاً من الوضع في المناطق المدنية. لذلك ادّعى البعض أن قانون الإصلاح الزراعي كان لإنهاء قانون الممتلكات.

المشاريع الثقافية

كان تأسيس معاهد القرى عام 1940 أحد مشاريع إينونو. إنه حجر الزاوية لمشروع التطوير الريفي. هدفه تدريب أبناء الريف ليصبحوا معلمين في القرى. كان هناك نقص بالمدارس في المناطق الريفية في تلك الفترة. اعتُقد أن سب النقص هو عجز المدرسين المدنيين عن التلاؤم مع الحياة الريفية. بنى الطلاب أبنية المعاهد الريفية الحديثة كلها، وأنتجوا طعامهم الخاص بأنفسهم. شمل تعليمهم المواد العلمية كالزراعة والإنشاء

والفنون والصناعات اليدوية إضافة إلى المواد التقليدية كالرياضيات والعلوم والأدب والتاريخ. واءمت تلك المدارس نظام الحزب الواحد، ولم تستطع العيش مع نظام تعددي، وأغلقت في 1954.

المشروع الثقافي الآخر هو البيوت الشعبية. فتحت أول مرة في المدن، ثم في القرى. كان هدفها تعليم الكبار في حلقات دراسية وأنشطة أخرى. افتتح أتاتورك البيوت الشعبية الأولى عام 1932 في المدن. وسّعها إينونو لتصل إلى المناطق الريفية تحت اسم الغرف الشعبية عام 1940. الغرف الشعبية أصغر من البيوت الشعبية نسبياً. أصدرت البيوت الشعبية في أنقرة مجلة فصلية سميت «أولكو/ الطليعي» (أطلق هذا الاسم أتاتورك) من شباط 1933 إلى آب 1950 بهدف تعزيز الحياة الثقافية، وجعل الناس يتآلفون مع الفكر الجمهوري. بعد ذلك أصدرت البيوت الشعبية مجلات أخرى بأسلوب أولكو نفسه ولكن بأسماء مختلفة. باعتبار أن نسبة كبيرة من الأتراك كانوا أميين في هذه الفترة، لم تكن المجلات أداة مناسبة تماماً لتعليم الناس. لذلك تأسست منظمة جديدة داخل هيكلية البيوت الشعبية تسمى المرشدين الشعبيين.

أصبحت البيوت الشعبية والغرف الشعبية جزءاً من مؤسسة حزب الشعب الجمهوري في عهد إينونو. كانت أنشطتها تلائم نظام الحزب الواحد. أغلقت هذه المؤسسات عندما وصل الحزب الديمقراطي إلى السلطة عام 1950 بذريعة أنها انحرفت عن أهدافها الأصلية.

الحرب العالمية الثانية والسياسة التركية الخارجية

أدرك أتاتورك احتمال نشوب الحرب العالمية الثانية بنسبة كبيرة. أراد أن يتحالف مع بريطانيا وفرنسا

والاتحاد السوفيتي لردع سياسات هتلر وموسوليني التوسعية في وسط أوروبا وشرق المتوسط. رفضت بريطانيا عرض أتاتورك بالتحالف حيث أنها كانت تتبع سياسة تساير إيطاليا وألمانيا. أخذت بريطانيا وقتاً كبيراً لفهم أن سياسة التصالح والمسايرة التي تتّبعها تجاه إيطاليا وألمانيا تدعم فقط خطتهما للسيطرة الاقتصادية والسياسية على جنوب شرق أوروبا وشرق المتوسط. احتلت ألمانيا تشيكوسلوفاكية في 1939/3/15، ثم هدّدت بولندا ورومانيا. بعد ذلك تخلت بريطانيا عن سياستها التصالحية مع الدول الفاشية، وسعت إلى تحالف يشبه اقتراح أتاتورك تقريباً. حل إينونو محل أتاتورك بعد وفاة المؤسس قبل بضعة أشهر من اندلاع الحرب عندما كان التوتر في ذروته والكتلتان -أي الديمقراطية الغربية والفاشية- تبحثان عن تحالفات.

استمر إينونو بالبحث عن تحالف مع البلدان الغربية. ولكن تركيا أصرت على ضرورة دخول الاتحاد السوفيتي التحالف حيث أنه لن يكون فعالاً من دونه. يمكن القول إن القلق من الاتحاد السوفيتي كان أحد العوامل الرئيسية وراء السياسة التركية الخارجية في الحرب العالمية الثانية. إذا أخذنا بعين الاعتبار تطلع الاتحاد السوفيتي منذ وقت طويل للوصول إلى المضائق التركية، فقد حرصت تركيا على عدم إعطاء الاتحاد السوفيتي أية ذريعة للعدوان. في الوقت نفسه كان لألمانيا خطتها الخاصة المتعلقة بتركيا حيث يعتمد اقتصاد تركيا بشكل ملحوظ عليها. حاول السفير الألماني الجديد في أنقرة فرانز فون بابين منع المزيد من التحركات التركية تجاه تحالفات غربية، والعودة إلى مسألة الحياد التركي. هدد بقطع ألمانيا التعاون الثقافي والاقتصادي كله إذا لم تبق تركيا حيادية.

لم تبق خطوة ألمانيا للتملص من الحصار الغربي محدودة بإبعاد تركيا عن تحالف غربي محتمل، بدأت تبحوث عن اتفاق مع الاتحاد السوفيتي في ربيع عام 1939 بهدف منع تحالف انكليزي سوفيتي فرنسي، وتدخل سوفيتي في أحداث الحرب الألمانية البولندية. في الوقع أن المفاوضات الألمانية السوفيتية وراء الأبواب المغلقة وصلت إلى إعلان اتفاقية عدم اعتداء في 1939/8/23. وقعت تركيا في مأزق عدم استطاعتها موالاة الحليف والسوفيت. ولا يمكن أن تنحاز دون مخاطر جسيمة. بنيت خطة تركيا الرئيسة على افتراض أن الاتحاد السوفيتي جزءاً من التحالف الغربي. ولكن أنقرة لم تفقد أملها. استمرت بالتفاوض مع فرنسا وبريطانيا من أجل الاتفاق من جهة، وسعت بمحاولة أخيرة لجلب الاتحاد السوفيتي إلى الجانب الغربي حيث زار وزير الخارجية التركي شكرو سراج أوغلو موسكو في 1939/9/26 من أجل اكتشاف نية موسكو من جهة أخرى. فجأة دعت الحكومة السوفيتية وزير الخارجية الألماني إلى موسكو بشكل متزامن. وهكذا أراد السوفيت تطوير قدرتهم على المساومة ضد كلا البلدين.

لم ينجم شيء عن زيارة سراج أوغلو لموسكو. اعتقدت الحكومة التركية حينئذ أن الحكومة السوفيتية مصمّمة على طموح روسيا القديم بالحصول على المضائق بوسيلة أو بأخرى. وبالتالي، أسست تركيا سياسة عدم تقديم أي تعهد للاتحاد السوفيتي يمكن أن يعرض موقفها للخطر عالمياً. توضّحت هذه السياسة في اتفاق ثلاثي وُقّع في 1939/10/19 تعفى تركيا بموجبه من أي فِعل يورّطها بأعمال عدائية مع الاتحاد السوفيتي.

حظيت قضية مشاركة تركيا بالحرب إلى جانب الحلفاء باهتمام بريطانيا الكبير، وبشكل خاص تشرشل. ولكن سياسة تركيا في الحرب العالمية الثانية كانت اللعب على الوقت، والتضرع بأن لا تنخرط بالحرب على الأقل، ليس قبل أن يصل تسليحها إلى مرحلة يمنحها فرصة أكبر لمقاومة الهجوم الألماني. علاوة على ذلك فإن أمل تركيا وكفاحها من أجل تشكيل تحالف رباعي مع فرنسا وبريطانيا والاتحاد السوفيتي ضد هتلر خاب حيث اختار الاتحاد السوفيتي الجانب الألماني. انسحاب فرنسا بعد أن هزمتها ألمانيا في البدايات الأولى للحرب من جهة، والضغط الألماني والسوفيتي من جهة أخرى أقنع الحكومة التركية بالبقاء خارج الحرب.

لم تكن تركيا قوة عسكرية في فترة الحرب، ولكنها تحتل مكاناً جيوسياسياً وجيوستراتيجياً هاماً في استراتيجيات القوى المتحاربة. عندما توسع الجيش الألماني حتى الحدود البلغارية التركية في آذار عام 1941، واحتل جزر أيجة في أيار، أصبح الموقف التركي في الحرب أساسياً للطرفين دون حاجة لذكر الوجود الإيطالي في جزر الديدوكانيسيا منذ عام 1912. بعد ذلك فضّل هتلر احتلال روسيا في 1941/6/22 بدلاً من الوصول إلى الشرق الأوسط عبر تركيا. هذا لا يعني زوال التهديد عن تركيا حيث كانت حدودها الشمالية خاضعة للقوات الألمانية.

ضغط الطرفان المتحاربان على تركيا لتقديم المساعدات الضرورية لسفنهما الحربية، ووقوف مرور العدو من المضائق، وفتح قواعدها الجوية وموانئها لاستخداماتهم الخاصة. طبيعة موقع تركيا الاستراتيجي

فرضت صداقة أنقرة. ظلت تركيا بلداً محايداً حتى لحظة الحرب الأخيرة، مع ذلك حملت أهمية تتجاوز إمكانياتها كقوة صغيرة بإمكانات عسكرية محدودة، وقاومت الضغوط من جميع القوى الكبرى. لم يكن لدى تركيا نية الدخول في سياسة مغامرة كما فعلت في الحرب العالمية الأولى. إضافة إلى عدم وجود طموح استعماري تحققه من الحرب. احتاجت تركيا وقتاً أطول لتنفيذ الإصلاحات الكمالية لدمج تركيا بالعالم الحديث.

في الواقع وعد الألمان تركيا بإجراء بعض التعديلات على حدودها لصالحها والعودة إلى التعاون. ولكن الحكومة التركية لم يكن لديها أي شكوى من جيرانها في تلك الفترة. لم تجد الدعاية الألمانية التي سعت إلى توحيد الأتراك داخل الاتحاد السوفيتي تجاوباً جيداً لدى الدوائر الرسمية على الرغم من تحمس البعض في الحركات القومية التركية لتلك الفكرة. أدرك واضعو السياسة التركية في ذلك الوقت أنه لا مجال للمطالب الأيديولوجية في السياسة الحقيقية. لم يولِ إينونو الذي كان الشخصية الرئيسة في السياسة الخارجية التركية بشكل خاص أي ثقة لأولئك الذين كانوا وراء سياسة المغامرة في السطر المذكور أعلاه.

قد لا تكون السياسة الخارجية التركية في الحرب محددة بدقة كطرف محايد تماماً. أفضل تحديد للموقف التركي هو أن الحياد أو عدم خوض الحرب خيّرٌ كما أشار سليم درينغيل. بالنسبة إلى تركيا ومنذ البداية الأولى وقفت إلى جانب الحلفاء بتوقيع اتفاق ثلاثي. قدمت تركيا في الحرب دعماً كبيراً للحلفاء من وراء الحياد. يمكن لأحد الإدعاء أن تركيا اتخذت الموقف الموالي

لألمانيا حيث وقّعت اتفاقية صداقة معها في 1941/6/18 تُسهل الغزو الألماني للاتحاد السوفيتي (الاسم الرمزي عملية بربروسا) في 22 حزيران. ولكن تركيا لم يكن لديها خياراً آخر غير التوقيع عليها. من ناحية أخرى لا مفر من الغزو الألماني: الغزو الذي ليس لدى تركيا جيش محدّث لمقاومته. مع ذلك لم يحدث كما أرادت بريطانيا.

أرادت تركيا فوز الكتلة الغربية في الحرب بصدق. ولكن التحالف السوفيتي مع بريطانيا المتابع لعملية بربروسا أثار قضية دور الاتحاد السوفيتي في الدوائر الرسمية التركية. هذا يعني أن خيار تركيا لم يكن النازيين. بالنسبة إلى السلطات التركية فإن هدف النازيين لم يكن مختلفاً عن هدف الاتحاد السوفيتي. لم تستطع بريطانيا العظمى أن تدعم الجيش التركي ليكون قادراً على القتال ضد الجيش الألماني المجهز تجهيزاً جيداً. أفضل ما يمكن للحكومة التركية أن تفعله بقاؤها خارج الحرب بقدر ما تستطيع. هذا ما فعله إينونو. على الرغم من اتخاذ تركيا موقفاً إلى جانب الحلفاء فإنها اضطرت لتقديم بعض التنازلات للألمان.

لم يكن الموقف التركي مفهوماً لبريطانيا حتى عام 3491، حيث أفادهم الموقف التركي المحايد بشكل جيد. على الرغم من انقلاب الوضع لصالح الحلفاء فقد ضغطوا على تركيا لتدخل الحرب إلى جانبهم. لفعل ذلك أتى تشرشل إلى أضنة -المحافظة التركية في منطقة شرق المتوسط- في 30/1-1943/2/1 ليناقش إينونو ورئيس الوزراء سرّاج أوغلو دخول تركيا الحرب. أراد تشرشل أن تدخل تركيا الحرب في نهاية السنة مقابل تزويدها بالأسلحة المطلوبة. في هذه النقطة كان رأي الحلفاء

بمشاركة تركيا في الحرب قضية نقاش. أراد بعضهم التعاون التركي بمنح الحلفاء إذناً باستخدام القواعد التركية بدلاً من مشاركة عسكرية فاعلة. آخرون وبشكل خاص الاتحاد السوفيتي أراد مشاركة عسكرية فعالة. بعد لقاءات دبلوماسية طويلة وافق إينونو على دخول تركيا الحرب «مبدئياً» في اجتماع القاهرة بتاريخ 1943/1/4. أراد الرئيس معدات حرب رائدة لتحديث جيشه، ووافق الحلفاء على هذا الطلب. في هذه الفترة كانت موسكو مترددة بتدخل تركيا في الحرب، برأيهم إنه متأخر جداً. وضح هذا الموقف شكاً تركيا بنوايا الاتحاد السوفيتي من تركيا. أخيراً لم تدخل تركيا في الحرب لأن الوقت انتهى.

احتجت بريطانيا والولايات المتحدة على الخط السياسي الذي نهجته تركيا، وقطعت العلاقات معها في أوائل عام 1944. لم تكن التطورات الأخيرة لصالح تركيا بالتأكيد إذ كان الحلفاء يُحضّرون لعملية أوفرلورد وهو الاسم الرمزي الذي أطلقوه على عملية النورماندي. بدأت تركيا أخيراً بقبول شروط الحلفاء عام 1944. في 2 آب قطعت تركيا علاقاتها الدبلوماسية والاقتصادية مع ألمانيا كما أراد الحلفاء. لفعل ذلك ضمنت تركيا بأنها ستعامل كبلد حليف في نهاية الحرب. لم يكن الاتحاد السوفيتي سعيداً بهذا بالتأكيد. عندما اجتمع الحلفاء في مؤتمر يالطا في 4-1945/2/11 طرح ستالين تعديل اتفاقية مونترو لعام 1936 التي تنظم عبور السفن الحربية الأجنبية داخل البحر الأسود وخارجه، ولكن المندوبين الأمريكان والبريطانيين لم يؤيدوا مطالب السوفيت. قرار آخر هام يتعلق بتركيا في مؤتمر يالطا كان دعوة الذين قطعوا علاقاتهم الدبلوماسية مع ألمانيا وإن لم يشتركوا فعلاً

بالحرب إلى مؤتمر سان فرانسيسكو. أثبت هذا لتركيا أن بريطانيا لن تتركها في فترة ما بعد الحرب وجهاً لوجه مع الاتحاد السوفيتي في سبيل مصالحها على المدى الطويل في المنطقة.

في 1945/2/23 أعلنت تركيا الحرب على اليابان وألمانيا كما تقرر في يالطا لتصبح قادرة على حضور مؤتمر سان فرانسيسكو الذي أسس الأمم المتحدة. لذلك كانت تركيا واحدة من الأعضاء المؤسسين للأمم المتحدة. في النهاية نجحت تركيا على ما يبدو بالوقوف مع الطرف الرابح حتى وإن بقيت خارج الحرب.

مرحلة انتقال تركيا إلى الليبرالية الديمقراطية (1945-1950)

تأثرت تركيا سلباً بالحرب العالمية الثانية على الرغم من عدم خوضها. جيش كبير مستعد ومستنفر طوال الحرب، ارتفاع أسعار سريع، تخزين عدد من المواد الغذائية الأساسية، فقدان عدد من المواد أو بيعها في السوق السوداء. أُثيرت ردة فعل اجتماعية كبرى نابعة من مشاكل الحرب ضد حزب الشعب الجمهوري حيث لم تُلبِ مشاريعه الاقتصادية والاجتماعية متطلبات الناس، وبشكل خاص في المناطق الريفية. إضافة إلى ذلك ظهرت حركة معارضة قوية داخل حزب الشعب الجمهوري اشتكت من الإدارة الجائرة للحزب، وطلبت مزيداً من الحرية والديمقراطية. أثار موقف الرئيس إينونو المتساهل أيضاً هذه الحركة حيث لم يستطع أن يبقى بمعزل عن الانشقاق الاجتماعي. في الوقع ذكر أولاً ضرورة تحرر النظام عام 1945، ثم بدأ الحديث عن الحاجة لحزب معارض.

هناك عوامل خارجية وراء التحرك الديمقراطي لإينونو. كانت تركيا خائفة من العزلة عن العالم الحر بسبب حيادها في الحرب العالمية الثانية. العزلة تعني ترك تركيا وحيدة في وجه السوفيت الضاغط بشكل كبير على تركيا بمطالبه من أجل قواعد عسكرية ودفاع مشترك في المضائق التركية. لم تستطع تركيا فعل أي شيء إزاء المطالب السوفيتية دون دعم من الخارج. للحصول على دعم غربي سارعت تركيا للتحول إلى نظام متعدد الأحزاب حيث لم يكن نظام الحزب الواحد ملائماً لأنشطة الديمقراطية الغربية بعد الحرب.

هناك قليل من الشك بأن الحركة التي بدأت مرحلة التغيير نابعة من المعارضة داخل حزب الشعب الجمهوري. أربع أعضاء من حزب الشعب الجمهوري هم جلال بايار آخر رئيس وزراء لأتاتورك ورفيق قورلطان وفؤاد كوبرولو وعدنان مندرس قدموا تقريراً شهيراً لكتلة حزب الشعب الجمهوري البرلمانية، وسمي لاحقاً التقرير الرباعي. أرادوا تغيير أنظمة الحزب وبعض القوانين. بعد رفض تقريرهم استقال بايار من الحزب ومن البرلمان. طُرد مندرس وكوبرولو وكورالتان من الحزب لعدم التزامهم بقواعد الحزب.

أسس بايار ومندرس وكوبرولو وقورولطان الحزب الديمقراطي بتاريخ 1946/1/7. قابل الناس تأسيس الحزب الجديد بحماس لأنهم تعبوا من السياسات الظالمة للحزب الواحد. دافع الحزب الديمقراطي عن النهج الاقتصادي الليبرالي والديمقراطية. تطور سريعاً بفترة قصيرة. ولكن أول حزب تركي معارض كان حزب التنمية الوطني الذي تأسس في 1945/18/7. لم يزدهر مثلما

ازدهر الحزب الديمقراطي. في عام 1946 تأسس أحد عشر حزباً آخر بالإضافة إلى الحزب الديمقراطي وحزب التنمية الوطني.

تأسيس الأحزاب الكثيرة دفع حزب الشعب الجمهوري لإعادة تقييم برنامجه الديمقراطي. في 1946/5/10 تخلى إينونو عن ألقاب الرئيس المؤبد والرئيس الوطني في مؤتمر استثنائي للحزب. ألغيت المجموعة المستقلة داخل حزب الشعب الجمهوري وتم تعديل نظام الانتخابات وأصبحت القوانين المتعلقة بالصحافة حرة.

في غضون ذلك، نجح الحزب الديمقراطي بدخول البرلمان في انتخابات عام 1946. في انتخابات 14/ 5/ 1950 استلم الحزب الديمقراطي السلطة. وبالتالي انتهت مرحلة الحزب الواحد في تركيا وتغيرت السلطة لأول مرة بتصويت الشعب. انتخب البرلمان جلال بايار رئيساً لتركيا. وكلف عدنان مندرس بتشكيل الحكومة.

استُبدلت حكومة حزب الشعب الجمهوري لسبعة وعشرين عاماً بحكومة الحزب الديمقراطي بطريقة ديمقراطية. كان هذا حدثاً هاماً في الديمقراطية التركية. لذلك جربت وظلت تجرب نظاماً سياسياً متعدد الأحزاب. ولكن الديمقراطية التركية واجهت صعوبات كبيرة لدرجة أنها كانت كافية لجعلها «تحافظ على نفسها». حدث انقلابان عسكريان في عامي سبعين وثمانين من القرن العشرين. وقع انقلاب على الحكومة وتأسس نظام ديمقراطي جديد. تأثرت الديمقراطية التركية بالانقلاب بمذكرة عام 1971 لتغير الحكومة. في عام 1997 ضغط الجيش التركي عبر مجلس الأمن القومي للحفاظ على الحالة العلمانية من الضعف نتيجة وصول حزب

الرفاه الديني إلى الحكومة. على الرغم من إعاقة تلك التدخلات العسكرية الديمقراطية، ولكنها لم تخلق أي نظام بديل عن الديمقراطية.

السياسة التركية الخارجية في الحرب الباردة (1945–1990)

أزالت هزيمة هتلر السبب الرئيس لتحالف واسع بين البلاد الغربية والاتحاد السوفيتي، وعاد كل بلد إلى سياسته الخاصة بعد الحرب. برزت الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي كقوتين عظميين حيث قسمت مصالحهما العالم إلى كتلتين. كانت الكتلتان الأيديولوجيتان والإستراتيجيتان الغرب الديمقراطي بقيادة الولايات المتحدة، والشيوعية الشرقية بقيادة الاتحاد السوفيتي. هذا ما أدى إلى بداية حرب باردة. خلال هذه المرحلة اضطرت البلاد للانضمام إلى أحد المعسكرين بما يوافق طبيعتها.

لم يكن أمام تركيا مفر من اتخاذ قرار بالانضمام إلى المعسكر الغربي في مرحلة ما بعد الحرب لأنها لم تر الحياد خياراً قابلاً للتطبيق تحت الضغط السوفيتي بمطالب عسكرية في المضائق. كان إينونو حريصاً على تبني سياسة خارجية ترتكز على التعاون مع الولايات المتحدة. في المرحلة الأولى لم تحدّد الولايات المتحدة أهمية تركيا الإستراتيجية في منطقة الشرق الأوسط جيداً. أتى القبول التركي بالتحالف ببطء، ولكنه مع ذلك كان كاملاً عندما أتى. زيارة السفينة الحربية الأميركية ميسوري لاسطنبول عام 1946 بداية المساعدة العسكرية والاقتصادية الأمريكية، ومع تطبيق مبدأ ترومان عام 1947 ومشروع مارشال في عام 1948 قويت مؤسسات السياسة الخارجية التركية التي تسير بالمنحى الغربي بقيادة إينونو، وبعد ذلك حافظ عليها

الحزب الديمقراطي. استمر توجه تركيا الغربي بمشاركته الفعالة في الحرب الكورية عام 1950-1953، وبعضويتها في الناتو بتاريخ 1952/2/17. احتفظت تركيا بموقفها الفريد من نوعه في نظام الأمن الغربي خلال فترة الحرب الباردة. كان للمضائق أهمية خاصة في الحرب الباردة لإبطال مفعول تهديد الغواصات السوفيتية في البحر المتوسط. لذلك قدمت تركيا أمن الجناح الجنوب الشرقي لحلف شمال الأطلسي.

كانت الاعتبارات الأمنية والاقتصادية عوامل رئيسة في علاقة تركيا بالغرب في فترة الحرب الباردة. مع ذلك يمكن النظر إلى تقارب تركيا مع الغرب باعتباره استمراراً لعملية التحديث والتغريب بالتوازي مع قلق سياستها الخارجية. تمادى مقررو السياسة التركية الخارجية كثيراً جداً من جانب واحد بتحالفهم مع الغرب (بشكل خاص خلال فترة حكم الحزب الديمقراطي). أضعف تركيا هذا الموقف الأحادي الجانب من الغرب. مثلاً، انخرط الحزب الديمقراطي فعلياً في الشرق الأوسط من أجل الانسجام مع مصالح الغرب السياسة الخارجية، وأبدا حماساً كبيراً للتعاون مع الولايات المتحدة في شؤون الشرق الأوسط.

على الرغم من توقيع حكومة الحزب الديمقراطي اتفاقية مع الولايات المتحدة تسمح بموجبها بوضع صورايخ جوبتر الموجهة إلى الاتحاد السوفيتي في أراضيها، لم تحصل تركيا على الدعم المالي الأمريكي. تغير العلاقات بين الشرق والغرب الذي توضح بعد أزمة الصواريخ الكوبية عام 1962 أظهر أن الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي مصممان على عدم الانجرار إلى الحرب، وهذا ما أقنع مقررو السياسة التركية بالحاجة إلى

سياسية خارجية متعددة الأطراف. حاولت تركيا بين وقت وآخر نهج سياسية خارجية متعددة بالتقرّب من الاتحاد السوفيتي ودول عدم الانحياز، حيث خيب أملها حلفاؤها الذين فشلوا بدعمها في القضايا المالية والشؤون السياسية الخارجية. حتى الآن لم تحاول أي من الحكومات التركية أساساً تغيير السياسة الخارجية الغربية المنحى. تركيا لم أو لا تستطيع إيجاد سياسة خارجية بديلة: البديل للولايات المتحدة الأميركية في سياستها الخارجية كانت السوق الأوروبية المشتركة ولاحقاً الاتحاد الأوروبي. البديل للغرب بالنسبة إلى تركيا كان الغرب في هذه المرحلة. العمل الرئيس لراسمي السياسية الخارجية التركية في فترة الحرب الباردة وحتى مرحلة بعد الحرب كان التأكيد على قضيتين: قبرص والانضمام إلى الاتحاد الأوروبي.

قضية قبرص

ترى تركيا أن جذر مشكلة قبرص يعود إلى المرحلة العثمانية. تولّت بريطانيا قبرص مؤقتاً من الإمبراطورية العثمانية مقابل دعمها في الحرب التركية الروسية عام 1878. بعد انهيار الإمبراطورية العثمانية اعترفت تركيا بالسيادة البريطانية على قبرص في مؤتمر لوزان. ولكن القبارصة اليونانيين نهجوا سياسة تسمى إينوسيس تهدف إلى توحيد قبرص مع اليونان حيث يعتبرون اليونان وطنهم الأم. على الرغم من نهج القبارصة اليونانيين سياسة إينوسيس، تنظم القبارصة الأتراك في منظمات وأحزاب مختلفة بهدف الدفاع عن حقهم بمنع قبرص من الاتحاد مع اليونان. أرادت اليونان أيضاً أن تبحث القضية مع بريطانيا العظمى في محادثات ثنائية عام 1954. هم أيضاً ضمنوا لبريطانيا قاعدةً مقابل اعترافها بإينوسيس،

ولكن بريطانيا رفضت ذلك بقولها ليس لديها مشكلة في قبرص لمناقشتها.

لم تُرِد تركيا الانخراط في القضية طالما بقيت قبرص تحت السيطرة البريطانية. ولكنها احتفظت بحقها في التدخل إذا حدث أي تغيير في الوضع القائم. في غضون ذلك تشكلت حركة فدائية هي منظمة النضال القومي للقبارصة عام 1955 بهدف إنهاء الحكم البريطاني وتوحيد الجزيرة مع اليونان، وبدأت بريطانيا بمناقشة الجلاء. نفذت تلك المنظمة سلسلة عمليات إرهابية ضد البريطانيين والقبارصة الأتراك. بعد ذلك أصبحت تركيا جزءاً من القضية حيث نفذت بريطانيا خطتها بالجلاء عن الجزيرة، واستمرت الهجمات الإرهابية ضد القبارصة الأتراك. بعد مناقشات طويلة بين اليونان وبريطانيا وتركيا، أُجْبِر القبارصة اليونانيون وقادة اليونان على القبول بتشكيل قبرص المستقلة عام 1960. أُسِّست جمهورية قبرص باتفاقيات زيوريخ لعام 1959 ولندن لعام 1960. اقترحت هذه الاتفاقيات قيادة جماعية بين القبارصة الأتراك واليونانيين: يكون الرئيس يونانياً ونائبه تركياً له حق نقض أي قرار من قرارات الرئيس. تضمن اليونان وبريطانيا وتركيا الجمهورية. لأي بلد من هذه البلدان حق التدخل بمفرده أو بالتعاون مع البلدين الآخرين إذا انتهك للوضع الذي تأسس عام 1960.

لم يُبدِ المطران مكاريوس رئيس الجمهورية استعداداً لتطبيق اتفاق 1960. عامل الأتراك كأقلية عكس الوضع الذي تأسس عام 1960. طبّق سياسية تتماشى مع إينوسيس التي أدت إلى انهيار الاتفاقية. بعد ذلك، طرد القبارصة الأتراك الموظفين في مؤسسات الدولة في نهاية عام 1963. منذ ذلك الحين يتعرض القبارصة

الأتراك لاعتداءات اليونانيين الثقيلة على الجزيرة. عندما حذرت تركيا القبارصة اليونانيين من أن شروط التدخل التركي المقترح في اتفاقيات زيوريخ ولندن تحققت نتيجة عنفهم تجاه المجتمع التركي، ورفض المجتمع التركي في الجزيرة، حذر رئيس الولايات المتحدة ليندون جونسون تركيا من فعل ذلك. بعد ذلك جرت بعض المناقشات بين اليونان وتركيا لإيجاد حل دبلوماسي للمشكلة.

في غضون ذلك شكل القبارصة اليونانيون المنظمة اليمينية شبه العسكرية المتبنية الإينوسيس عام 1971، وكانت مدعومة من حكومة المجلس العسكري اليوناني التي وصلت إلى السلطة عام 1967. كانت تلك منظمة إرهابية في المقام الأول حيث قتلت المدنيين، وتحت تأثير المجلس العسكري وسيطرته المباشرة في أثينا أطاحت بمكاريوس، وثبّتت نيكوس سامبسون عام 1974 حاكماً مطلقاً لقبرص بهدف إنجاز الوحدة عبر وسائل عنيفة. وضعت تلك التطورات القبارصة الأتراك في موقف غير آمن مما أدى إلى تدخل عسكري تركي عام 1974 بموجب اتفاقيات زيوريخ ولندن لعامي 1959 و1960. تدخلت تركيا بهدف وضع حدّ لاعتداءات القبارصة اليونانيين على القبارصة الأتراك. في النهاية انقسمت الجزيرة إلى قسمين: القبارصة اليونانيون في الجنوب والأتراك في الشمال.

واجهت تركيا الحظر الأمريكي الذي استمر حتى عام 1978 إثر التدخل العسكري. بما أن المحادثات الطويلة لم تأتِ بأي حل، أعلن القبارصة الأتراك استقلالهم بتأسيس جمهورية قبرص الشمالية التركية في 1983/11/15. أصبح رؤوف دنكطاش رئيساً للجمهورية. ولكن لم يعترف بها أي بلد أو منظمة دولية غير تركيا.

من المثير للاهتمام أن نلاحظ هنا أن اللوم أُلقي على تركيا والقبارصة الأتراك بحجة رفضهم الحل في قبرص، على الرغم من بذل تركيا ودنكطاش جهداً كبيراً لوضع نهاية للقضية. وضح الأمر عندما دعمت تركيا والقبارصة الأتراك قرارات كوفي عنان المتعلقة بقضية قبرص لإجراء استفتاء في قبرص الشمالية والجنوبية في نيسان 2004، في حين أن القبارصة اليونانيين رفضوها.

السعي الطويل للاتحاد الأوروبي

قدمت تركيا طلباً للمرة الأولى بالانضمام إلى الاتحاد الأوروبي عام 1959، واعتُرِف بها كعضو غير كاملٍ عام 3691. أرادت تركيا دائماً أن تُقبل باعتبارها جزءاً من أوروبا، ولكنها لم تبذل جهداً كبيراً لتعزيز ممارستها من أجل عضوية كاملة لأسباب اقتصادية بشكل رئيس، وخوفاً من آثار فتح سوقها للتغلغل الأوروبي. وعندما أتى طورغوت أوزال إلى السلطة عام 1983 نهج سياسة اقتصاد السوق ولكن إجراءاته من أجل عضوية كاملة عام 1987 رُفضت. منذ ذلك الحين شغلت العلاقات مع الاتحاد الأوروبي مكانة أساسية وحاسمة في السياسيات الخارجية التركية. ولكن تطبيق معايير كوبنهاغن التي أصدرها البرلمان الأوربي في حزيران 1993 احتلت الصدارة في هذه الفترة لتحصل تركيا على عضوية كاملة.

انضمت تركيا إلى الاتحاد الجمركي الأوروبي عام 1995، واعتبرت خطوة كبيرة على طريق عضوية الاتحاد الأوروبي، ولكنها واجهت خيبة أمل كبيرة في اجتماع المجلس الأوروبي في لوكسمبورغ عام 1997 حيث لم تستطع تركيا أن تجد مكاناً بين الدول المرشحة. بعد سنتين من العلاقات الباردة مع تركيا، قبل المجلس

الأوروبي بتركيا دولة مرشحة في اجتماع هلسنكي عام 1999 الذي سوّى العلاقات. بعد ذلك بُحث جدول أعمال كبير للإصلاح تنفذه تركيا، ولوحظت جهود تشريعية كبيرة شُملت من بين تدابير أخرى مثل التعديلات الدستورية الشاملة لتشرين الأول 2001 وأيار 2004. دخلت علاقات تركيا مع الاتحاد الأوروبي منعطفاً هاماً نحو العضوية الكاملة عام 2004 من خلال بدء مفاوضات الانضمام مع تركيا في 2005/10/3.

أحدثت مرحلة ما بعد الحرب الباردة تغييرات ملحوظة في المناطق المحيطة بتركيا مما أجبر واضعو السياسية الخارجية التركية على التكيف مع الظروف العالمية والإقليمية الجديدة. وبالتالي أسست أنقرة سياسة خارجية متعددة الأطراف هدفت إلى تقارب دبلوماسي مع القوقاز وآسيا الوسطى والبلقان وحتى مع الشرق الأوسط مؤخراً والذي ينظر إليه على أنه كيان جغرافي وكيان سياسي وثقافي أيضاً. حاولت تركيا بناء علاقات جيدة مع روسيا بنجاح ملحوظ أيضاً. وهذا ينسحب على العلاقات مع إسرائيل أيضاً. ولكن ملامح السياسة الخارجية التركية هذه لا تستبعد تماماً التعاون مع الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد الأوروبي والتي بقيت أيضاً أولويات هامة. مؤخراً واجهت تركيا تحديات كبيرة بعد أزمة الخليج عام 1990، وغزو القوة متعددة الجنسيات بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية العراق عام 2003، والأحداث اللاحقة منها إثارة عدم الاستقرار في العراق. توجب على تركيا أيضاً الاتفاق مع حزب العمال الكردستاني وهو تنظيم إرهابي نفذ أنشطة إرهابية داخل تركيا. على الرغم من أن تركيا طمحت بدعم عالمي من أجل هذا الصراع ضد الإرهاب ولكنها أصيبت بخيبة أمل كبرى.

المصادر والمراجع وقراءات مقترحة

Armaoğlu, Fahir, *Siyasi Tarih (1789-1960)*, Ankara: Sevinç Matbaası, 1964.

Bainbridge, Margaret (ed.), Turkic People of the World, Colombia University Press, 1993.

Beeley, Brain W. (ed.), *Turkish Transformation: New Century New Challanges*, Huntingdon: The Eothen Press, 2002.

Çavdar, Tevfik, *Türkiye'nin Demokrasi Tarihi (1839-1950)*, Ankara: İmge, 2004.

Deringil, Selim, *Turkish Foreign Policy during the Second World War: an Active Neutrality*, Cambridge: Cambridge University Press, 1989.

Ersanlı Bahar, Büşra (ed.), *Bağımsızlığın ilk Yılları: Azerbaycan, Kazakistan, Kırgızistan, Özbekistan, Türkmenistan*, Ankara: Kültür Bakanlığı, 1994.

Findley, Carter V., *The Turks in World History*, New York: Oxford University Press, 2005.

Finkel, Caroline, *Osman's Dream: The Story of the Ottoman Empire, 1300–1923*, John Murray, 2005.

Halaçoğlu, Yusuf, *Ermeni Tehciri ve Göç*, İstanbul: Bab-ı Ali Kültür Yayınları, 2004.

Hale, William, *Turkish Foreign Policy, 1774-2000*, London: Frank Cass, 2000.

Heper, Metin, *İsmet İnönü: Yeni Bir Yorum Denemesi*, Istanbul: Tarih Vakfı Yurt Yayınları, 1999

Hostler, Charles Warren, *The Turks of Central Asia*, London: Praeger, 1993.

Güvenç, Bozkurt, *Türk Kimliği: Kültür Tarihinin Kaynakları*, Ankara: Kültür Bakanlığı, 1994.
Imber, Collin, *Osmanlı Imparatorluğu 1300–1650*, İstanbul: Bilgi Üniversitesi Yayınları, 2006.
İnalcık, Halil, *The Ottoman Empire: The Classical Age, 1300-1600*, London: Phoenix, 1994.
İnan, S. & Haytaoğlu, E (eds.), *Yakın Dönem Türk Politik Tarihi*, Ankara: Anı Yayıncılık, 2006
Kafesoğlu, İbrahim, *Türk Milli Kültürü*, İstanbul: Boğaziçi Yayınları, 1995.
Köseoğlu, Nevzat, *Türk Dünyası Tarihi ve Türk Medeniyeti Üzerine Düşünceler*, İstanbul: Ötüken, 1997.
Lewis, Bernard, *The Emergence of Modern Turkey*, Oxford: Oxford University Press, 2001.
Lord Kinross, *Atatürk: Bir Milletin Yeniden Doğuşu*, İstanbul: Altın Kitaplar, 2006.
Mango, Andrew, *Atatürk: The Biography of the Founder of Modern Turkey*, John Murray, 2004.
Mango, Andrew, *The Turks Today*, Woodstock: The Overlook Press, 2004.
Merçil, Erdoğan, *Müslüman Türk Devletleri Tarihi*, Ankara: TTK, 1991.
Merçil, Erdoğan, *Büyük Selçuklu Devleti Siyasi Tarihi*, Ankara: Nobel Yayın, 2005.
Oran Baskın, (ed.), *Türk Dış Politikası*, İstanbul: İletişim, 2001.
Ortaylı, İlber, *Osmanlı İmparatorluğu'nda Alman Nüfuzu*, İstanbul: Alkım, 2006.
Özey, Ramazan, *Türk Dünyası*, İstanbul: Eğitim, 1997.
Rasonyi, Laszlo, *Tarihte Türklük*, Ankara: Türk Kültürünü Araştırma Enstitüsü, 1993.
Roux, Jean-Paul, *Türklerin Tarihi: Pasifik'ten Akdeniz'e 2000 yılı*, İstanbul: Kabalcı, 2007.

Sevim, A. & Yücel, Y., *Türkiye Tarihi: Fetih, Selçuklu ve Beylikler Dönemi*, Ankara: TTK, 1989.

Sevim, A. & Merçil, E., *Selçuklu Devletleri Tarihi: Siyaset, Teşkilat ve Kültür*, Ankara: TTK, 1995.

Seydi, Süleyman, *The Turkish Straits and the Great Powers: From the Montreaux Convention to the Early Cold War, 1936-1947*, İstanbul: the Isis Pres, 2003.

Shaw, Stanford, *History of the Ottoman Empire and Modern Turkey, Vol I; Empire of Gazis: The Rise and Decline of the Ottoman Empire 1290–1808*, Cambridge: Cambridge University Press, 1976

Sonyel, Salahi Ramsdan, *Turkish Diplomacy 1918-1923: Mustafa Kemal and the Turkish National Movement*, London: SAGE, 1975.

Şahin, Muhammet, *Türk Tarihi ve Kültürü*, Ankara: Gündüz Eğitim ve Yayıncılık, 2003.

Turan, Ahmet Nezihi (ed.), Tarih El Kitabı: *Selçuklulardan Bugüne*, Ankara: Grafiker, 2004.

Turan, Osman, *Selçuklular Zamanında Türkiye*, İstanbul: Ötüken, 2004.

Türk Dünyası El Kitabı, Birinci Cilt, Ankara: Türk Kültürünü Araştırma Enstitüsü, 1992.

The Important Events of Turkish History, Ankara: The General Staff Printing House, 2003.

Yazıcı, Nesimi, *İlk Türk - İslam Devletleri Tarihi*, Ankara: Türk Diyanet Vakfı, 2005.

Yücel, Yaşar, *Timur'un Ortadoğu - Anadolu Seferleri ve Sonuçları (1393 - 1402)*, Ankara: TTK, 1989.

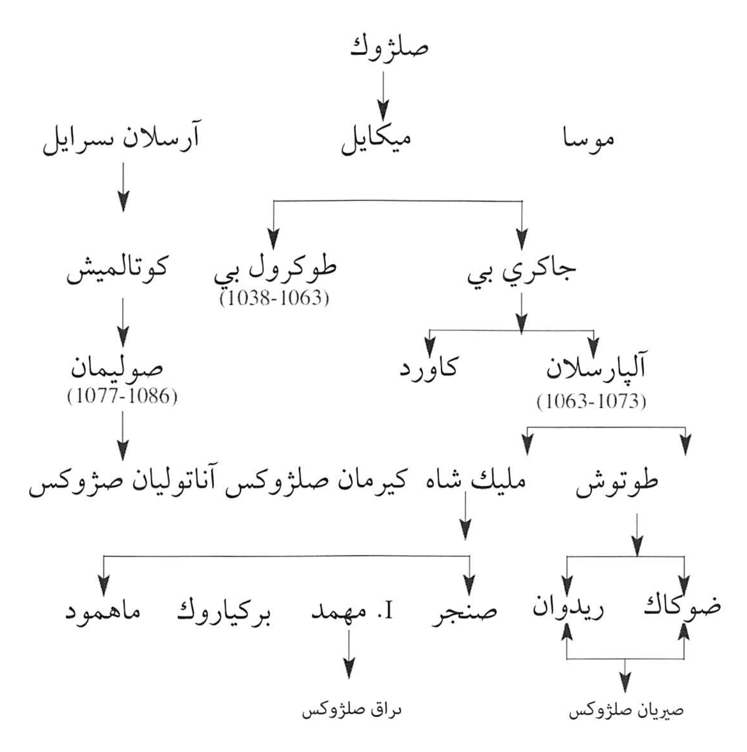
Zürcher, Erik Jan, *Modernleşen Türkiye'nin Tarihi*, İstanbul: İletişim Yayınları, 2006.

www.theottomans.org

http://en.wikipedia.org

الملحقات

شجرة عائلة سلجوق



قائمة سلاطين سلاجقة الأناضول

سليمان الأول	(1086 – 1077)
قلج أرسلان الأول	(1107 – 1092)
مليكشاه الأول	(1116 – 1107)
مسعود الأول	(1155 – 1116)
قلج أرسلان الثاني	(1192 – 1155)
كيهوسريف الأول	(1197 – 1192)
سليمان الثاني	(1204 – 1196)
قلج أرسلان الثالث	(1204)
كيهوسريف الأول (الفترة الثانية)	(1211 – 1204)
كيهوسريف الأول	(1220 – 1211)
علاء الدين كيكوباد الأول	(1237 – 1220)
كيهوسريف الثاني	(1246 – 1237)
كيهوسريف الثاني	(1260 – 1246)
قلج أرسلان الرابع	(1265 – 1248)
علاء الدين كيكوباد الثاني	(1257 – 1249)
كيهوسريف الثاني	(1282 – 1265)
مسعود الثاني	(1284 – 1281)
علاء الدين كيكوباد الثالث	(1284)
مسعود الثاني (الفترة الثانية)	(1293 – 1284)
علاء الدين كيكوباد الثالث	(1294 – 1293)
مسعود الثاني (الفترة الثالثة)	(1301 – 1294)
علاء الدين كيكوباد الثالث (الفترة الثالثة)	(1303 – 1301)
مسعود الثاني (الفترة الرابعة)	(1307 – 1303)

قائمة السلاطين العثمانيين

عثمان الأول	(1326 – 1299)
أورهان غازي	(1359 – 1326)
مراد الأول	(1389 – 1359)
بيازيد الأول	(1402 – 1389)
محمد الأول	(1421 – 1413)
مراد الثاني	(1451 – 1421)
محمد الثاني	(1481 – 1451)
بيازيد الثاني	(1512 1481-)
سليم الأول	(1520 – 1512)
سليمان الأول	(1566 – 1520)
سليم الثاني	(1574 – 1566)
مراد الثالث	(1595 – 1574)
محمد الثالث	(1603 – 1595)
أحمد الأول	(1622 – 1603)
مصطفى الأول	(1623 – 1622)
عثمان الثاني	(1622 – 1618)
مراد الرابع	(1640 – 1623)
إبراهيم	(1648 – 1640)
محمد الرابع	(1687 – 1648)
سليمان الثاني	(1691 – 1687)
أحمد الثاني	(1695 – 1691)
مصطفى الثاني	(1703 – 1695)
أحمد الثالث	(1730 – 1703)

محمود الأول	(1754 – 1730)
عثمان الثالث	(1757 – 1754)
مصطفى الثالث	(1774 – 1757)
عبد الحميد الأول	(1789 – 1774)
سليم الثالث	(1807 – 1789)
مصطفى الرابع	(1808 – 1807)
محمود الثاني	(1839 – 1808)
عبد المجيد	(1861 – 1839)
عبد العزيز	(1876 – 1861)
مراد الخامس	(1876)
عبد الحميد الثاني	(1909 – 1876)
محمد الخامس	(1918 – 1909)
محمد السادس	(1922 – 1918)

رؤساء جمهورية تركيا

مصطفى كمال أتاتورك	(1938 – 1923)
عصمت إينونو	(1950 – 1938)
جلال بايار	(1960 – 1950)
جمال غورسيل	(1966 – 1960)
جودت صوناي	(1973 – 1966)
فخري قوروتورك	(1980 – 1973)
كنعان إفرين	(1989 – 1982)
سليمان ديمريل	(2000 – 1993)
أحمد نجدت سيزار	(2007 – 2000)
عبد الله غول	(2007 – 2014)
رجب طيب أردوغان	(– 2014)